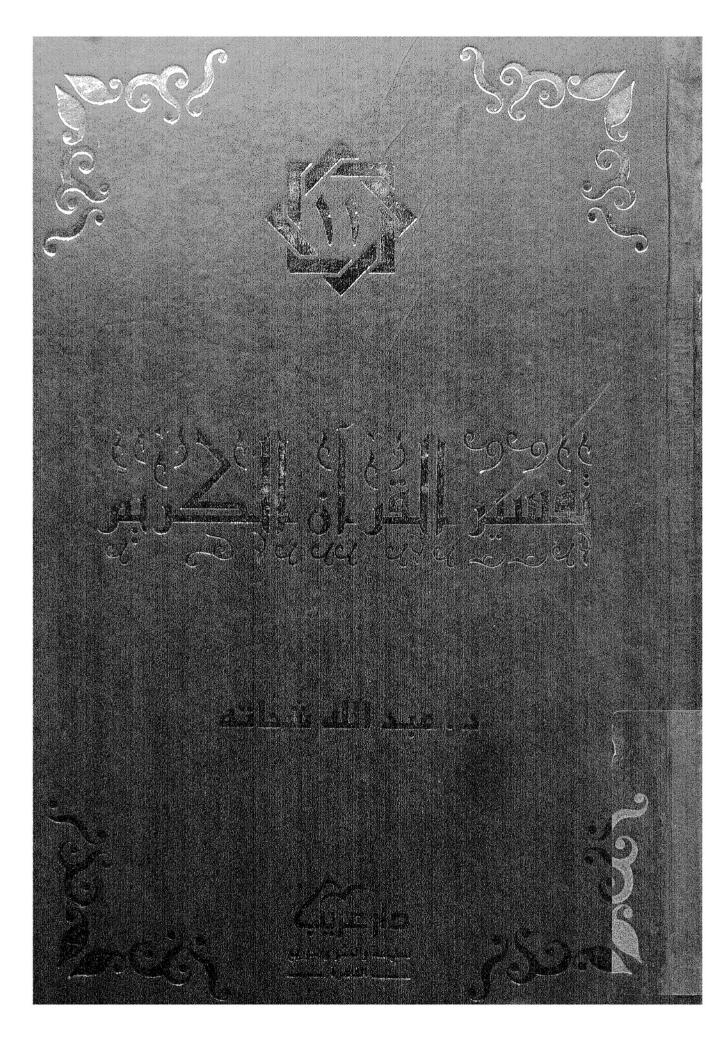

١١
تفسير القرآن الكريم
د. عبد الله شحاته
دار غريب

إهـــــــداء2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الحادى والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٤٨) بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) ﴾

المفردات:

الجـــــــــدل: الحجاج والمناظرة والمناقشة.

أهل الكتـــــاب: اليهود والنصارى، أتباع موسى وعيسى عليهما السلام.

إلا بالتى هى أحسن: إلا بالخصلة التى هى أحسن كمعارضة الخشونة باللين، والغضب بالكظم وضبط النفس، والمشاغبة بالنصح والتنبيه إلى آيات الله وحججه.

إلا الذين ظلموا منهم: لكن الظالمون منهم بالإفراط فى الاعتداء والعناد والمحاربة، فجادلوهم وعاملوهم بالمثل.

وأنــزل إلـيـكـم: صدقنا بالقرآن، وبالتوراة وبالإنجيل فى أصولهما الصحيحة.

مـــســلـمــــون: خاضعون مطيعون.

وما يجحد بآياتنا: مع ظهورها وقيام الحجة على صدقها، والجحد: إنكار الشىء بعد معرفته والعلم به.

إلا الكافــــرون: المتوغلون فى الكفر، وهم المشركون الذين كفروا برسالة محمد ﷺ وجحدوا بالقرآن.

الارتيـــــــاب: الشك.

المــبـطـلــون: أتباع الباطل وهم الكافرون.

الـــظـــالمــون: الذين ظلموا أنفسهم وجحدوا وجه الحق.

التفسير:

٤٦ - وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

دعوة للمسلمين أن يتلطفوا فى النقاش والجدال مع أهل الكتاب باستعمال النغمة الهادئة، والحكمة والأسلوب اللين.

كما قال تعالى: ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... (النحل: ١٢٥).

وقال سبحانه لموسى وهارون: اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (طه: ٤٣، ٤٤).

وهذا منهج الإسلام فى النقاش والجدال، ورحابة صدره حيث يدعو إلى الإيمان بالرسل والكتب والأنبياء السابقين؛ لأن الرسل جميعا أرسلهم إله واحد بالدعوة إلى توحيد الله، والتحلى بمكارم الأخلاق، والتخلّى عن الرذائل والقبائح.

يقول الله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (البقرة: ٢٨٥).

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلاَّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» (١).

ما أجمل دين الإسلام، وما أسمى أهدافه، فقد احترم الرسالات السماوية، وصدّق بالكتب السابقة، وحث على النقاش الهادئ مع أهل الكتاب، واستعمال اللغة المهذبة، والتعرف على ما عند الآخرين بالأسلوب الأحسن، على حدّ قول علمائنا: نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

لكن من ظلم من أهل الكتاب واعتدى فى فعله أو قوله فإنه يعامل معاملة مماثلة:

فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... (البقرة: ١٩٤).

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ...

أى: آمنا بالقرآن، وبالتوراة والإنجيل إيمانًا مجملا.

أخرج البخارى، عن أبى هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (٢).

أى: ربنا وربكم واحد لا شريك له فى الألوهية، ونحن له مسلمون مطيعون، مستسلمون لحكمه وأمره.

٤٧ - وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ .

أى: وكما أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، أنزلنا إليك القرآن، كتاب الله الخالد، المجرد عن المثيل والنظير، المشتمل على الإلهيات والتشريعات، والآداب والقصص وأخبار السابقين، ونظام الإسلام وآدابه وتشريعاته وأحكامه وحِكمه.

فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . . .

فالذين آتيناهم التوراة والإنجيل، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى، وأشباههما ممن أسلم من أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن، ويصدقون برسالة محمد ﷺ.

وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ . . .

ومن أهل مكة من يؤمن بالقرآن كذلك، مثل المتحنثين الذين تركوا الإثم والشرك، وآمنوا بالقرآن عند نزوله مثل بحيرا الراهب.

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ .

لا يرفض الإسلام ولا يكذب بالقرآن إلا المتوغل فى الكفر، الذى يجحد بآيات الله مع ظهورها وقيام الحجة على صدقها؛ أى: فهؤلاء هم المتوغلون فى الكفر المصرون على العناد.

٤٨ - وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ .

ما كنت يا محمد كاتبا ولا قارئا، بل كنت أميا لا تعرف القراءة والكتابة، لحكمة إلهية عليا، هى نفى التهمة عن رسول الله ﷺ، بأنه نقل هذا القرآن من الكتب السابقة ثم ادعى أنه من عند الله.

وهكذا يفنّد القرآن شبه الكافرين حتى الطفولى منها، فمحمد ﷺ عاش بين قومه مدة من الزمان، عرفوا وتيقنوا بصدقه وأمانته، حتى قال هرقل ملك الروم لأبى سفيان: هل جربتم عليه الكذب؟ قال أبو سفيان: لا، فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

ومع وضوح الدلالة والحجة على صدق القرآن، وشهادة الأعداء بأنه فوق طاقة البشر، وأن له حلاوة، وعليه طلاوة، وكلما تكرر حلا، وما يستطيع أن يقول مثله بشر، مع شهادة صناديد الكفر بأن القرآن فوق طاقة البشر، وأن مصدره قوة عليا - فقد ادعى بعض المشركين أن محمدًا نقل أساطير الأولين وعلومهم، ثم صاغها من عنده مدعيا أنها قرآن من عند الله، قال تعالى: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (الفرقان: ٥، ٦).

روى الطبرى، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أميا لا يقرأ شيئا ولا يكتب.

وقال ابن كثير:

المعنى: قد لبثت فى قومك يا محمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمرًا لا تقرأ كتابا، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمىّ لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة، ولا يخط حرفا ولا سطرًا بيده، بل كان له كتّاب يكتبون له الوحى والرسائل إلى الأقاليم، وما أورده بعضهم من الحديث، أنه لم يمت حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له [٣].

٤٩ – بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ .

القرآن العظيم حفظه الله من التغيير والتبديل بطريقتين، الأولى: حفظه فى الصدور، والثانية: حفظه فى السطور.

فقد كان المسلمون يهدرون بالقرآن ليلاً ونهارًا، سحرًا وقبل الفجر، فى السلم والحرب، وكانت أناجيلهم صدورهم، يقرأون القرآن عن ظهر قلب، كما أن النبى ﷺ اتخذ لنفسه كُتّابا يكتبون الوحى على العظام، وجريد النخل والكاغد – وهو الورق الغليظ – وما تيسر لهم من وسائل الكتابة.

وانتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، والقرآن محفوظ فى الصدور، ومكتوب فى السطور.

ثم استشهد سبعون من القراء فى معركة اليمامة، فأشار عمر على أبى بكر بجمع القرآن فى كتاب واحد، فعهد أبو بكر إلى زيد بن ثابت كاتب الوحى بكتابة المصحف فى كتاب واحد؛ خشية أن يضيع منه شىء بموت القرّاء.

وقد كان القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فتغالط القراء وتعصب كل حافظ للقرآن للطريقة والقراءة التى حفظ بها، فأشار المسلمون على عثمان بكتابة المصحف باللغة القرشية، على لهجة واحدة، هى اللغة الأمّ، وإحراق ما عداها من اللهجات.

وظل المصحف العثمانى فى يد المسلمين إلى يومنا هذا، فالجمع فى عهد أبى بكر بمعنى تدوين القرآن كاملا فى كتاب واحد، والجمع فى عهد عثمان، هو كتابة القرآن باللغة العربية الفصحى، ونشر القرآن فى المدن الرئيسية، وإحراق اللهجات العربية الأخرى، وجمع الناس جميعا على المصحف الإمام الذى تكفل الله بحفظه، فقال تعالى:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر: ٩).

فالقرآن آيات بينات ظاهرة واضحة الصدق، فى صدور الصحابة والحافظين، وإعجازه واضح للعيان، ودلائل صدقه واضحة، فهو لم يصطدم بالعلم، وأتى بمعجزات غيبية وعلمية وأسلوبية وبلاغية، تؤكد أنه من عند الله تعالى وليس من صنع بشر، فقد تكلم القرآن عن مراحل تكوّن الجنين فى بطن أمه، وأشار إلى بدء

الخليقة، وإلى خلق السماوات والأرض، وإلى قلة الأكسجين فى طبقات الجو العليا، وإلى تطور العلوم فى آفاق الكون، وآفاق النفس، وتميز القرآن بالصحة والصواب وعدم الاضطراب، قال تعالى:

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا . (النساء: ٨٢).

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ .

أى: المتعدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

★ ★ ★

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات:

الكتاب: القرآن.

ذكرى: عظة وتذكرة.

شهيدا: حاضرا بعلمه.

التفسير:

٥٠ – وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى: وقال كفار مكة على سبيل التعنت والعناد: هلا أنزلت على محمد معجزات واضحات تؤكد صدق رسالته، كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزات عيسى.

قل لهم يا محمد: أنا رسولٌ مبلغ عن الله ليس علىّ إلا البلاغ، أما المعجزات والآيات فهى شأن من شئون الله تعالى ينزلها بمشيئته وإرادته، وليس من شأنى كعبد يبلِّغ عن الله، أن أقترح عليه إنزال المعجزات.

قال تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا . (الإسراء: ٥٩).

٥١ - أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

مرت البشرية بمرحلة الطفولة ثم بمراحل النمو، ونزلت معجزات مادّية كناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، وكانت رسالة محمد ﷺ رحمة عامة للناس أجمعين، فأراد الله أن تكون معجزة هذه الرسالة، معجزة خالدة للبشر كافة بخلاف المعجزات السابقة، فناقة صالح لم يشاهدها إلا الجيل الذى شاهد حياة صالح، وعصا موسي لم يشاهدها إلا الجيل الذى عاصر موسى، ومائدة عيسى لم يشاهدها إلا الجيل الذى شاهد حياة عيسى، أما القرآن الكريم فقد اشتمل على صنوف البيان، وأخبار التاريخ، وآيات التشريع، وألوان الهداية، وهو يقرأ ويحفظ عن ظهر قلب، وقد تكفل الله بحفظه، لتشاهده الأجيال السابقة واللاحقة.

والمعنى: أقصَّر هذا الكتاب، فلم يوضح لهم حقيقة الرسالة المحمدية، المشتملة على التوحيد والإيمان بالرسل والكتب، واتباع الفرائض واجتناب المنهيات.

أولم يكفهم هذا القرآن المعجز، المبين الحكيم الصادق، دليلا على صدق محمد، وآية عقلية خالدة، ومعجزة مستمرة، حيث يقرأ هذا القرآن صباح مساء، وفيه ألوان الهداية والتوضيح، قال تعالى: لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء: ١٠).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى: فى هذا القرآن الكريم الذى تعم معجزته الزمان والمكان لنعمة عظيمة، وتذكرة بالغة لقوم يطلبون الإيمان ويحرصون على تحصيله.

٥٢ - قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

أى: قل لهم يا محمد: كفى بالله عالمًا وحكمًا عادلا وشهيدًا حاضرًا، يشهد لى بتبليغ الرسالة إليكم، ويشهد عليكم بالتكذيب والعناد، وهو سبحانه مطلع وعالم بما فى السماوات من أفلاك وأملاك، وبما فى الأرض من مخلوقات، وبالتالى يعلم رسالتى إليكم وتكذيبكم لى، ولو كنت كاذبا لأهلكنى، كما قال سبحانه وتعالى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (الحاقة: ٤٤ - ٤٧).

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

أى: والذين صدقوا بالأوثان والأصنام ونحوها، وجحدوا الإيمان بالله ورسوله، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . حيث باعوا آخرتهم وآثروا دنياهم، واشتروا الكفر بالإيمان، واتبعوا الباطل والطواغيت والكفر بلا دليل، فكانوا هم الخاسرين خسارة كبرى، حيث حرموا الجنة ونعيمها، واستحقوا النار وعذابها.

★ ★ ★

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

المفردات:

يستعجلونك: يطلبون تعجيل العذاب الذى توعدتهم به.

أجل مسمًّى: هو الأجل الذى ضربه الله لوقوع العذاب.

بغتة: فجأة بدون توقع.

لا يشعرون: لا يتوقعون نزوله بهم.

يغشاهم: يحيط بهم ويعمهم.

ويقول: الله أو الملك الموكل بالعذاب.

ما كنتم تعملون: جزاءه فلا تفوتوننا.

التفسير:

٥٣ - ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أى: يستعجلك كفار مكة بنزول العذاب بهم، استهتارًا وتحديا لك، مثل قولهم: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . (الأنفال: ٣٢، ٣٣).

﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ولولا أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَعْجل لعجلة العباد، وقد اقتضت حكمته إمهال الظالمين، رجاء هدايتهم، أو تحقيق الثواب للمؤمنين من أجل امتحانهم وطول بلائهم، أو لتخرج من ظهور الكافرين ذرية صالحة تعبد الله، وتهتدى بهدايته، أو لغير ذلك من حكم إلهية عليا يعلمها الله، من بينها: أنه يريد إمهال الظالمين إعذارًا لهم، أو استدراجا حتى يكون عذابهم عادلا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ . (فاطر: ٤٥).

وخلاصة المعنى:

لولا أن الله تعالى حدد أجلاً مسمى لنزول العذاب بهم، لجاءهم العذاب عاجلا فى الدنيا.

وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ .

وسوف يأتيهم العذاب فجأة وهم لا يحسُّون بمجيئه، بل يكونون فى غفلة عنه.

ويشمل المعنى ما أصابهم من العذاب يوم بدر، حيث فاجأهم القتل والأسر، وهم فى غرور وتيه وكبرياء، لا يتصورون معه أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

أو المراد: وليأتينهم العذاب، وهم قارُّون آمنون، لا يخطر ببالهم أن ينزل بهم العذاب، كشأن العقوبات النازلة على بعض الأمم السابقة بياتًا وهم نائمون، أو ضحىً وهم يلعبون.

٥٤ - يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

أى: يطلبون منك حدوث العذاب، وهو واقع بهم لا محالة، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، حيث لا يستطيعون منها فكاكا ولا هربا.

قال تعالى: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . (الطور: ١٣، ١٤).

وقال تعالى: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . (القمر: ٤٨).

٥٥ - يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

يوم يعمهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومن جميع جهاتهم، بحيث يجدون من الهوان والأهوال ما لا يفى به مقال، ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا من كفر ومعاصٍ.

قال تعالى: لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ... (الأعراف: ٤١).

وقال تعالى: لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ... (الزمر: ١٦).

وقال عز وجل: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ . (الأنبياء: ٣٩)

★ ★ ★

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

تمهيد:

تتحدث الآيات عن المؤمنين بمكة، وكانوا يتعرضون للاضطهاد والتعذيب، فتدعوهم إلى الهجرة فى أرض الله الواسعة، وتهوّن شأن الدنيا وتبين أن الموت واقع لا محالة، سواء فى مكة أو الحبشة أو المدينة، فلا داعى للإقامة بدار مذلة أو هوان، وتذكر جزاء المؤمنين فى الجنة ونعيمها، وأنهارها وحسن جزائها، وتؤكد أن الرزق بيد الله، الذى يرزق الطير والنمل والحيوان والإنسان.

التفسير:

٥٦ - يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ .

نداء للمؤمنين أينما كانوا، إذا أحسُّوا بالظلم أو الهوان، أن يرغبوا فى الهجرة إلى مكان آخر.

رُوى عن مقاتل، والكلبي أن الآية نزلت فى المستضعفين من المؤمنين بمكة، أُمروا بالهجرة عنها، وعلى هذا أكثر المفسرين.

والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية تخلق فى المؤمن حافزًا إلى الهجرة، وتحثه على التخلص من الأذى والضيق، والهجرة إلى أرض الله الواسعة.

أخرج الإمام أحمد، عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيرا فأقم»(٤).

وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة مرتين، واستقبلهم أصحمة النجاشى استقبالا حسنًا، فأقاموا فى بلاد الحبشة يعبدون الله تعالى.

ثم هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة، وأقاموا بها دولة الإسلام، وكانت الهجرة إلى المدينة فتحا مبينًا، وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة قبل فتح مكة للقادر عليها، فلما جاء نصر الله والفتح، قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»(٥).

٥٧ - كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

تأتى هذه الآية فى القرآن لتهوين أمر الدنيا، وبيان أن الجزاء العادل سيكون فى الآخرة، وأن الدنيا متاعها قليل، فيمكن للإنسان أن يستهين بأمر الهجرة، والانتقال من بلد إلى بلد، مادام ذلك فى مرضاة الله.

والمعنى:

كل نفس - سواء أكانت فى وطنها الذي عاشت فيه أم فى غيره - ذائقة الموت، وخارجة من الدنيا إلينا، فنوفيها جزاءها، فالتزموا أمرنا ولبُّوا نداءنا، لأنّ عاقبتكم وجزاءكم الحقيقى عندنا.

٥٨ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

والذين صدقوا بالله وأكثروا من عمل الصالحات، لننزلنهم منازل رفيعة في الجنة، حيث يتمتعون بقصورها العالية، ومنازلها الرفيعة، والأنهار تجرى من تحتهم، وهم خالدون فيها خلودًا أبديا سرمديا، فأنعم بذلك الجزاء، وهو سكنى المنازل العالية فى الجنة، والتمتع بنعيمها، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

جاء فى تفسير القرطبى:

خرّج الترمذى، عن على رضى الله عنه، قال: رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها» فقام إليه أعرابى فقال: لمن هى يا رسول الله؟ قال: «هى لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام»(٦).

٥٩ - الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

ونلمح أن الله تعالى يمدح المؤمنين ويثنى على صفاتهم، بعد أن ذكر عقاب الكافرين ووعيدهم، فقد أثنى الله على صفاتهم، ومنها الصبر والتوكل، أى: صبروا على أذى المشركين، وعلى الهجرة وفراق الوطن، متوكلين على الله، فهم قد عملوا ما عليهم، وتركوا لله نجاح سعيهم، وهذه حقيقة التوكل، أى: الأخذ بالأسباب، وترك النتائج على رب الأرباب، وبهذا نفرّق بين التوكل والتّواكل، فقد رأي سيدنا عمر بن الخطاب قوما من أهل اليمن فقال لهم: ما حرفتكم؟ قالوا: نحن متوكلون، فقال لهم: أنتم متواكلون، المتوكل هو الذى يبذر البذرة وينتظر من الله إنضاج الثمرة.

أى: أن الفلّاح يحرث الأرض ويسقيها، ويبذر البذرة ويتعهدها بالنظافة والسماد والسقى، ثم ينتظر الحصاد، وكذلك المتوكل يأخذ بالأسباب، ويعمل الأعمال اللازمة فى السعى للدنيا والجهاد والهجرة، ثم يتوكل على الله تعالى معتمدًا على فضله ورزقه.

٦٠ - وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

كثير من الدواب التى تدب على وجه الأرض كالنمل والطير والبهائم، لا تطيق حمل رزقها، ولا تحمل شيئا لغد، أو تأكل بأفواهها ولا تحمل رزقها، الله تعالى يرزقها أينما توجهت، كما يرزقكم، وهذه الدواب مع ضعفها وتوكّلها، وأنتم مع قوتكم واجتهادكم، سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله.

قال القرطبى:

اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ... يسوّى بين الحريص والمتوكل فى رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين صاحب الحيلة فى الرزق والعاجز، حتى لا يغتر الجَلْد أنه مرزوق بجلده، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه، وفى الصحيح عن النبى ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا»[(٧)].

وَهُوَ السَّمِيعُ . لدعائكم وقولكم: لا نجد ما ننفق بالمدينة، الْعَلِيمُ . بما فى قلوبكم.

★ ★ ★

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾

المفردات:

وسخر الشمس والقمر: ذللهما وسيرهما فى مساراتهما.

فأنى يصرفون: فكيف يصرفون عن توحيد الله ؟

يبسط الرزق: يوسعه ويزيده.

ويقدر: يضيقه ويقلله.

أحيا به الأرض: أخصبها وجعلها ذات زرع.

موتها: جدْبها.

التفسير:

٦١ - وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

أى: إذا سألت هؤلاء المشركين عن الصانع لهذا الكون، الذى خلق السماء مرفوعة وخلق الأرض مبسوطة، وسخر الشمس تجرى لأجل مسمى، وقدر نور القمر وجعله هلالا ثم بدرًا ثم يعود هلالاً، ثم يدخل فى المحاق والظلمة في آخر الشهر، أى: من أبدع نظام الكون، وخلق السماء والأرض، وسيَّر الشمس والقمر ؟ ليقولنّ: الله تعالى هو الذى خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر.

فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

فكيف يصرفون عن عبادته وعن توحيده؟ أى: كيف يعترفون بأنه الخالق وحده، ثم يشركون معه فى العبادة أصنامًا وأوثانًا، لا تنفع ولا تضرّ ولا تسمع ولا تجيب !؟

ولما ذكر سبحانه وتعالى اعترافهم بالخلق، ذكر حال الرزق، من قبيل أن كمال الخلق ببقاء الرزق، ولا بقاء للخلق إلا بالرزق، فقال سبحانه:

٦٢ - اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الله تعالى يوسِّع على من يشاء من عباده، فى المال أو الجاه، أو السلطان أو العلم أو الهيبة أو القبول، أو الزوجة الصالحة أو الذرية الفاضلة، كما يضيّق على من يشاء فى هذه الأرزاق لحكمة إلهية عليا، فهو سبحانه أعلم بخلقه وبما يصلحهم.

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة سبحانه وتعالى: «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك».

وفى معنى الآية قوله تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (الشورى: ٢٧، ٢٨).

٦٣ - وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ .

وإذا سألت هؤلاء المشركين: من الذى ساق السحاب وأنزل المطر، وأخصب الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، بعد أن كانت جدباء ميتة، فأحياها الله بالمطر؟

إذا سألتهم عن مسخِّر السحاب ومنزل المطر، ومحيى الأرض بالنبات، ليقولن: الله هو الذي فعل ذلك، قل: الحمد لله، والشكر لله، الذى خلق الخلق ويسر الرزق، وأنزل المطر وأنبت النبات، فله وحده الحمد والشكر، أو الحمد لله الذى أنطقهم بذلك.

ومع اعترافهم بأنه سبحانه الخالق الرازق فإنهم يعبدون غيره، أو يشركونه معه فى العبادة، مثل النجوم والأنواء والأصنام والأوثان.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ .

بل أكثرهم ليسوا من أهل التعقل والتدبر والتأمل، والاهتداء إلى أن الله وحده هو الخالق الذى يستحق العبادة دون سواه.

★ ★ ★

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

اللهو: الاستمتاع باللذات.

اللعب: العبث وما لا فائدة فيه.

لهى الحيوان: لهى الحياة الدائمة الخالدة التى لا موت فيها، والحيوان مصدر حيى، كالحياة، وأصله: الحييان تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت واوا، وفى بناء المصدر على فعلان زيادة معنى، لما يفيده من الحركة والاضطراب، لأن الحياة حركة، والموت سكون.

تمهيد:

ذكر القرآن فيما سبق اعترافهم لله سبحانه وتعالى بأنه الخالق الرازق، ثم هم بعد ذلك يتركون عبادته ويعبدون ما سواه، اغترارا بزينة الحياة الدنيا، فذكر هنا أن الحياة الدنيا زائلة، ثم أرشدهم إلى أنهم مع شركهم بالله، إذا عاينوا الغرق أو الهلاك دعوا الله مخلصين له الدين، فإذا نجوا وانتقلوا إلى اليابسة، عادوا إلى كفرهم وشركهم، وغدًا يلقون جزاءهم.

التفسير:

٦٤ - وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ما هذه الدنيا الفانية التى يتشبث بها المشركون، إلا لهو يلهو به الكبار فى غفلة وعَمَه، ولعب يلعب به الصغار فى عبث وبهجة، ثمّ لا تلبث أن تزول.

وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

إن الدار الآخرة لهى الحياة الحقيقية، التى لا موت بعدها، ولا يُكدِّر صفوها، ولا ينقطع نعيمها.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . ذلك ويفقهونه لما آثروا عليها الدنيا الفانية.

٦٥ - فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ .

أى: إذا ركب هؤلاء المشركون السفينة، وسارت بهم فى عباب البحر، ثم اكفهر الجوّ واشتدت الرياح، وعصفت بهم العواصف، نسوا آلهتهم، وأخلصوا العبادة والدعاء لله أن ينجيهم، فلما استجاب الله لهم ونجاهم إلى اليابسة عادوا إلى الشرك وإلى عبادة الأصنام، وكان الأولى أن يشكروا الله وحده، وأن يعبدوه وحده.

قال عكرمة بن ابى جهل:

كان أهل الجاهلية إذا ركبوا فى البحر حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت عليهم الريح القوها فيه، وقالوا: يارب يارب.

قال الفخر الرازى:

وهذا دليل على أن معرفة الربّ فى فطرة كل إنسان، وأنهم إن غفلوا فى السراء، فلا شك أنهم يلوذون إليه فى حال الضراء. أ هـ.

٦٦ - لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

أى: يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفران بما آتيناهم من نعمة النجاة، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام، فسوف يعلمون عاقبة ذلك حين يلقون عذاب يوم القيامة.

وذهب بعض المفسرين إلى أن اللام فى قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا . لام الأمر، وأن الأسلوب مسوق مساق تهديدهم ووعيدهم، فهو على حدّ قوله تعالى: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (فصلت: ٤٠).

أى: اكفروا بنعم الله، وتمتعوا بلذائذ دنياكم، وتجمَّعوا على عبادة أصنامكم، فسوف تعلمون عاقبة كفركم حين تلقون العذاب الشديد.

★ ★ ★

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

المفردات:

حرما آمنا: مكانا مقدسًا يأمنون فيه، وهو مكة.

ويُتخطف الناس: الخطف والتخطُّف: الأخذ بسرعة، والمراد به: القتل والسلب.

أفبالباطل: الأصنام أو الشيطان.

افترى على الله كذبا: اختلق على الله كذبا حيث ادَّعى له شريكا.

أو كذّب بالحق: أو كذّب بالرسول ﷺ وبما جاء به.

مثوىً: دار إقامة دائمة ومستقر.

جاهدوا فينا: غالبوا أنفسهم وشيطانهم وأعداءهم لأجلنا.

لنهدينهم: لنيسرن لهم.

سبلنا: طُرق الوصول إلينا.

تمهيد:

يمتن الله على مشركى مكة بنعمة الأمن والأمان، مع أن العرب من حولهم كثير، وهم أهل إغارة وقتل، ولكن الله حفظهم من ذلك، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فكان الأولى بهم أن يشكروا هذه النعم، وأن يؤمنوا بالرسول العربى الأمىّ، لكنهم كفروا بالله، وعبدوا الأصنام، وكذبوا محمدًا ﷺ، فاستحقوا الثواء والإقامة فى جهنم، أما المؤمنون المجاهدون، فإن الله تعالى ييسر لهم سبل النصر والسعادة، جزاء إيمانهم وإحسانهم.

التفسير:

٦٧ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾.

أولم يشاهدوا بأنفسهم أن مكة آمنة مطمئنة، سالمة من الغزو والقتل والإغارة، والعرب حولهم يشنّون الحروب لأتفه الأسباب، ويقومون بالإغارة والقتل، بعضهم على بعض، وكان الأولى بهم بعد ذلك أن يؤمنوا بالله وحده، فإذا بهم يؤمنون بالأوثان والأصنام، ويتركون الإيمان بالله، ويكفرون بمحمد رسول الله ﷺ.

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى:

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ. (قريش: ١-٤).

وقال تعالى: وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ... (آل عمران: ٩٧).

وقال ﷺ: «من أصبح آمنا فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(٨).

٦٨ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ .

أىّ إنسان أشد ظلما لنفسه، ممن اختلق على الله كذبا، فادعى أن له شريكا، مع وضوح الأدلة على وحدانيته، وتوافر الشواهد على ألوهيته، أو جاوز الحدود فى الظلم حين كذّب بمحمد ﷺ مع صدقه، ومع عجزهم عن الإتيان بمثل ما جاء به، لقد استوجبوا الثواء فى جهنم، ففيها متسع لهم ولأمثالهم من الكافرين المكذبين.

٦٩ - وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

تأتى هذه الآية فى آخر السورة لتربط أولها بآخرها، فقد تحدثت فى أولها عن الجهاد، وتحمل البلاء، والمراد به جهاد النفس والصبر على الابتلاء، ثم ختمت السورة ببيان أن الله يكرم المجاهدين بعز الدنيا وسعادة الآخرة.

والمعنى: والذين غالبوا وجاهدوا من أجلنا، وفى سبيل نشر ديننا، وتحملوا فى سبيل ذلك البلاء والامتحان، لنيسّرن لهم السبل الموصلة إلى مرضاتنا.

وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

بالنصر فى الدنيا، وبالنعيم المقيم فى الآخرة.

روى ابن أبى حاتم، عن الشعبى قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك.

وقال ابن عطية:

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ... هى قبل الجهاد العرفى، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته.

وقال أبو سليمان الدارانى:

ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والردّ على المبطلين، وقمع الظالمين، وأعظمه الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة العنكبوت

١ - اختبار المؤمنين ليعلم صدقهم فى إيمانهم.

٢ - فى الجهاد اختبار للمجاهد، والله غنى عن ذلك.

٣ - الحسنات يكفّرن السيئات.

٤ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما، مع عدم طاعتهما فى الإشراك بالله.

٥ - حال المنافق الذى يظهر الإيمان ولا يحتمل الأذى فى سبيل الله.

٦ - حال الكافرين الذين يُضلُّون غيرهم، ويقولون للمؤمنين: نحن نحمل خطاياكم.

٧ - قصص الأنبياء: كنوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح، وموسى وهارون، وبيان ما آل إليه أمر الأنبياء من النصر، وأمر أممهم من الهلاك بضروب مختلفة من العقاب.

٨ - حجاج المشركين بضرب الأمثال لهم بما فيه تقريعهم وتأنيبهم.

٩ - حجاج أهل الكتاب بالحسنى والحكمة.

١٠ - إثبات النبوة ببيان صدق معجزته ﷺ.

١١ - الردّ على شبهات المشركين.

١٢ - استعجالهم بالعذاب تهكُّما.

١٣ - أمر المسلمين بالهجرة وتقوى الله.

١٤ - اعتراف كفار مكة بأن الخالق للكون هو الله سبحانه وتعالى.

١٥ - بيان أن الدار الآخرة هى الحياة الحقّة.

١٦ - امتنانه على قريش بالأمن والأمان، ثم كفرانهم بنعم الله وإشراكهم به سواه.

١٧ - الجهاد أنواع، منه قتال الكافرين، ومنه جهاد النفس، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد وعد الله بهداية المجاهدين وإكرامهم.

★ ★ ★

تم تفسير سورة العنكبوت، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الروم

أهداف سورة الروم

سورة الروم مكية، نزلت بعد سورة الانشقاق، وآياتها ٦٠ آية، وقد نزلت سورة الروم فى السنة التى انتصر فيها الفرس على الروم، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة.

وسميت هذه السورة بسورة الروم، لقوله تعالى فى أولها: الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ . (الروم: ١، ٢).

سبب نزول السورة:

قال المفسرون [٩]: بعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليهم رجلا يسمى «شهريران»، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم، فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم، وكان قيصر قد بعث رجلا يدعى «يحنس» فالتقى مع «شهريران» بأذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلبت فارس الروم، وبلغ ذلك النبى ﷺ وأصحابه بمكة فشق عليهم. وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كفار مكة وشمتوا، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم.

فأنزل الله تعالى سورة الروم، وفيها ما يفيد أن أهل فارس قد غلبوا الروم فى أرض الأردن وفلسطين وهى أقرب البلاد إلى جزيرة العرب، ثم وعد الله بأن ينتصر الروم على الفرس فى جولة أخرى خلال بضع سنين. والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر، وقد التقى الجيشان فى السنة السابعة من الالتقاء الأول، وغلبت الروم فارس.

وعن أبى سعيد الخدرى قال: لما كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة، وأتى المسلمين الخبر بعد ذلك – والنبى والمؤمنون بالحديبية – بأن الروم قد غلبوا أهل فارس [١٠] ففرح المسلمون بذلك، لانتصار أهل الكتاب على عباد الأوثان، فذلك قوله تعالى: وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . (الروم: ٤، ٥)

فصلان مترابطان:

يمضى سياق سورة الروم فى فصلين مترابطين:

الفصل الأول: يربط بين نصر المؤمنين والحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة، ويوجه إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون، ويقيس عليها قضية البعث والإعادة، ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد الكون، وآيات الله المبثوثة فى ثناياه، ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب، ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا يكشف عن سخافة فكرة الشرك، وقيامها على الأهواء التى لا تستند إلى حق أو علم .. وينتهى هذا الموضوع بتوجيه الرسول ﷺ إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح،

طريق الفطرة التى فطر الله الناس عليها، والتى لا تتبدل ولا تدور مع الهوى، ولا يتفرق متبعوها شيعا وأحزابا، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى.

ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٣٢ .

الفصل الثانى: يكشف هذا الفصل عما فى طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة، ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء، ويصور حالهم فى الرحمة والضر، وعند بسط الرزق وقبضه، ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته، ويعود إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون، ويربط بين ظهور الفساد فى البر والبحر وعمل الناس وكسبهم، ويوجههم إلى السير فى الأرض، والنظر فى عواقب المشركين من قبل، ومن ثم يوجه الرسول ﷺ إلى الاستقامة على دين الفطرة من قبل أن يأتى اليوم الذي يجزى فيه كل إنسان بما كسبت يداه، ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله فى مشاهد الكون - كما عاد بهم فى الفصل الأول - ويعقب على ذلك بأن الهدى هدى الله، وأن الرسول ﷺ لا يملك إلا البلاغ، فهو لا يهدى العمى ولا يسمع الصم، ثم يطوف بهم فى جولة جديدة فى ذات أنفسهم، ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة، ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها، ثم ينتهى هذا الموضوع ويختم معه السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر على دعوته، وما يلقاه من الناس فيها، والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لابد آت، فلا يقلقه الذين لا يوقنون.

ويستغرق هذا الفصل من الآية ٣٣ إلى آخر السورة.

الأفكار العامة للسورة

الفكرة الرئيسية فى سورة الروم هى الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها، وسنن الوجود ونواميس الكون، ومن خلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل حالة وكل نصر وكل هزيمة كلها مرتبطة برباط وثيق محكومة بقانون دقيق، وأن مرد الأمر فيها كله لله: لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ... (الروم: ٤) ، وهذه هى الحقيقة الأولى التى يؤكدها القرآن كله، بوصفها الحقيقة الموجهة فى هذه العقيدة، الحقيقة التى تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات، والتى بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير.

وهناك افكار متعددة مبثوثة فى ثنايا السورة منها:

ذكر أخبار القرون الماضية، وذكر قيام الساعة، وآيات التوحيد والحجج المترادفة الدالة على الذات والصفات، وبيان البعث يوم القيامة، وتمثيل حال المؤمنين والكافرين، وتقرير المؤمنين على الإيمان، والأمر بالمعروف والإحسان إلى ذوى القربى، ووعد الثواب على أداء الزكاة، والإخبار عن ظهور الفساد فى البر والبحر، وعن آثار القيامة، وذكر عجائب الصنع فى السحاب والأمطار، وظهور آثار الرحمة فى إنبات النبات وظهور

الربيع، وذكر إصرار الكفار على الكفر، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز، وإحياء الخلق بعد الموت والحشر والنشر، وتسلية الرسول ﷺ.

عالمية الدعوة الإسلامية:

لم يقف القرآن فى سورة الروم عند حادث هزيمة الروم أمام الفرس، ثم الوعد بغلبة الروم على الفرس. ولكنه انطلق من ذكر هذه الحادثة ليربط بين سنة الله فى نصر العقيدة السماوية، والحق الكبير الذى قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما، وليصل بين ماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها.

ثم يستطرد إلى الحياة الآخرة ومشاهدها، ثم يطوف بالمسلمين فى مشاهد الكون ومشاهد النفس وأحوال البشر وعجائب الفطر، ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات فى هذا الكون الكبير، ويشعرون بدقة السنن التى تحكم هذا الكون وتصرف أحداث الحياة، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة.

وفى ظل ذلك التصور الواسع الشامل، تتكشف عالمية هذه الدعوة، وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها.

ويدرك المسلم موقفه وموقف أمته فى ذلك الخضم الهائل، ويعرف قيمته وقيمة عقيدته فى حساب الناس وحساب الله، فيؤدى حينئذ دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه فى ثقة وطمأنينة واهتمام.

★ ★ ★

سورة الروم مكية، وآياتها ستون، نزلت بعد سورة الانشقاق

وقد بُدئت سورة العنكبوت قبلها بالجهاد وختمت به، وبدئت سورة الروم بما يفيد أن الله ينصر المؤمنين، واشتملت سورة الروم على أدلة التوحيد، والنظر فى الآفاق والأنفس، وهى معان ذكرت فى سورة العنكبوت، وتأكدت فى سورة الروم.



﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

المفردات:

الروم: قوم من الفرنج يستوطنون الجنوب الشرقى من أوروبا، ويقول المؤرخون: إنهم عرفوا باسم جدٍّ لهم اسمه روم، أو رومى، من ذرية يافث بن نوح.

فى أدنى الأرض: فى أقرب أرضهم من الروم، أو من أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث.

من بعد غلبهم: من بعد كونهم مغلوبين.

فى بضع سنين: البضع: من الثلاث إلى التسع.

ظاهر الحياة الدنيا: هو ما يشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم، التى تستدعى انهماكهم فيها، وعكوفهم عليها.

العزيز: الغالب.

التفسير:

١ - الٓمٓ

حروف للتحدى والإعجاز، وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن، مع أنه مكوَّن من حروف عربية ينطقون بها ويتكلمون بها، وقيل: هى حروف تشير إلى أسماء الله تعالى أو صفاته، وقيل: إنها أدوات للتنبيه، كالجرس الذى يقرع فينتبه التلاميذ إلى دخول المدرسة.

٢ ، ٣ ، ٤ - غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ.

غَلبت فارس الروم فى أقرب أرضهم إلى فارس، أو فى أقرب أرضهم إلى بلاد العرب، وهى الأردن وفلسطين.

ولما بلغ الخبر أهل مكة فرحوا بذلك وشمتوا فى المسلمين، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس وثنيون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن عليكم.

فتحدث القرآن الكريم بأن الروم ستعاود الكرّة، وستنتصر على الفرس خلال بضع سنين، والبضع من ثلاث إلى تسع سنوات، وقد تم ذلك بعد ٧ سنوات من هزيمة الروم أمام الفرس، وانتصر الروم على الفرس، وجاءت الأخبار بذلك إلى المسلمين، بعد عودتهم من صلح الحديبية، وتحقق وعد الله، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

وكان أبو بكر الصدّيق قد اتفق مع أبىّ بن خلف على رهان، خلاصته أن الروم إذا غلبت الفرس يدفع أُبىّ ابن خلف لأبى بكر مائة بعير، وإذا غَلبت الفرس الروم يدفع أبو بكر لأُبىّ بن خلف مائة بعير.

ومات أُبىّ بن خلف فى غزوة أحد، فلما تم نصر الروم على الفرس فى صلح الحديبية، دفع ورثة أُبىّ بن خلف لأبى بكر مائة بعير، وجاء بها إلى النبى ﷺ فأمره أن يتصدق بها، وكان ذلك قبل أن ينزل تشريع تحريم الرهان إلا فى صور معينة.

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ.

أى: تم النصر خلال سبع سنين، وكان ذلك بأمر الله وتدبيره، فليست الغلبة دائما بحسب القوة والكثرة، بل هناك سنن وضعها الله للغلبة والنصر، ومن هذه السنن:

أخذ العدة، وإعداد القوة، والاستعانة بالله، فالنصر من عند الله: كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. (البقرة: ٢٤٩).

ومن تدبير الله أن جعل هذه الأمم الكبيرة تتهارش وتتحارب مع بعضها، حتى تضعفا معا، ثم يأتى الإسلام بقوته الفكرية والمادية فينتصر على الفرس وعلى الروم وعلى غيرهما.

وعندما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بانتصار أهل الكتاب من الروم على الفرس الوثنيين، والله تعالى ينصر من يشاء، فلا معقب لأمره، وهو العزيز الغالب، الرحيم بعباده المؤمنين.

٥ - بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

سيفرح المؤمنون بهذا النصر الذى نصر الله فيه الروم النصارى، أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى الوثنيين المجوس، والله هو المنتقم من أعدائه، المعزّ لأوليائه، الرحيم بعباده.

قال العلماء:

نزلت الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة، وأقاصى بلاد الروم، وهجم على هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل، فبعد نزول سورة الروم سنة ٦٢٢ م ببضع سنين، أحرز هرقل أول نصر حاسم للروم على الفرس، فى نينوى على نهر دجلة، وانسحب الفرس لذلك من حصارهم للقسطنطينية، ولقى كسرى أبرويز مصرعه سنة ٦٢٨ م، على يد ولده (شيرويه).

ولقد كانت هاتان الدولتان مسيطرتين على العالم القديم، فارس فى الشرق، والروم فى الغرب، وكانتا تتنازعان السيادة على بلاد الشام وغيرها [١١].

٦ - وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

إذا أخبر الحق سبحانه خبرا تحقق، وإذا وعد وعدًا فقد صدق، وإذا أخبر عن غيب وقع مصداقه، واستبان للجاحدين من نور إشراقه ما يؤيد صدق القرآن وإعجازه، وتحقق سائر ما أخبر به كذلك من ظهور الإسلام على االدِّين كله، وزهوق الباطل، وعلو الحق، وجعل المستضعفين أئمة، وإيرائهم أرض عدوِّهم إلى غير ذلك.

وما ألطف ما قال الزبير الكلائى: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين على فارس والروم، كل ذلك فى خمس عشرة سنة، من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين [١٢].

لقد وعد الله أن ينصر رسله، وأن يؤيد المؤمنين، وأن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، والله تعالى لا يخلف وعده.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

أى: بحكمته فى كونه وأفعاله المحكمة، الجارية على وفق العدل، لجهلهم وعدم تفكرهم.

وقال فى ظلال القرآن:

وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذى لا يتغير. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . ولو بدا فى الظاهر أنهم علماء، وأنهم يعرفون الكثير، ذلك أن علمهم سطحى بظواهر الحياة، ولا يتعمق فى سننها الثابتة، وقوانينها الأصيلة، ولا يدرك نواميسها الكبرى وارتباطاتها الوثيقة. أ هـ.

٧ - يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ .

أى: أكثر الناس لهم علم ظاهرى بالدنيا وعلومها المادية، كتدبير شئون المعيشة، وتحصيل الأموال، والكسب من تجارة وزراعة وصناعة وغيرها، ولكنهم غافلون عن أمور الدين والآخرة، ولا ينظرون إلى المستقبل، وما ينتظرهم من نعيم مقيم إن آمنوا وعملوا الصالحات، أو عذاب مهين إن كفروا وعصوا ربهم.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

أفاد قوله تعالى: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... أن للدنيا ظاهرا وباطنا، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها، بالطاعة والأعمال الصالحة. أ هـ.

ولله در القائل:

ومن البلية أن ترى لك صاحبًا فى صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا أصيب بدينه لم يشعر

★ ★ ★

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

المفردات:

فى أنفسهم: أى تفكرا عميقا لا تفكرا ظاهريا، أو: أولم يتفكروا فى أمر أنفسهم، فإنها أقرب إليهم من غيرها، فبالتفكر يرجعون عن غفلتهم.

بالحق: بالعدل والحكمة.

وأجل مسمى: وقت سمّاه الله لابد من الانتهاء إليه، وهو قيام الساعة.

بلقاء ربهم: بالبعث بعد الموت.

كافرون: جاحدون، يحسبون أن الدنيا بداية ونهاية، وأن الآخرة لا تكون.

أشد منهم قوة: كعاد وثمود

البينات: المعجزات والآيات الواضحات.

أساءوا السوأى: كذبوا، والسوأى تأنيث الأسوأ، أى: الأقبح، أى: كان عاقبة المكذبين النار.

تمهيد:

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها، تتضمن تهديد المشركين، وحثهم على التفكر والنظر فى المخلوقات الدالة على وجود الله تعالى، فهو سبحانه الخالق الرازق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه، بعد ما صدر منهم من إنكار الإله، وإنكار البعث، وغفلتهم عن الآخرة.

التفسير:

٨ - أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ .

أى: أغفل هؤلاء الناس عن التامل فى أنفسهم تأملاً عميقا، كيف خلقهم الله ومنحهم العقل والفكر، ليتأملوا فى خلق السماء والأرض، وما بينهما من فضاء وهواء، وتكامل فى الخلق، فهذا الكون لم يخلق إلا بالحق والعدل، ووجد لغاية محددة وأجل مسمًى، ثم تنتهى هذه الحياة الدنيا، لتبدأ مرحلة أخرى من الموت والبعث والحشر والحساب والجزاء.

وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ .

أى: أكثر الناس فى انشغال تام بدنياهم ولذائذهم، غافلون عن آخرتهم، أو جاحدون كافرون، بينما القليل من الناس مؤمن بالله مصدق بالآخرة، وبالبعث والحساب والجزاء.

قال القرطبى:

وفى هذه الآية تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجلا، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسىء. أ هـ.

٩ - أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

السير فى الأرض قد يكون بالجسم للسياحة والتأمّل، وقد يكون بالعقل واستقراء التاريخ، أى: أو لم يحرّكوا عقولهم وأفهامهم ونظرهم فى سماع أخبار الماضين من الأمم السابقة والقرون السالفة،الذين عمَّروا فى الأرض أكثر من أهل مكة، وكانوا أكثر من أهل مكة أموالا وأولادا وعمرانا.

ولما جاءتهم رسلهم كنوح وهود وصالح وموسى وعيسى، بِالْبَيِّنَاتِ. بالرسالات والمعجزات، كذبوا رسلهم، فاستحقوا العذاب والعقاب، وما كان الله ليظلمهم فيما حل بهم من عذاب ونكال، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم حين جحدوا آيات الله وكفروا بها، فاستحقوا ما نزل بهم من العذاب.

١٠ - ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ .

جعل الله عاقبة المكذبين لرسله، والجاحدين للإيمان بكتبه وأنبيائه، العقوبة التى هى أسوأ العقوبات، وهى الهلاك فى الدنيا، أو النار فى الآخرة، أو هما معا.

أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ .

أى: أوقعنا بهم العذاب، لأنهم كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله، واستخفوا بها.

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . (هود: ٨).

★ ★ ★

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) ﴾

المفردات:

يبلس المجرمون: يسكتون وتنقطع حجتهم، يقال: أبلس الرجل، إذا سكت وانقطعت حجته، والمبلس: الساكت المنقطع الحجة، اليائس منها.

من شركائهم: من أصنامهم ومعبوداتهم.

شفعاء: يجيرونهم من عذاب الله.

كافرين: أى: كفروا بالأصنام وتبرأوا منها، حين يئسوا من شفاعتها، وجاء التعبير بمعنى الماضى لتحققه.

يتفرقون: يتفرق المؤمنون والكافرون.

روضة: بستان أو أرض ذات أزهار وأنهار، والمراد بها هنا: الجنة.

يحبرون: يسرُّون سرورًا تهللت له وجوههم، يقال: حبره يحبُره، «بضم الباء» حُبورًا، إذا سره سرورًا يتهلل له وجهه.

محضرون: مجبرون على الحضور، لا يغيبون عنه.

التفسير:

١١ - اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

الله تعالى خلق هذا الخلق وأنشأه من العدم، فبيد القدرة الإلهية رفع الله السماء، وبسط الأرض، وأرسى الجبال، وسخر الهواء والرياح والأمطار، والشمس والقمر والليل والنهار، وهو سبحانه قادر على الإعادة والحشر والحساب والجزاء، فالإعادة أهون من البدء، قال تعالى: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. (الأعراف: ٢٩).

وعند الله الملتقى فى الآخرة فيكون الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. (الزلزلة: ٧، ٨).

١٢ - وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ .

يعرض القرآن هنا مشهدًا من مشاهد القيامة، أى: عند قيام الساعة وابتداء اليوم الآخر للحساب والجزاء، يبلس المجرمون ويقفون ساكتين يائسين، قد انقطعت حجتهم، فلا أمل ولا رجاء فى النجاة من هول هذا اليوم.

١٣ - وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ .

لم يجد الكفار من يشفع لهم من الأصنام والأوثان، التى كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها، إذ قالوا فى الدنيا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ... (الزمر: ٣).

لقد خاب ظنهم وانقطع رجاؤهم، وذهب أملهم فى الأصنام التى عبدوها، ثم لم يجدوا لهذه العبادة نفعا أو شفاعة، عندئذ كفروا بالأصنام وتبرأوا من عبادتها، وندموا على شركهم فى الدنيا، ولات ساعة مندم.

قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ... (البقرة: ١٦٦، ١٦٧).

والآية دليل على إعلان إفلاسهم، وإعلان خسرانهم، وجاءت بصيغة الماضى للإعلان بأنه واقع لا محالة، فكأنه وقع فعلا وأُخبر عنه.

١٤ - وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ .

فى يوم القيامة مشاهد عدّة، وقد سبق ذكر إبلاس المجرمين ويأسهم وإعلان خسرانهم، وهنا يبين أنه عند قيام القيامة يتفرّق الخلق إلى مؤمنين وكافرين، قال تعالى: وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . (يس: ٥٩). فيذهب الأشقياء إلى النيران، ويؤخذ السعداء إلى الجنان.

قال قتادة: هى والله الفرقة التى لا اجتماع بعدها.

١٥ - فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ .

أى: إن المؤمنين الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحات، فأحسنوا العبادات والمعاملات، هؤلاء يدخلون الجنة، حيث يعمهم الفرح والسرور والحبُور الذى يملأ القلب، ويظهر أثر البشاشة والحبور والسرور على وجوههم التى تتهلل فرحا، بما هم فيه من نعيم ورضوان ومسرة.

قال تعالى: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة: ١٧).

وروى أحمد، والشيخان، والترمذى، وابن ماجة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١٣).

١٦ - وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

وأما الذين كفروا بالله ورسوله، وكذبوا بآياته التشريعية والكونية، وأنكروا وقوع البعث بعد الموت، فهم مخلدون فى عذاب جهنم، لا غيبة لهم عنه وهم مجبرون على حضوره.

قال تعالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ... (الحج: ٢٢).

وقال سبحانه وتعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر: ٣٦).

★ ★ ★

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات:

فسبحان الله: سبحان: هو التسبيح، وهو إخبار فى معنى الأمر، بتنزيه الله تعالى والثناء عليه، أى: سبِّحوا الله وعظموه واذكروه فى هذه الأوقات، أو صلوا فى هذه الأوقات التى تظهر فيها قدرته، وتتجدد فيها نعمته.

حين تمسون: تدخلون فى المساء، وفيه صلاتا المغرب والعشاء.

وحين تصبحون: حين تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح.

وعشيا: العشى آخر النهار وفيه صلاة العصر.

وحين تظهرون: تدخلون فى الظهيرة وفيه صلاة الظهر.

يخرج الحىّ: المؤمن من الكافر، والدجاجة من البيضة.

من الميت: من الكافر، والنبات من الأرض.

ويخرج الميت من الحى: كالكافر من المؤمن، والسقط من الأمّ.

وكذلك تخرجون: تبعثون من قبوركم.

تمهيد:

تذكر الآيات مظاهر القدرة الإلهية التى يسنّ ابتهال الإنسان عندها بالذكر والتسبيح، فى موعد المساء وقدوم الليل، وعند الصباح، وفى وقت العشى والظهيرة.

فالله سبحانه وتعالى بيده القدرة، وإنبات النبات، وهداية الناس، فيخلق الكافر من المؤمن، ويخلق المؤمن من الكافر، ويحيى الأرض بالأمطار وإخراج النبات، وكذلك البعث وإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية.

التفسير:

١٧ - فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .

أى: نزهوا الله سبحانه فى وقت المساء حين إقبال الليل وظلامه، وفى وقت الصباح حين إسفار النهار بضيائه، أى اذكروا الله وعظموه وسبحوه، واذكروا قدرته وعظمته، فهو الذى يسخر الليل ليكون سكنا ونوما وهدوءًا، ويسخر النهار ليكون بعثا ونشاطا وسعيا وعملا.

أو أقيموا الصلاة عند المساء، وهى صلاة المغرب وصلاة العشاء، وعند الصباح وهى صلاة الصبح.

١٨ - وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ .

وهو سبحانه مستحق للحمد من جميع خلقه، فى السماوات من الملائكة، وفى الأرض من أهلها، من أصناف خلقه فيها، من جن وإنس وطير، ووحش وسباع وسائر المخلوقات والموجودات تحمده، فبيد القدرة الإلهية خُلق هذا الكون ويُسرت له أسباب البقاء والحياة، والتكامل والتناغم.

قال تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا . . . (الأنبياء: ٢٢).

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ .

أى: سبحوه ونزهوه فى وقت العشى، أى: فى صلاة العصر فى آخر النهار.

وَحِينَ تُظْهِرُونَ . وفى وسط النهار وقت الظهيرة بصلاة الظهر.

١٩ - يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

أى: هو سبحانه القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض، فهو يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والنبيه من الغافل، والغافل من النبيه، والطائر من البيضة، والبيضة من الطائر، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، ويحيى الأرض بعد موتها بإنزال المطر وإنبات النبات.

وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

وبمثل ذلك تخرجون من القبور أحياء، بعد أن كنتم أمواتا، وذلك على الله يسير.

تعليق على الآيات:

من شأن القرآن أن يحرّك القلوب، ويلفت الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلهية، عند قدوم المساء وظهور الشفق وقدوم الليل، وكذلك عند الصباح وانتشار الضوء، وعند الظهيرة حيث تتحول الشمس من جهة المشرق إلى الوقوف فى كبد السماء، وعند العشى حين يقترب النهار من نهايته.

وقد ذكر العلماء أن الآيات تشير إلى الصلوات الخمس:

ففى المساء صلاتا المغرب والعشاء.

وفى الصباح صلاة الفجر.

وفى الظهيرة صلاة الظهر.

وفى العشىّ صلاة العصر.

وكلها أوقات تظهر فيها آثار القدرة، فى المساء والصباح والظهيرة والعشى، والآيات تحرك القلوب لتتيقظ، وتتذكر الخالق القادر، وهو سبحانه القاهر فوق عباده، وله الحمد فى السماوات والأرض، لحفظهما بنظامهما وتكاملهما، كما أن الموت والحياة والتقدير والتحويل بيده سبحانه.

قال تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ . . . (الأنعام: ١).

وقد أقسم الله بالليل والنهار والشمس والقمر، والضحى والرياح، وبغير ذلك من مظاهر الكون؛ ليلفت أنظارنا إلى عظمة الخالق وجمال الكون ونظامه.

قال تعالى: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . (الشمس: ١ - ٦).

وقال تعالى: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . (الليل: ١، ٢).

وقال تعالى: وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . (الضحى: ١، ٢).

وقال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران: ٢٦، ٢٧).

★ ★ ★

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات:

ان خلقكم من تراب: خلق أباكم آدم من تراب.

بشر: من لحم ودم.

تنتشرون: أى: فى الأرض تبتغون من فضل الله.

من أنفسكم: من جنسكم.

أزواجــــــــــا: زوجات.

لتسكـــنوا إليهـــــا: لتميلوا إليها وتألفوها.

مــــــــــــودة: محبة.

رحـمـــــــــــة: شفقة.

يتـــفكـــــــرون: فى صنع الله وحكمته.

واختـــلاف ألسنتكم: واختلاف لغاتكم مع أن الأصل واحد.

وألــوانـكـــــــم: من بياض وسواد وهيئة وجمال، بحيث وقع التمايز والتعارف.

منامكم بالليل والنهار: نومكم فيهما لاستراحة الجسد والنفس والفكر.

يسمـعـــــــون: سماع تدبر وتفهم.

البـــــــــرق: شرارة كهربائية تظهر فى الجوّ، نتيجة احتكاك السحب، وينشأ عنها الرعد.

خـــوفـــــــا: للمسافر من الصواعق.

وطمـعًـــــــا: فى الغيث للمقيم.

أن تقوم السماء والأرض بأمره: أن توجد فى الفضاء بقدرته وتدبيره.

تخـــرجـــــون: تفاجأون بالخروج من قبوركم تلبية لنداء الله.

تمهيد:

تتحدث الآيات عن جوانب القدرة الإلهية، فهو سبحانه خلق آدم من تراب، وخلق ذريته من نطفة مرت بمراحل إلى أن صارت خلقا آخر، وهو الذى خلق للرجل زوجة من جنسه ليأنس إليها، وجعل بين الزوجين الشفقة والمحبة والرأفة، وهو خالق الكون، وخالق الإنسان من طين الأرض، فمنه الأصيل ومنه الكفور.

ومن فضل الله علينا نعمة النوم بالليل والنهار، ونعمة اليقظة والبحث عن الرزق، وتنوع الناس فى السفر والتجارة والعمل.

ومن آيات الله تسخير السحاب والبرق والرعد والمطر، وكذلك الإحياء والإماتة، والبعث والحشر، والحساب والجزاء.

التفسير:

٢٠ - وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ .

ومن دلائل قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، وخلقكم من نطفة، تحولت إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم إلى عظام، ثم كسا العظام لحما، ثم أنشأ الله هذه الخلقة خلقا آخر متكاملا، فيه الروح والحياة، فإذا به بشر عاقل

يتصرف فى فنون المعايش والمكاسب، كما فاوت الله بين الناس فى العلوم والفكر، والحُسْن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة.

٢١ – وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

ومن دلائل قدرته أن خلق لكم من جنسكم الآدمى أزواجًا لتأنسوا بها وتسكنوا إليها، بالمحبة والشفقة والمؤانسة، ولو كانت من جنس آخر، كالجن أو الحيوان، لما حصل هذا الائتلاف بين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة، وذلك من تمام رحمته ببنى آدم.

قال ابن عباس:

المودة: حب الرجل امرأته، والرحمة: شفقته عليها أن يصيبها بسوء.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أى: يتأملون فى خلق الإنسان، وفى تيسير أسباب الزواج ليعمر الكون بامتداد الإنسان فى ذريته وأولاده، فقبل أن يموت يترك أسرة تعمل وتتزوج وتنجب وتفكِّر، وتنافس الآخرين فى إعمار الكون.

٢٢ – وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ .

ومن دلائل القدرة خلق السماوات سقفا مرفوعًا، ممتدًا بدون عمد، وخلق الأرض وإعمارها بالجبال والبحار، والأنهار والفضاء والهواء.

ومن دلائل القدرة اختلاف اللغات والأصوات من عربية وعجمية وتركية، وإنجليزية وفرنسية وأردية، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر، واختلاف الهيئات والسِّمات، بحيث وقع التمايز والتعارف، حتى لا يشتبه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعا من ذرية آدم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ .

أى: دلائل لائحة لأولى العلم الذين يتفكرون فيما خلق الله، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثا بل خلقه لحكمة بالغة فيها عبرة لمن تذكر.

٢٣ – وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

ومن دلائل القدرة نومكم فى ظلمة الليل، ووقت الظهيرة بالنهار، راحة لأبدانكم، وطلبكم الرزق بالنهار.

قال تعالى: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . (النبأ: ٩ –١١).

أى: جعلنا النوم راحة تامة تقطع العمل والحركة، وجعلنا الليل سكنا وهدوءًا مناسبا للراحة، وجعلنا النهار يقظة وحركة وطلبا للمعاش.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

سماع تفهم واستبصار، فيتعظون بذلك، ويدركون أن صانع ذلك لا يعجزه بعث العالم وإعادته.

من هدى السنة:

كان ﷺ إذا وضع جنبه للنوم يقول: «باسمك ربِّ وضعت جنبى وبك أرفعه، إن أمسكت روحى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١٤].

وإذا استيقظ من النوم يقول: «الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[١٥].

وإذا أرق من الليل يقول: «اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حى قيوم، يا حى يا قيوم أنِمْ عينى وأهدئ ليلى»[١٦].

وعلّم النبى ﷺ أحد أصحابه هذا الدعاء عند الأرق: «اللهم رب السماء وما أظلت، والأرضين وما أقلت، والشياطين وما أضلت، كن لى جارًا من شرار خلقك عزّ جارك»[١٧].

٢٤ - وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ومن دلائل قدرة الله أنَّه يريكم البرق والرعد والمطر خوفا من عذابه، وطمعًا فى رحمته بنزول المطر، خصوصًا أهل البادية الذين يحرثون الأرض ويضعون البذر، ويخافون من تأخر المطر، ويرجون نزوله، أو خوفًا للمسافرين فى البر الذين يمنعهم المطر من السفر، وطمعًا للمقيمين فى نزول المطر لإصلاح الأرض ونجاح الزراعة.

وعادة يأتى بعد البرق والرعد المطر، وأحيانا يصاحب المطر هذه الظواهر الطبيعية الكونية، وعند مجيء المطر ونزول الماء يتحرك النَّباتُ، وتهتز الأرض بالزراعة، ويحيى الله الأرض بعد موتها، فمن استخدم عقله وفكره، أدرك جوانب القدرة الإلهية، التى سخَّرت هذا الكون، وسيطرت عليه، وسخرت السحاب والأمطار والرعد والبرق.

جاء فى ظلال القرآن:

وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكونى، ويعللها بعضهم بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء، أو بين سحابة وجسم أرضى، كقمة جبل مثلا، ينشأ عنه تفريغ فى الهواء يتمثل فى الرعد الذى يعقب البرق، وفى الغالب يصاحب هذا وذاك تساقط المطر، نتيجة لذلك التصادم، وأيا ما كان السبب، فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون، كما خلقه البارى وقدَّره تقديرًا. أ هـ.

والقرآن الكريم يتخذ من الظواهر الكونية وسيلة لوصل القلوب بالله، فإذا كان الكون خليقة حية متعاطفة متجاوبة، مطيعة لربها خاضعة خاشعة، فالإنسان الذى يدبُّ على هذا الكوكب الأرضىّ واحد من خلائق الله، ينبغى أن يتفق مع هذا الكون فى طاعته وامتثاله لأمر الله.

ومن استخدم عقله وفكره، وتدبّر وتأمّل فى خلق الله، أدرك أن وراء هذه الصنعة البديعة يدا حانية تحفظها وتمسكها.

٢٥ – وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ .

ومن دلائل قدرته قيام السماء، وارتفاعها فى الفضاء بنظام دقيق، وقيام الأرض مبسوطة، وفوقها الجبال والهواء بأمر الله وقدرته.

فهو الذى خلق هذا الكون، وسخّره وأبدع نظامه، والكون كله خاضع لله خضوع القهر والغلبة، وكذلك السماء والأرض.

قال تعالى: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (فصلت: ١١، ١٢).

وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ... (فاطر: ٤١).

ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ .

أى: بيد الله البعث والحشر والحساب والجزاء، فإذا انتهى أمر الدنيا أمر الله القبور أن تلقى من فيها، وأمر الأرواح أن تعود للأجسام، وحُشر الخلائق أجمعون.

قال تعالى: وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . (الكهف: ٤٧).

وقال تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً . (الإسراء: ٥٢).

وقال تعالى: إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ . (يس: ٥٣).

★ ★ ★

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ ﴾

المفردات:

قـــانتـــون: منقادون خاضعون.

المثل الأعلى: الوصف الأعظم.

العـــــزيز: الغالب.

التفسير:

٢٦ – وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ .

أى: جميع من فى الكون من إنس وجن وملك، وما عسى أن يكون به من مخلوقات لا علم لنا بها، هؤلاء جميعا خاضعون لما يريد الله بهم، من موت أو حياة، وحركة أو سكون، فبيد الله الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير.

٢٧ – وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

الله تعالى بدأ خلق الكون كله، قال تعالى: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . . . (غافر: ٥٧).

والله تعالى يعيد هذا الكون بالبعث بعد الموت، والإعادة أهون من البدء بالنسبة للمخاطبين، وإلا فالله تعالى ليس عليه هين وأهون، فجميع الأمور فى قبضته وتحت قدرته.

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس: ٨٢، ٨٣).

والمقصود من الآية التقريب بالنسبة لعقول المنكرين للبعث والإعادة، فإن إعادة شىء من مادته الأولى، أهون على الناس من إيجاده ابتداء.

وقصارى ذلك:

إنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم، وبالقياس إلى أقداركم، وذهب بعض المفسرين إلى أن «أفعل التفضيل» على غير بابها، فيكون معنى: وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . وهو هين عليه.

وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وله الوصف الأعلى الذى ليس لغيره ما يدانيه فيهما، كالقدرة العامة والحكمة التامة، فكل شىء بدءًا وإعادة، وإيجادًا وإعداما عنده على حد سواء، ولا مثل له ولا ندّ، فهو منزه عن النظير والمثيل. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى: ١١).

وَهُوَ الْعَزِيزُ . الغالب الذى لا يُغلب ولا يُغالب.

الْحَكِيمُ . فى تدبير خلقه وتصريف شئونه فيما أراد وفق الحكمة والسداد.

★ ★ ★

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات:

من أنفسكم: منتزعًا من أحوال أنفسكم، التى هى أقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم.

ملكت أيمانكم: مماليككم وعبيدكم.

فيما رزقناكم: من العقار والمنقول.

فأنتم فيه سواء: يتصرفون فيه كتصرفكم.

تخافونهم: تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيه.

كخيفتكم أنفسكم: كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض.

نفصل الآيات: نبينها بالتمثيل الكاشف للمعانى.

التفسير:

٢٨ - ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

أى: إن الله تعالى يضرب لكم مثلا منتزعًا من أنفسكم تشاهدونه وتفهمونه، وهو:

هل يَقْبَل أحدكم أن يكون عبده شريكًا له فى ماله، يتصرف العبد فى ماله تصرفًا كاملاً بدون الرجوع إليه، فيكون العبد وسيده سواء فى التصرف فى المال والعقار؟

فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ . . .

هذا من تتمة المثل، أى: لستم وعبيدكم سواء فى أموالكم، وأنتم لا تعطون عبيدكم حرية التصرف فى أموالكم، بحيث تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيها، كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض.

وإذا كنتم لا ترضون لأنفسكم أن يشارككم عبيدكم فى أموالكم وتصرفاتكم، فكيف رضيتم لله تعالى شريكا له فى خلقه وملكه، حيث كانوا يقولون فى تلبيتهم بالحج: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك.

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

كذلك نوضح المعانى بضرب الأمثال، وإخراج المعقول فى صورة المحسوس، لتتضح الحقيقة كاملة أمام عيونكم، فتتحرك عقولكم إلى التأمل والتدبر، فى أن أحدكم يأنف أن يساويه عبده فى التصرف فى أمواله، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟

٢٩ – بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ .

لقد ذكرنا عددا من الأدلة على وجود الله، وأرسلنا رسولنا إليهم، وأنزلنا عليه كتابا مبينا لهدايتهم، لكنهم اختاروا اتباع الهوى وتقليد الآباء، «وآثروا عبادة الأصنام باتباع أهوائهم فى عبادتها، وتقليد الأسلاف فى ذلك»، كما يقول القرطبى فى تفسير الآية. أ هـ.

فلا أحد يستطيع هداية من أضلهم الله عن الحق، بسبب إعراضهم عنه، وما لهؤلاء من ناصرين يخلِّصونهم من الضلال وتبعاته.

قال ابن كثير: وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير.

وقال القاسمى: لا يقدر على هدايته أحد، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . أى: ينصرونهم من الله إذا أراد بهم عذابا.

★ ★ ★

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

المفردات:

أقم: من أقام العود وقوّمه إذا عدَّله، والمراد: الإقبال على دين الإسلام، والثبات عليه.

حنيفا: من الحنف وهو الميل، فهو مائل عن الضلالة إلى الاستقامة، ويطلق الحنيف على صحيح الميل للإسلام، وعلى دين إبراهيم، ذكره صاحب القاموس.

الفطرة: الحال التى خلق الله الناس عليها، من القابلية للحق، والتهيؤ لإدراكه.

خلق الله: هو فطرته المذكورة أولا.

القيم: المستقيم الذى لا عوج فيه.

منيبين إليه: راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، من أناب، إذا رجع مرة بعد أخرى.

اتقوه: خافوه.

فرقوا دينهم: اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم.

شيعا: فرقا، تشايع كل فرقة إمامها الذى مهد لها دينها، وقرره ووضع أصوله.

كل حزب: الحزب: الطائفة من الناس، والجمع: أحزاب.

تمهيد:

هذه الآيات توجيه للرسول ﷺ أن يثبت على الإسلام مخلصا له، غير ملتفت عنه يمنة أو يسرة، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها.

التفسير:

٣٠ - ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

أى: أعرض عن هؤلاء المشركين الضالين، وأقبل بذاتك على دين الإسلام، معرضا عن المشركين، فالإسلام دين الفطرة البشرية، التى فطر الله الناس عليها، وخلق عقولهم قابلة للاهتداء إلى الحق، والإيمان بالله، واليقين بأن هذا الكون البديع المنظم لابد له من إله قادر متصف بكل كمال.

لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . . .

خبر مراد منه النهى، أى: لا تبدلوا دين الله وخلقته التى خلق الناس عليها.

وقال الفخر الرازى:

لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . . . بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك، حتى إن سألتهم من خلق السماوات والأرض، يقولون الله، لكن الإيمان الفطرى غير كاف.

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . . . أى: المستقيم الذى لا عوج فيه.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . أنَّ ذلك هو الدين المستقيم الذى يجب الإيمان به، لعدم تدبرهم، وإهدارهم عقولهم.

٣١ - مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

سبق أن أمر الله نبيه ومن آمن به بالتوجه لهذا الدين، وإخلاص العبادة لله وحده، فهو دين الفطرة، ولما كان الخطاب للنبىِّ وأمته، أو من آمن به، أو لكل من يتأتى منه الخطاب، جاءت هذه الآية بلفظ الجمع.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ . . .

أى: أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده، حال كونكم راجعين إليه بالتوبة والإنابة المتكررة، مقبلين عليه بالاستغفار والتوبة، متقين له فى كل أحوالكم.

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ . . .

داوموا على الصلاة فى خشوع واطمئنان.

وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

الذين يقصدون الرياء والسمعة، أو يعبدون معه الملائكة أو الجن، أو البقر أو الشجر، أو الملوك أو غير ذلك، بل أخلصوا له العبادة وحده سبحانه، لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص له وحده.

٣٢ - مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

أى: لا تكونوا من المشركين الذين اختلفوا فى شأن دينهم اختلافات شتى، على حسب أهوائهم، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة.

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

أى: كل حزب منهم صار مسرورًا بما لديه من دين باطل، وملَّة فاسدة، وعقيدة زائفة، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلهم وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق.

قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ما يأتى:

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ... اثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الإشراك.

وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

أراد إخراج العبد عن الشرك الخفىّ، أى: لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله، ولا تطلبوا به إلاّ رضاء الله، فإن من حصل على رضا الله، فقد حصل على سعادة الدنيا والآخرة.

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا ...

يعنى لم يجتمعوا على الإسلام، وذهب كل واحد إلى مذهب، ويحتمل أن يقال: وَكَانُوا شِيَعًا ... يعنى بعضهم عبد الله للدنيا، وبعضهم للجنة، وبعضهم للخلاص من النار، وكل واحد بما فى نظره فرح، وأما المُخلِصُ فلا يفرح بما يكون لديه، وإنما يكون فرحه بأن يُرضى الله، ويقف بين يديه، وذلك لأن كل ما لَدينا نافد، لقوله تعالى: مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ... (النحل: ٩٦). فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به، وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح، كما قال تعالى:

وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ...
(آل عمران: ١٦٩، ١٧٠).

جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم، وبكون ما أوتوا من فضله الذى لا نفاد له.

ولذلك قال تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ... (يونس: ٥٨). لا بما عندهم، فإن كل ما عند العبد نافد [١٨].

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات:

مس الناس: أصابهم شىء قليل.

ضر: قحط وشدة وهزال ومرض وغير ذلك.

يشركون: يشركون به غيره فى العبادة.

ليكفروا: ليجحدوا النعمة التى أعطيت لهم.

تمتعوا: انتفعوا به كما شئتم.

سلطانا: حجة وبرهانا.

وإن تصبهم سيئة: بلاء وعقوبة.

يقنطون: ييأسون من رحمة الله.

ويقدر: ويضيق.

التفسير:

٣٣ - وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ .

إذا مسّ هؤلاء المشركين الذين يعبدون مع الله إلهًا آخر، ضُرٌّ. فأصابهم جدب وقحط، أو أى بلاء وشدة، كالمرض أو التعرض للخطر، فى جو أو بحر أو بر، ونحو ذلك من حالات الاضطرار، تضرعوا إلى الله مستغيثين به، مقبلين عليه راجعين إليه، حتى إذا كشف عنهم البلاء، وأسبغ عليهم النعمة والخصب والسعة، إذا جماعة منهم يشركون به فيعبدون معه الآلهة والأوثان.

فما أعجب هذا الإنسان، عند الشدة والبلاء والخوف والاضطرار يدعو ربه مخلصا له الدين، متقربا إليه وحده لا شريك له، فإذا استجاب الله دعاءه، وكشف عنه الضرّ، وأسبغ عليه النعمة، نجد طائفة من الناس تشرك بالله آلهة أخرى، وتعبد معه سواه.

٣٤ - لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى: فليجحدوا نعمتى كيف شاءوا، وليستمتعوا بمتع الدنيا ورخائها، فمتاعها قليل زائل.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . عقابى وشدة عذابى فى الآخرة على كفركم فى الدنيا.

والفعل فى الآية فعل أمر للتهديد، مثل قوله تعالى: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ . . . (فصّلت: ٤٠).

أى: اكفروا وتمتعوا بالملاذ فى دنياكم فإن العذاب ينتظركم فى الآخرة على كفركم فى الدنيا.

قال بعضهم: والله لو توعدنى حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعِّد هُنا هو الذى يقول للشىء كن فيكون.

٣٥ - أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ .

والاستفهام هنا استفهام إنكارى، والمعنى: هل نزل عليهم ملك أو كتاب أو حجة، فيها تقرير ما يفعلون من عبادة الأوثان، أو فيها دليل لهم يبيح لهم الشرك.

والجواب معروف، وهو أن الله لم ينزل عليهم كتابا، ولم يبعث لهم رسولا ولا حجة تبيح لهم الشرك، بل هو عمل اخترعوه من عند أنفسهم.

٣٦ - وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ .

من شأن الإنسان إذا جاءت إليه النعمة والصحة، والمال والأولاد والجاه والسلطان وأشباه ذلك، فرح بهذا فرح البطر والأشر، وإذا سلبت عنه النعمة بسبب سلوكه وارتكابه للمعاصى والآثام، إذا به يصيبه القنوط واليأس من روح الله وفضله، وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إنسان، فهو جازع فى الباساء، شحيح فى النعماء، ما عدا المؤمن فهو صابر فى البأساء، شاكر لربّه فى النعماء.

روى مسلم فى كتاب الزهد والرقائق، أن رسول الله ﷺ، قال: «عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له»(١٩).

٣٧ - أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أو لم يشاهدوا بأعينهم أن الله تعالى له حكمة إلهية عليا، فهو يبسط الرزق لمن يشاء، فيعطيه المال والصحة، أو الجاه والسلطان، أو أشباه ذلك.

وَيَقْدِرُ. ويضيق على من يشاء لحكمة إلهية يعلمها سبحانه.

لذلك لا ينبغى للإنسان أن يقنط أو ييأس عند التقتير فى الرزق، ولا يجوز له أن يبطر أو يطغى عند وجود الغنى والخير.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

دليل لمن آمن بالله، وأن بيده الخلق والأمر، وتوسيع الرزق وتضييقه، فأسلم القياد له سبحانه وصبر فى البأساء وشكر على النعماء.

قال تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

(الشورى: ٢٧).

فكم أخفق الجادُّون، ونجح المبطلون، لحكمة يعلمها الله، ونحن نحنى رءوسنا لمشيئته وحكمته.

★ ★ ★

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات:

حقه: هو صلة الرحم، والبرّ به.

والمسكين: المعدم الذى لا مال له، أو له شىء لا يقوم بكفايته.

وابن السبيل: المسافر المحتاج إلى نفقة سفره.

يريدون وجه الله: يقصدونه بمعروفهم خالصًا.

ربًا: زيادة وفضلا، والمراد به: الهدية التى يتوقع بها مزيد مكافأة.

فلا يربو عند الله: فلا يزيد عند الله، فهو مباح ولكن لا ثواب فيه.

الزكاة: الصدقة، لأن السورة مكية، والزكاة فرضت فى المدينة، أو مطلق الإنفاق.

المضعفون: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء.

تمهيد:

إذا كان الغنى والفقر بيده سبحانه، وهو سبحانه كريم رحيم، فتَعطف على ذوى القربى والمسكين وابن السبيل، وساعد المحتاجين والفقراء، فإن الله مخلف على المنفقين وهو سبحانه الخالق الرازق المحيى المميت، ولا تستطيع الأصنام أن تصنع شيئا من ذلك.

التفسير :

٣٨ - ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

أعط أيها النبى الكريم، ومن تبعك من المؤمنين، القرابة حقوقهم من الصلة والعطف عليهم، ومساعدتهم، وقد حكى عن أبى حنيفة أنه استدل بهذه الآية على وجوب النفقة على كل ذى رحم محرم.

والسورة مكية، لكنَّها تحدثت عن وجوب الإنفاق على فئات من الفقراء والمحتاجين، ثم فُصِّلت الزكاة وحددت مصارفها فى المدينة، وقد بين القرآن أن المال مال الله، وأن العبد مستخلف عن الله فى هذا المال، لذلك يجب أن يؤدى حقوق الله فيه، ومن هذه الحقوق: الزكاة والصدقة وصلة الرحم، ورعاية المسكين وابن السبيل، وكفالة اليتيم، وتمكين العاجز عن العمل من مهنة يتكسب منها .

قالت خديجة للنبى محمد ﷺ عندما نزل عليه الوحى لأوّل مرة: إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الزمان، والله لا يخزيك الله أبدًا [٢٠].

تلك هى أخلاق الإسلام فى المؤاخاة والتكافل والتراحم والتعاون.

قال القاسمى فى تفسير الآية:

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ . . . أى: من البرّ والصلة، واستدل به أبو حنيفة - رحمه الله - على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب، لأن: ﴿فَآتِ﴾ . أمر للوجوب.

والظاهر من «الحق» أنه مالىّ، وهو استدلال متين.

﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ . وهو الذى لا شىء له ينفق عليه، أو له شىء لا يقوم بكفايته.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ . أى: السائل فى الطريق، والذى انقطع به الطريق، فلا يستطيع مواصلة السفر.

وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة [٢١].

وقال القرطبى:

واختلف فى هذه الآية، فقيل: إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل: لا نسخ، بل للقريب حق لازم فى البرّ على كل حال، وهو الصحيح، وقال مجاهد وقتادة: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، حتى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج. أ هـ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ . . .

أى: هذه النفقة والرعاية والعطف والمواساة، خير وفضل لمن أنفق عليهم، وأعطاهم المال والرعاية، ابتغاء ثواب الله وفضله، أو أملا فى النظر إليه يوم القيامة.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . الفائزون فى الدنيا والآخرة.

وكون هذا الإعطاء خيرًا، لأنه سبب التكافل والتعاون بين المسلمين، وفى التعاون والتكافل قوة وتوادد وتراحم وتآزر، وتخلّص من أمراض الفقر والتمزق والحقد والحسد.

٣٩ - وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ .

للمفسرين فى هذه الآية رأيان:

الأول: أن الربا فى الآية يراد به: الهدية يقدمها إنسان إلى الأغنياء يرجو أن يعوضوه أحسن منها، وهذا مباح وإن كان لا ثواب فيه، لأنه قصد بهديته ثواب الدنيا والتربح منها، فقد أخذ عوضه من الناس.

الرأى الثانى: أن الآية نزلت فى الزيادة التى حرمها الشارع.

قال ابن عباس:

الربا نوعان: ربا لا يصح، وهو ربا البيع.

وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها، ثم تلا هذه الآية: وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ...

وقد رجح القاسمى أن هذه الآية فى التحذير من الربا المحرم وذكر خمسة أدلة:

الأول: أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... (البقرة: ٢٧٦). وهى فى ربا البيع الذى كان فاشيا فى أهل مكة، حتى صار ملكة راسخة فيهم، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة، والكمال البشرى، فنعى عليهم حالهم، طلبا لتزكيتهم بتوبتهم منه، ثم أكّد ذلك فى مثل هذه الآية مبالغة فى الزجر [٢٢].

وقد استرسل القاسمى فى ذكر أدلة على أن الآية يراد بها الربا الذى حرمه الله تعالى بعد ذلك تحريما قاطعا، وأن المقصود من الآية التنفير من الربا على سبيل التدرج فى التشريع، حتى إذا جاء التحريم النهائى له، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم [٢٣].

وقال الآلوسى: الظاهر أن المراد بالربا هنا الزيادة المعروفة فى المعاملة التى حرّمها الشارع، ويشهد لذلك ما روى السدّى من أن الآية نزلت في ربا ثقيف، كانوا يرابون، وكذلك كانت قريش تتعاطي الربا.

ورجّح الزمخشرى فى تفسير الكشاف أن المراد بالآية تحري الربا، وبيان أن الله لا يبارك للمرابى فى ماله، بل يبارك للمزكّى والمتصدق.

وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ .

ومن أعطى صدقة أو زكاة يقصد بها وجه الله خالصا، فله الثواب المضاعف والجزاء الأفضل عند الله تعالى.

قال تعالى: مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ... (البقرة: ٢٤٥).

وقال سبحانه: مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ . (الحديد: ١١).

وقد أخرج البخارى، ومسلم، والنسائى، والترمذى، وابن ماجة، وابن خزيمة فى صحيحه، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «... وما تصدق أحد بعدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمان بيمينه فيربيها لصاحبها، كما يربّى أحدكم فُلوَّه أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من جبل أحد»[٢٤].

٤٠ - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

كان المشركون يقرون لله بالخلق والإيجاد، فالله تعالى خالق هذا الكون وخالق الإنسان، وهو سبحانه الرازق ومسبب أسباب الرزق، بتسخير السحاب والأمطار وإنبات النبات، وتسخير السُّفن فى البحر، وتيسير الصيد من البحر والبرّ، وتيسير التجارة والزراعة وأنواع المكاسب لإعمار الأرض، حيث قدّر فى الأرض أرزاقها، واستعمرنا فيها، وبيد الله الموت وقبض الروح والبعث والإحياء يوم القيامة.

ثم يستفهم القرآن استفهاما إنكاريا مرادًا به التوبيخ والتقريع، فيقول:

هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

هل من الأصنام أو الآلهة المدَّعاة التى تعبدونها من يفعل شيئا من الخلق أو الرزق أو الإماتة أو الإحياء.

وهو استفهام إنكارى للتقريع والتوبيخ، أى: لا يقدر أحد من الأصنام أو الشركاء أن يفعل شيئا من ذلك.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تنزه الله تعالى وتسامى أن يكون له شريك فى ألوهيته، من صنم أو وثن أو ملك أو جن أو عزير أو مسيح، فالجميع عباد خاضعون لله، لا شركاء له.

قال تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . (المؤمنون: ٩١).

★ ★ ★

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

المفردات:

ظهر الفساد: الفساد: الخلل فى الأشياء، كالجدب والقحط وقلة النبات، وكثرة الحرق والغرق، وأخذ المال ظلما، وكثرة المضارّ وقلة المنافع.

البَرّ: الجزء اليابس من الأرض.

البحر: الجزء المائى، والمراد من أهل البر: سكان القرى والمدن والفيافى، وأهل البحر: سكان السواحل وركاب البحار.

بما كسبت: بسبب معاصيهم وذنوبهم.

ليذيقهم بعض: ليذيقهم وبال بعض أعمالهم، وعقوبته فى الدنيا.

يرجعون: يتوبون.

عاقبة: عاقبة كل شىء آخره ونهايته والعبرة منه.

أقم وجهك: وجّه نفسك للعمل بالدين المستقيم.

القيم: البليغ الاستقامة وهو الإسلام.

لا مرد له: لا يقدر أحد أن يرده.

يَصدّعون: يتفرقون، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

يَمهدون: يوطئون منزلهم ويسوّونه فى الجنة.

تمهيد:

تشير الآيات إلى عدالة السماء، وبيان أن الله تعالى يعجل العقوبة على بعض الناس فى الدنيا، انتقاما عاجلا علّهم يتوبون، وقد انتقم الله من أمم سابقة كعاد وثمود، فعجِّلّ بالتوبة والاستقامة والتمسك بالإسلام، قبل أن يأتى يوم القيامة فيتفرق الناس حسب أعمالهم، فالكافر يلقى عقوبة كفره، والصالح يزيده الله من فضله.

التفسير :

٤١ - ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أى: انتشر الغلاء والوباء، والخلل والانحراف، ونقص الزروع والأنفس والثمرات، وقلة المطر وكثرة الجدب والقحط والتصحُّر، بسبب شؤم معاصى الناس، وذنوبهم من الكفر والظلم، وانتهاك الحرمات، ومعاداة الدِّين الحق، والاعتداء على الحقوق، ومعصية الله على وجه الأرض، وعلى ظهر السُّفن فى لجج البحر، ليذيقهم الله تعالى جزاء بعض عملهم، وسوء صنيعهم، لعلهم يرجعون عما هم عليه، ويتوبون إلى الله تعالى فى الدنيا قبل الموت.

٤٢ - قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ .

أى: تأملوا فى أخبار الأرض، وقصص الأمم البائدة، الذين أهلكهم الله لشركهم المستتبع لكل عصيان، كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقومه، وقوم لوط وقوم شعيب، وأمثالهم من المكذبين للرسل، الذى أهلكهم الله جزاء كفرهم وشركهم، وترك آثارهم عظة وعبرة.

قال تعالى: فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . (الحج: ٤٥).

والمراد: اتعظوا واعتبروا بمن أهلكهم الله بسبب كفرهم وشركهم، لتنجوا من المصير المحتوم، الذى يصيب كل كافر وظالم.

٤٣ - فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ .

اتجه بذاتك إلى الدين المستقيم وهو الإسلام، عابدًا لله، مؤمنا بكتبه ورسله واليوم الآخر، مستقيما على الطاعة، من قبل أن يأتى يوم القيامة، حيث لا يستطيع إنسان أن يمنع مجىء هذا اليوم، لأنه يأتى بأمر الله ومشيئته وقدره، وما قدَّره الله وأراد حدوثه فلا رادّ له، ولابد أن يكون ذلك اليوم، الذى يتفرّق فيه الناس بحسب أعمالهم، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير.

قال تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . (الروم: ١٤).

٤٤ - مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ .

من كفر فعليه وبال كفره.

قال الزمخشرى: كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضارّ، لأن من ارتكب ضرر الكفر، فقد أحاطت به كل مضرّة. أ هـ.

أى: فعلى الكافر إثم الكفر وعقوبته، ووزره وسوء عاقبته، ومن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحة، فقد مهد لنفسه فراشا وثيرا مريحًا، ومسكنا فسيحا، وقرارًا دائما فى الجنة.

فمعنى: يَمْهَدُونَ . يجهّزون الفراش ويعدّون المنزل فى الجنة، توطئة من يريد الراحة والاستقرار على أسرَّة الجنة وفرشها.

٤٥ - لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

أنا أُجازى المؤمنين الصالحين بفضلى وإحسانى وإنعامى، فأكافئ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله، تفضلا وترحمًا ومكافاة بالحسنى وزيادة.

قل تعالى: لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (يونس: ٢٦).

إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

إنه يبغض الكافرين ويعاقبهم عقابا عادلاً لا جور فيه، وفيه تهديد ووعيد.

قال تعالى: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . (القلم: ٣٥ - ٣٨).

★ ★ ★

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

المفردات:

ومن آياته: من دلائل قدرته.

الرياح: رياح الخير والرحمة، وهى الشمال والصبا والجنوب، وأما الدبور فريح العذاب، قال ﷺ: «اللهم اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا».

مبشرات: مُبشر بالخير وهو المطر.

ليذيقكم من رحمته: نزول المطر، وحصول الخصب والمنافع.

الفلك بأمره: السفن بإذنه عند هبوب الريح.

ولعلكم تشكرون: ولتشكروا نعم الله عليكم.

البينات: المعجزات والحجج الواضحات.

تثير: تحرك.

يبسط: ينشر.

الودق: المطر.

لمبلسين: ساكتين متحيرين من شدة الحزن، آيسين من إنزاله.

تمهيد:

القرآن الكريم يراوح فى أسلوبه، ويتخول النفوس بالموعظة، فقد تحدث فيما سبق عن الفساد فى الأرض، وعن عقوبة المفسدين، وهنا يتحدث عن أدلة القدرة الإلهية فى إرسال الرياح وإنزال المطر وإنبات النبات، وتخلل ذلك التسرية عن الرسول ﷺ، بأنه ليس أول من كذبه الناس، فقد كُذبت رسل سابقة كنوح ولوط وإبراهيم وموسى، ثم انتقم الله من المكذبين، وفى هذا تهديد ووعيد لأهل مكة.

التفسير:

٤٦ - وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

من آيات القدرة الإلهية أن الله تعالى يحفظ هذا الكون، ويمدّه بعوامل البقاء والنماء، فهو سبحانه يرسل الرياح بين يدى المطر، لتبشر الناس بقدوم المطر، فيحرثون أرضهم ويبذرون الزرع، ثم ينزل المطر فيعم الخصب والنماء، وتحيا الأرض ويخضر الزرع، وتتحرك السفن فى البحر بحركة الرياح.

ثم يأكل الإنسان والحيوان، وتنقل السفن التجارة والزراعة، من مكان إلى مكان، فيستفيد البائع والمشترى، وينتفع الناس، وعندئذ يجب أن يشكروا الله تعالى الذى أنعم عليهم بالعديد من النعم.

قال تعالى: وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... (النحل: ٥٣).

وقال تعالى: وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ... (النحل: ١٨).

٤٧ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

من حفظ الله لهذا الكون أنه سخر الشمس والقمر، والرياح والأمطار، والليل والنهار، والنبات والثمر، وسخر السفن، ويسر التجارة والزراعة والصناعة، ليستفيد الإنسان بإصلاح دنياه وليشكر ربّه.

وقد أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب لهداية الناس، فأنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والصحف على إبراهيم، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد، كما أعطى هؤلاء الرسل البينات والمعجزات، فآمن بعض الناس وكفر أكثرهم، فأرسل الله نقمته وعذابه على المكذبين، وتكفل الله تعالى بنصر المؤمنين، وجعل ذلك حقا واجبا عليه.

وقد يتأخر النصر لحكمة إلهية عليا، فمن الواجب ألا ييأس المؤمنون، بل عليهم أن يستمروا فى أداء دعوتهم، وتحقيق رسالتهم، وأداء النصيحة، والتحذير من الغواية، ولا ينبغى للمؤمن أن يترك راية الحق، بل هو يحمل رسالته ويمضى، ويسلّم الراية من جيل إلى جيل، وقد تكفل الله بحفظ كتابه.

قال سبحانه: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء: ١٠٥).

روى ابن أبى حاتم، والطبرانى، والترمذى، وابن مردويه، عن أبى الدرداء رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ . (٢٥).

قال الزمخشرى:

فى قوله تعالى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ . تعظيم للمؤمنين، ورفع من شأنهم، حيث جعلهم مستحقين عليه أن يظهرهم ويظفرهم.

٤٨ - اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .

يقرر القرآن هذه الحقائق المشاهدة أمام أعين الناس، فهو سبحانه يرسل الرياح وفق ناموسه، فى تكوين الكون وتنظيمه وتصريفه، فتنشئ سحابا بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء فى الأرض، حيث ترسل الشمس أشعتها، فيتصاعد البخار صوب السماء، فتحمله الرياح، فينشره الله فى السماء، ويوجهه إلى الجهة التى قدر لها أن يُساق المطر إليها، وأحيانا يجمع الله السحاب ويجعله قطعا، فترى المطر يخرج من وسطه، فإذا نزل المطر على من يشاء الله من الخلائق، إذا بهم قد استبشروا وفرحوا بما أصابهم من المطر، فالماء حياة الزرع والضرع.

قال القاسمى فى تفسيره:

إما سائرًا وواقفا، مطبقًا وغير مطبق، من جانب دون جانب إلى غير ذلك. وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا . أى: قطعا تارة أخرى. فَتَرَى الْوَدْقَ . أى: المطر. أ هـ.

٤٩ - وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ .

أى: كان الناس قبل نزول المطر قد استحكم يأسهم من المطر، فقد تطاول عليهم الجدب، وبَعُد عهدهم بالمطر حتى يئسوا منه، وأبلسوا وقنطوا، وانقطع رجاؤهم فى نزول المطر، فسبحان مغيّر الأحوال من اليأس إلى الرجاء، ومن القنوط إلى البشرى، ونزول الرحمة والنعمة.

٥٠ - فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أى: تأمل أيها العاقل فى أثر القدرة الإلهية فى هذا الكون، حيث أرسل الله المطر، وتوجَّه إلى الأرض الميتة، فأحياها بالنبات والزراعة، إن تأملك بعين قلبك سيعطيك الفهم والبصيرة والعظة، بأن من أحيا الأرض

بعد موتها قادر على بعث الموتى، وإخراجهم من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية، فهو سبحانه قادر على كل شيء.

ومن آثار هذه القدرة خلق هذ الكون وحفظه، وتسخير السحاب والمطر، وإحياء الأرض بعد موتها، كذلك إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء.

٥١ - وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ .

أى: إذا أرسل الله ريحا عاتية تحمل التراب والغبار والإعصار، فتلوّن الزرع واصفرّ، وذبل وفقد الاخضرار والنضارة، فإن الناس تتغير بسرعة، وتكفر بنعمة الله الذى ساق إليهم المطر، وأحيا الأرض وأنبت الزرع، فهم لا يحتملون البلاء، ولا يصبرون على البأساء، ولا يتأملون فى أن المصيبة فى الثمار، قد تكون ابتلاء من الله، تستحق الصبر على البأساء، والرضا بأسباب القضاء.

قال القاسمى:

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا . على الزرع، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا . أى: من تأثيرها فيه، لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ . أى: من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه، وفيه من ذمّهم وعدم تدبرهم، وسرعة تزلزلهم، لعدم تفكرهم وسوء رأيهم، ما لا يخفى (٣٦). أ هـ.

والخلاصة: أن الناس ترى بأعينها أنعم الله متكررة، وإذا جاءت ريح ضارة أو سامة، فاصفر الزرع ومال إلى الفساد، فإن الناس تتنكّر للخالق الرازق، وتنسى فضله السابق، ولا تصبر بل تكفر.



﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

المفردات:

لا تسمع الموتى: أى: سماع تدبر واتعاظ، لأنهم سدُّوا عن الحق مشاعرهم.

ولا تسمع الصم: لأنهم قد أصيبوا بالصمم، وهو ثقل السمع، والمفرد: أصم.

إذا ولوا مدبرين: إذا أعرضوا عنك مولّين، قيَّد عدم السماع بالإعراض، فإن الأصم إذا أقبل على السماع، وإن لم يسمع الكلام، استفاد منه بواسطة الحركات على اللسان بعض الأشياء.

العُمْى: من أصابهم العمى، وهو ذهاب البصر كله، والعمى أيضا: ذهاب بصر القلب، والمفرد: أعمى.

بآياتنا: القرآن.

مـــــسلمـــــون: مخلصون منقادون لما تأمرهم به.

التفسير:

٥٢ - ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

هذه الآية تسلية للرسول ﷺ عما يلقاه من عناد المشركين، فهم أشبه بالموتى وبالصم والعمى، لعدم استعدادهم لسماع أدلة الهداية، سماع تدبر واتعاظ، فإرشاد الميت محال، وإرشاد الأصم صعب، خصوصا فى حالة إعراضه وإدباره، وكذلك من مات قلبه وعميت بصيرته، فإن من الصعب هدايته وتوجيهه.

والمعنى:

أنت مبلّغ عن الله، عليك البلاغ وليس عليك هداهم، فلا تيأس ولا تبتئس إذا أعرض المشركون عن دعوتك، مع وضوح الأدلة أمامهم، فإنك لا تستطيع أن تُسمع الميت، سماعًا فيه الفهم والاستجابة.

وكذلك هؤلاء الكفار فقد ماتت قلوبهم، وأنت لا تستطيع أن تسمع الأصمّ المصاب بالصمم، وكذلك لا تستطيع أن تسمع المشركين دعوتك؛ لأنهم أصمّوا آذانهم، وأعرضوا بعقولهم وأفكارهم عن الإسلام، ولم يسمعوا لك سماع تفهم وتدبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (البقرة: ٦، ٧).

٥٣ - ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ليس فى وسعك أن تهدى من عميت بصيرته، واختار الضلال على الهدى، إنما أنت نذير، والله على كل شىء قدير، فهو سبحانه الذى يهدى من يشاء، ويضلّ من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أى: لا تسمع السماع الذى ينتفع به سامعه، فيتأمل ويتدبر، ويتأثر بما يسمع، إلا من آمن بالقرآن فَلاَن قلبه، وزاد يقينه، وتوكّل على الله، وأسلم وجهه إلى الله، فهو خاضع لأمر الله مستمسك بهديه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ...﴾ (الزمر: ٢٢).

«إن المؤمن هو الذى يسمع دعوة الإسلام، فيستجيب لهداية السماء، وينضم إلى جماعة المؤمنين، وهؤلاء قلوبهم حية، وبصائرهم مفتوحة، وإدراكهم سليم، فهم يسمعون فيسلمون، ولا تزيد الدعوة على أن تنبه فطرتهم فتستجيب»[٢٧].

فى أعقاب تفسير الآيتين ٥٢ ، ٥٣ من سورة الروم:

تكلم المفسرون عن سماع الموتى، واستفادتهم بدعاء الحى لهم، وخلاصة كلامهم: أنَّ من العلماء من أفاد أن الموتى لا يسمعون، استدلالا بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ...﴾

وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماعهم فى الجملة، وقال ابن عبد البر: إن الأكثرين على ذلك، وهو اختيار ابن جرير الطبرى، وكذا ذكره ابن قتيبة وغيره، واحتجوا بما فى الصحيحين عن أنس، عن أبى طلحة رضى الله عنهما. قال: لما كان يوم بدر وانتصر رسول الله ﷺ على مشركى مكة، أمر الرسول ﷺ ببضعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فألقوا فى طَوِىّ - أى: بئر من أطواء بدر - وأن رسول الله ﷺ ناداهم: «يا أباجهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فإنى قد وجدت ما وعد ربىّ حقا»، فقال عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا روح لها؟ فقال: «والذى نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» [٢٨].

وهذا هو الصحيح المؤيد بالشواهد الكثيرة، منها ما رواه ابن عبد البر مصححا له، عن ابن عباس مرفوعا: «ما من أحد يمرّ بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه فى الدنيا، فيسلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يردّ عليه السلام».

وروى ابن أبى الدنيا، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده إلاّ استأنس به، وردّ عليه حتى يقوم».

وقال أبو هريرة رضى الله عنه: إذا مرّ الرجل بقبر يعرفه، فسلّم عليه، ردّ عليه السلام».

وأجمع السلف على هذا، وشرع السلام على الموتى، مما يدل على شعورهم وعلمهم بالمُسلّم، وعلَّم النبى ﷺ أمّته إذا رأوا القبور أن يقولوا - فيما رواه مسلم عن بريدة -: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، أنتم السابقون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منّا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العاقبة» [٢٩].

وكل ذلك دالّ على أن السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويردّ، وإن لم يسمع المُسلّم الردّ» [٣٠].

★ ★ ★

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات:

خلقكم من ضعف: ابتدأكم ضعفاء، وقيل: خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة.

ثم جعل من بعد ضعف قوة: بعد ضعف الطفولة قوة الشباب، بعد بلوغ الحُلُم.

ضعفا وشيبة: ثم ردكم إلى أصل حالكم من الضعف بالشيخوخة والهرم.

التفسير:

٥٤ - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

خلق الله الإنسان من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم كوَّن عظامه، ثم كسا العظام لحمًا، ونفخ فيه الروح، ثم أخرجه من بطن أمّه واهنا ضعيفا، فقوله: مِّن ضَعْفٍ . . . أى: ابتداه ضعيفًا، ثم يشب الوليد قليلاً قليلا، فيكون صغيرا، ثم فتًى، ثم شابا قويا يتمتع بالقوة فى الكيان الجسدى، وفى البناء الإنسانى، وفى التكوين النفسى والعقلى.

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً . . .

ينحدر الإنسان من قمة هرم الشباب، إلى سفح الهرم متدرجا من القوة إلى الضعف فى الجسم والإرادة، حتى ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل، ولا يجد من إرادته عاصما، ومع الشيخوخة الشيب، يذكر تجسيما وتشخيصا لهيئة الشيخوخة ومنظرها.

وإن هذه الأطوار التى لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء، ولا تتخلف مرة فيمن يمدّ له فى العمر، دليل على أن الخليقة فى يد القبضة الإلهية المدبرة.

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

يفعل الله ما يشاء ويوجد ويبدع ما يشاء، من ضعف وقوة، وبدء وإعادة، ويتصرف فى عبيده بما يريد، وهو العليم التام العلم بتدبير خلقه، القدير الشامل القدرة على ما يشاء.

والآية وصف لمراحل العمر التى يمر بها الإنسان، حيث يولد ضعيفا، ثم يصل إلى القوة فى مرحلة الشباب، ثم يعود إلى الضعف فى مرحلة الشيخوخة، ولو تصورنا الحياة أشبه بهرم، فإن مرحلة الشباب هى قمة ذلك الهرم، والطفولة بداية السفح، والشباب صعود للقمة، والشيخوخة عود إلى سفح الهرم.

وقد أمرنا الإسلام بإعداد القوة، والمحافظة على الصحة، والرقى النفسى والفكرى والعاطفى، وذلك بالقراءة والرياضة، والمشى والسياحة، والتأمل والتدبّر، فى ملكوت السماوات والأرض، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه حلوه ومره، وتقبل مراحل العمر، والإبداع فيها بما يناسبها من تقديم الخبرة، ومساعدة العباد، والتعاون والتراحم وعمل الخير، وتفريج كربة المكروب، والإحسان للعمل، وبذلك يكون المؤمن منفعة ومعونة ونعمة لكل من حوله.

★ ★ ★

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

المفردات:

الساعة: يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا.

ما لبثوا: ما أقاموا بعد الموت.

غير ساعة: غير قطعة قليلة من الزمان.

يؤفكون: يصرفون عن الحق، يقال: أَفِكَ الرجل، إذا صُرف عن الصدق والحق والخير، أى: مثل ذلك الصرف عن الواقع فى مدة اللبث، كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق الذى هو البعث، وغيره من قول الحق والنطق بالصدق.

فى كتاب الله: فيما كتبه فى سابق علمه وقضائه، أو فى اللوح المحفوظ.

ولا هم يستعتبون: يطلب منهم إزالة عتب الله وغضبه عليهم بالتوبة والطاعة، فقد حق عليهم العذاب، يقال: استعتبنى فلان فأعتبته، أى: استرضانى فأرضيته.

التفسير:

٥٥ - وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ .

أى: ويوم تجىء ساعة البعث، فيبعث الله الخلائق من قبورهم، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله فى الدنيا، ويكتسبون فيها الآثام، أنهم ما أقاموا فى قبورهم إلا قليلا من الزمان، وهذا تقليل منهم لمدة لبثهم فى البرزخ على طولها، وهم قد صرفوا فى الآخرة عن معرفة مدة مكثهم فى ذلك الحين.

كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ .

مثل ذلك الصرف عن حسن التقدير، كانوا يُصرفون فى الدنيا عن معرفة الحق، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فالآية تفتح عيونهم فى الدنيا قبل فوات الأوان، وترشدهم إلى أن الحياة الدنيا قصيرة بالنسبة للآخرة، فلا يغرنكم ما فيها من لهو وعبث وباطل، فكل ذلك قصير الأمد، فارجعوا إلى سبيل الرشاد.

ويحتمل أن يكون قسمهم منصبًا على مدة لبثهم فى القبور، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم فى الأرض أحياء وأمواتًا، كما يحتمل أن يكون عن مدة مكثهم فى الدنيا.

قال ابن كثير:

يخبر الله تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنتظروا حتى يُعذر إليهم. أ هـ.

«وقيل: كان قسمهم استقلالا لأجل الدنيا، لما عاينوا الآخرة، تأسفًا على ما أضاعوا فى الدنيا» [٣١].

٥٦ - وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى: قال الذين أعطاهم الله العلم والإيمان من الأنبياء والملائكة وصالح المؤمنين: لقد مكثتم فى الدنيا فترة كافية للعمل الصالح، ولكنكم كفرتم، فسجلت أعمالكم فى كتب الله، التى تسجّل فيها أعمال الناس إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه، ولكنكم كنتم تجهلون أنه حقّ، فتستعجلون به استهزاء، وفى الآية دليل على فضل العلماء وعظيم قدرهم.

وقال احمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى:

وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله، والإيمان بالله، لأولئك المنكرين: لقد لبثتم من يوم مماتكم إلى يوم البعث فى قبوركم، وفى هذا رد عليهم وعلى ما حلفوا عليه، وإطلاع لهم على الحقيقة. أ هـ.

فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى: قال العلماء المؤمنون لهم أيضا: هذا هو اليوم الذى أنكرتموه فى الدنيا، وزعمتم أنه لن يكون لغروركم بالدنيا، وغفلتكم عن الأدلة المتظاهرة على أن البعث حق، وأن القيامة حق، وأن الدنيا عمل ولا حساب، وأن الآخرة حساب ولا عمل.

٥٧ - فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

فى يوم البعث والجزاء لا يقبل من الذين ظلموا اعتذارهم، ولا ندمهم على ما فعلوه فى الدنيا، ولا يقال لهم أرْضوا ربكم بتوبة وطاعة، كما كان يقال لهم ذلك فى الدنيا، وذلك لفوات أوان العمل.

والخلاصة: أنهم لا يعاتبون على سيئاتهم، بل يعاقبون عليها، ولا تقبل منهم التوبة، لأن الوقت وقت جزاء، لا وقت عمل، فالآية تذكير للظالمين بالتوبة والندم قبل فوات الأوان.

ونحو الآية قوله تعالى: وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ . (فصلت: ٢٤)

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات:

من كل مثل: من كل صفة عجيبة هى فى غرابتها كالأمثال، مثل: أدلة التوحيد، وصدق الرسول ﷺ، وأدلة البعث والحشر والحساب والجزاء.

بآية: من آيات القرآن، أو بمعجزة.

مبطلون: مزوِّرون أصحاب أباطيل.

يطبع: يختم.

لا يعلمون: جهلة مقلدون لا يطلبون العلم، ويصرون على خرافات اعتقدوها.

لا يستخفنّك: لا يحملنّك على الخفة والقلق.

لا يوقنون: لا يصدقون بالبعث، ولا يؤمنون بالله ورسوله إيمانًا حقًا.

التفسير:

٥٨ - وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ .

قدمنا للناس فى هذا القرآن من كل صفة عجيبة، حيث اشتمل على بدء الخليقة، وقصص الأنبياء والمرسلين، وأحاديث الأمم السابقة، ولفت الأنظار إلى هذا الكون العجيب، وبيان أنعم الله على عباده، وآيات الله

فى الكون والنفس، والخلق والبعث والحشر والجزاء، كل ذلك فى أسلوب بديع، وبيان معجز، ينتقل بالإنسان من قصة إلى خبر إلى أحكام إلى عظة، ومن نظام الدنيا إلى مشاهد الآخرة، حيث صرَّف الله القول، ونوّع فى أساليب الأحكام والعظات، تنويعًا كأنه المثل والقصة العجيبة.

قال تعالى: وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ . (إبراهيم: ٤٥).

وقال سبحانه: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً . (الإسراء: ٤١).

وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ .

أى: أقسم يا محمد، لئن أتيتهم بآية جديدة من آيات القرآن الكريم، أو بمعجزة جديدة مما اقترحوه، أو من غير ما اقترحوه؛ فلن يؤمنوا ولن يصدقوا، وإنما يقابلون الآيات والمعجزات بالتكذيب، وادعاء أنها سحر وباطل.

٥٩ - كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ .

أى: بمثل ذلك التكذيب والإعراض يترك الله القلوب مقفلة، مختومًا عليها ومطبوعًا عليها، فلا تسمح بدخول جديد من الهداية والإيمان، ولا بخروج قديم من التقليد والاعتقاد الفاسد، فهم لا يبحثون عن الحق، ولا يطلبون العلم، بل يُصرون على خرافات اعتقدوها، وترَّهات ابتدعوها.

قد تُنكرُ العين ضوء الشمس من رمدٍ   وينكر الفمُ طعم الماء من سَقمِ

فهم جاهلون للحق، ويجهلون أنهم جهلة بالحق، أى: إن جهلهم مركب، فهو صارف لهم عن طلب العلم، ومعرفة الصواب. كما قال الشاعر:

قال حمار الحكيم توما   لو أنصفونى لكنت أركب

لأننى جاهل بسيط   وصاحبى جاهل مركَّب

وهكذا نجد هذه السورة المكية، سورة الروم، تأخذ بأذهان المشاهدين إلى الآخرة، والبعث والحساب، ثم تشدّهم إلى الدنيا والقرآن وعجائبه.

وفى ختام السورة وصية جديدة للرسول والمؤمنين بالصبر، واليقين بالنصر، ليتوافق الختام مع البدء، حيث بُدئت السورة ببيان هزيمة الروم أمام الفرس، وبوعد الله أن ينتصر الروم على الفرس فى بضع سنين، وأن هذا الوعد لن يتخلف فالله لا يخلف الميعاد، ثم يكون الختام مؤيدًا لهذا المعنى.

٦٠ - فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ .

أى: اصبر يا محمد على أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك، أنت ومن معك من المؤمنين، متحملين الشكوك من الكافرين، والعقبات من المشركين.

وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ .

أى: لا يحملنك على الخفة والقلق، الذين لا يوقنون بوعد الله، فهم فى شك منه وقلق وحيرة، لأن قلوبهم محجوبة عن الإيمان بالله، واليقين بما عنده.

إن الله تعالى منجز لك وعده بالنصر والتوفيق، فلا يتسرب إليك القلق أو الشك أو الخفّة، من تكذيبهم بالآيات، وإنكارهم لها ومكرهم فيها، فإن العاقبة للمتقين، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين، وفى هذا إرشاد للنبى ﷺ وتعليم له، بأن يتلقى المكاره بصدر رحب، وسعة حلم.

أخرج ابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقى: أن رجلا من الخوارج نادى عليًا وهو فى صلاة الفجر، فقال: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (الزمر: ٦٥)، فأجابه وهو فى الصلاة: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصل اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

★ ★ ★

خلاصة موجزة لما اشتملت عليه سورة الروم

١ - إثبات النبوة بالإخبار بالغيب.

٢ - البراهين الدالة على الوحدانية.

٣ - الاعتبار بما حدث للمكذبين من قبلهم.

٤ - الأدلة التى فى الآفاق، شاهدة على وحدانية الله، وعظيم قدرته.

٥ - الأدلة على صحة البعث.

٦ - الأمر بعبادة الله وحده، وهى الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

٧ - النهى عن اتباع المشركين الذين فرّقوا دينهم بحسب أهوائهم.

٨ - من دأب الناس الفرح بالنعمة والقنوط من الشدة، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٩ - الأمر بالتصدق على ذوى القربى والمساكين وابن السبيل.

١٠ - فى النظر فى آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر.

١١ - تسلية الرسول ﷺ على عدم إيمان قومه، بأنهم صم عمى، لا يسمعون ولا يبصرون.

١٢ - الرسول ﷺ قد بلغ الغاية فى الإعذار والإنذار، لكن قومه قد بلغوا الغاية فى التكذيب والإنكار.

١٣ - أمره ﷺ بالاستمرار فى تبليغ الدعوة، مهما لاقى من الأذى والإحباط، فإن العاقبة للمتقين.

★ ★ ★



تفسير سورة لقمان

أهداف سورة لقمان

سورة لقمان سورة مكية، وآياتها ٣٤ آية، نزلت بعد سورة الصافات، وسورة لقمان من أواخر ما نزل بمكة فقد نزلت بعد الإسراء وقبل الهجرة. وقد سميت بسورة لقمان لورود قصة لقمان فيها، وكان من الحكماء الأقدمين، ولم يرد اسم حكيم غيره فى القرآن.

وسورة لقمان رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق، تطوف بالقلب فى جولات متعددة لتأكيد قضية العقيدة وترسيخها فى النفوس، وهى القضية التى تعالجها السور المكية فى أساليب شتى، ومن زوايا متنوعة، تتناول القلب البشرى من جميع أقطاره، وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التى تخاطب الفطرة وتوقظها.

هذه القضية الواحدة – قضية العقيدة – تتلخص هنا فى توحيد الخالق وعبادته وحده، وشكر آلائه، وفى اليقين بالآخرة، وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل، وفى اتباع ما أنزل الله، والتخلى عما عداه من مألوفات ومعتقدات.

والسورة تتولى عرض هذه القضية ثلاث مرات فى ثلاث جولات، تطوف كل منها بالقلب البشرى فتعرض عليه دعوة الهدى من جانب الوحى، ومن جانب الحكمة، ومن جانب الكون الكبير: سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وأجوائه وبحاره وأمواجه، وأمطاره ونباته وأشجاره، وأخيرًا من جانب القدرة الإلهية المحيطة بكل شىء، صاحبة الملك فى الأولى والآخرة.

فقرات السورة

يمكن أن نقسم سورة لقمان إلى ثلاث فقرات أو جولات:

الجولة الأولى:

تبدأ الجولة بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة، فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف، هى آيات الكتاب الحكيم، وهى هدى ورحمة للمحسنين. وهؤلاء المحسنون هم: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . (لقمان: ٤) فتقرر قضية اليقين بالآخرة، وقضية العبادة لله، ومعها مؤثر نفسى ملحوظ: أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (لقمان: ٥) . ومن ذا الذى لا يريد أن يكون من المفلحين؟.

وفى الجانب الآخر فريق من الناس يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذ تلك الآيات هزوا، وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسى مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. (لقمان: ٦).

ثم يمضى فى وصف حركات هذا الفريق: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا... (لقمان: ٧). ومع الوصف مؤثر نفسى منفر من هذا الفريق: كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا. ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح فى التعبير: فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. (لقمان: ٧). والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم الملحوظ.

ثم يعود إلى المؤمنين يفصل شيئا من فلاحهم الذى أجمله فى أول السورة ويبين جزاءهم الحسن فى الآخرة. ثم يعرض صفحة الكون الكبير مجالا للبرهان القاطع الذى يطالع الفطرة من كل جانب، ويخاطبها بكل لسان ويواجهها بالحق الهائل الذى يمر عليه الناس غافلين.. وأمام هذه الأدلة الكونية التى تهول الحس وتنبه الشعور، يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة، التى تجعل لله شركاء وهى ترى خلقه العظيم: هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. (لقمان: ١١).

وتستغرق هذه الجولة من أول السورة إلى الآية ١١.

الجولة الثانية:

تبدأ الجولة الثانية من خلال نفوس آدمية، وتتناول القضية ذاتها بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة، إنها نصيحة من رجل حكيم يعظ ابنه فيقدم له خلاصة تجاربه وحكمته، فيأمره بالتوحيد، وينهاه عن الشرك، ويحثه على بر الوالدين وطاعتهما فيما يأمران به، إلا إذا أمرا بالشرك ونحوه، وينبه لقمان ولده إلى إحاطة علم الله بكل شىء، إحاطة يرتعش لها الوجدان البشرى.

ثم يتابع لقمان وصيته لابنه فيأمره أن يقوم بتكاليف العقيدة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يصبر ويحتمل، فإن الصبر من أمهات الفضائل.

ويحث لقمان ولده على مكارم الأخلاق، وآداب النفس والسلوك، فينهاه عن الكبر والبطر، ويأمره أن يعتدل فى مشيته، وأن يغض من صوته، وأن يلزم الرفق والهدوء والاعتدال.

وقد استغرقت هذه الجولة الآيات من (١٢ – ١٩).

الجولة الثالثة:

تستغرق الجولة الثالثة بقية السورة: الآيات من (٢٠ – ٣٤)، وتبدأ بعرض أدلة التوحيد فى خلق السماء والأرض، وفى تسخير الكون وإسباغ النعم الظاهرة والباطنة، وفى ظل هذه النعم الظاهرة والأدلة الملموسة يبدو الجدل فى الله مستنكرًا من الفطرة، تمجه القلوب المستقيمة.

ثم يتابع السياق استنكار موقف الكفر والجمود وتقليد الآباء دون تبصر وروية، ومن ثم يعرض قضية الجزاء فى الآخرة مرتبطة بقضية الكفر والإيمان.

ثم يقف الكافرون وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهى تواجه هذا الكون فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير، وتعرض الآيات مشهدًا كونيا يهز القلب البشرى، مشهد الليل وهو يطول فيدخل فى جسم النهار ويمتد، والنهار وهو يطول فيدخل فى جسم الليل ويمتد، ومشهد الشمس والقمر مسخرين فى فلكيهما يجريان فى حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلا خالقهما. ويتخذ من هذا المشهد الكونى دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة وهى قضية التوحيد.

ثم يلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس فى صورة الفلك التى تجرى فى البحر، ثم يوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلم الذى يبعدها عن بارئها، ويتخذ من هذا المنطق دليلا على قضية التوحيد: وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ . (لقمان: ٣٢).

وبمناسبة موج البحر وهوله، يذكرهم بالهول الأكبر، وهو يقرر قضية الآخرة، الهول الذى يفر فيه الوالد من ولده، والولد من والده: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . (لقمان: ٣٣).

وتختم السورة بآية تقر القضايا التى عالجتها فى إيقاع قوى عميق مرهوب، فتذكر أن الله قد استأثر بخمس لا يعلمهن سواه: إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان: ٣٤) .

هذه الجولات الثلاث بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أسلوب القرآن الكريم فى معالجة القلوب، هذا الأسلوب المختار من خالق هذه القلوب، العليم بمداخلها، الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب.

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

المفردات:

الحكيم: المشتمل على الحكمة، أو الحكيم قائله.

هدى ورحمة: أى: الآيات هادية راحمة.

يقيمون الصلاة: معنى إقامتها: تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وآدابها، من: أقام العود، إذا قوَّمه.

يوقنون: يؤمنون أقوى الإيمان.

أولئك على هدىً: أولئك المحسنون فى أعمالهم، متمكنون من الهدى الذى جاءهم من ربهم.

المفلحون: الفائزون، لاستجماعهم العقيدة الحقة، والعمل الصالح.

تمهيد:

سورة لقمان سورة مكية، تهتم بالعقيدة والسلوك والآيات الكونية الدالة على قدرة الله، الخالق العظيم القادر المنعم المتفضل.

وعنيت بالحثّ على مكارم الأخلاق فى وصية لقمان لابنه، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبر الوالدين، والصبر والتواضع.

ودعت إلى إعمال النظر والفكر، وذم التقليد والجمود، لأن فيه إنكارًا للعقل وتعطيلاً له.

التفسير:

١ - الٓمٓ .

حروف للتنبيه كالجرس الذى يقرع، فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة، أو هى للتحدّى والإعجاز، وبيان أن الخلائق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، مع أنّه مؤلف من حروف عربية، ينطقون بها، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر، ولكنه تنزيل من حكيم حميد.

٢ - تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .

هذه الآيات المشتملة عليها هذه السورة، أو المشتمل عليها القرآن الكريم، آيات القرآن ذى الحكمة، التى لا خلل فيها ولا عوج، ولا تناقض ولا اختلاف. فالقرآن مشتمل على الحكمة والصواب، محفوظ من كل تحريف وتبديل، ناطق بكلّ ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

٣ - هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ .

هذه الآيات هداية كاملة، ورحمة شاملة للمحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم، وفى كل أحوالهم.

٤ - الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

أى: من صفات هؤلاء المحسنين أنهم يؤدون الصلاة كاملة فى خشوع وحضور قلب، ومحافظة عليها كاملة الأركان، والسنن والآداب، فى وقتها، فتكون بمثابة عهد بين المؤمن وربه، يستوجب بها الجنة، كما صح فى الحديث الشريف.

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ . . .

يدفعون الزكاة لمستحقيها، وفى الزكاة ترابط وتعاون وتكافل، وصلاح للأفراد والمجتمعات، والتزام بحق الله وأوامره، وقد اقترنت الزكاة بالصلاة، فى عشرات المواضع فى القرآن الكريم.

وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء وجنة ونار، أشد الإيمان وأقواه.

٥ - أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى: أولئك المحسنون المتصفون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، واليقين الجازم بالآخرة، على هداية عظيمة بالغة من ربهم، توصلهم إلى المطلوب، وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، فالفلاح والهدى والتوفيق، والرعاية والعناية الإلهية من نصيبهم.

★ ★ ★

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾

المفردات:

لهــو الحــديث: كل ما كان من الحديث وكان مهليا عن سبيل الله، مما نهى الله أو رسوله عن الاستماع إليه، واختار ذلك الطبرى.

ليــضل: ليصد ويمنع.

سبيل الله: دينه الموصل إليه، أو كتابه الهادى إليه.

هــزوا: يكذب بها أو يستهزئ بها، وقد قرأ جميع القراء: «هُزُؤا» إلا حفصا فإنه أبدل من الهمزة واوًا مفتوحة على أصل التخفيف.

ولــى: أعرض عنها غير معتد بها.

مستكبرا: مبالغًا فى التكبر.

كأن لم يسمعها: مع أنه سامع.

وقــرا: الوقر: الصمم كليا أو جزئيا، وهو مانع من السماع.

فبشره: أعلمه، وذكر البشارة للتهكم.

التفسير:

٦ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

من الناس من يؤثر الباطل على الحق، والكفر على الإيمان، ويؤثر أحاديث الباطل وأغانى المجون وتحريك الهوى على القرآن والإيمان. بِغَيْرِ عِلْمٍ . بأهمية الحق والقرآن والإيمان، فى سلامة الفرد والمجتمع، أو بغير بصيرة، حيث يستبدل الضلال بالهدى، والباطل بالحق، جهلا منه بالضلال الذى يسير فيه.

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ...

يتخذ آيات الله ووحيه سخرية، حيث يكذّب بها ويستهزئ بها.

أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

هؤلاء أصدقاء الباطل وأعداء الحق، لهم عذاب شديد، مذلٌّ مهين لهم، جزاء عنادهم ومكابرتهم.

وقد ذكر جمهور المفسرين أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث، كان يخرج تاجرًا إلى فارس، فيشترى أخبار الأعاجم، وفى بعض الروايات كتب الأعاجم فيرويها، ويحدِّث بها قريشا، ويقول لهم: إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وأخبار الأكاسرة، فيستملحُون حديثه، ويتركون استماع القرآن، فنزلت هذه الآيات.

ذكر ذلك ابن عطية فى تفسيره، وابن العربى، والقرطبى، وابن الجوزى، والآلوسى، والواحدى فى أسباب النزول، والسيوطى فى الدرّ المنثور. مع اختلاف عباراتهم فى حكاية ذلك بين التطويل والاختصار.

هل تدل هذه الآية على تحريم الغناء ؟

ذكر الطبرى وغيره فى تفسير هذه الآية، أنها نزلت فى قرشى اشترى مغنية، شغل بها الناس عن اتباع الرسول ﷺ.

وروى الترمذى فى سننه (٥ / ٣٤٦ / التفسير)، عن أبى أمامة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلِّموهنَّ، ولا خير فى تجارة فيهن، وثمنهن حرام»، وفى مثل ذلك أنزلت هذه الآية: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ... الآية.

قال الترمذى: هذا حديث غريب، إنما يُروى من حديث القاسم، عن أبى أمامة، والقاسم ثقة، وعلى بن يزيد يُضَعَّف فى الحديث.

وقال ابن كثير عن هذا الحديث فى تفسيره (٣ / ٤٤٢): على وشيخه والراوى عنه، كلهم ضعفاء، والله أعلم.

وقال ابن عطية فى تفسيره (١١ / ٤٨٤): والذى يترجح أن الآية نزلت فى لهو حديث مضاف إلى كفر، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله: لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ... وبالتوعد بالعذاب المهين. وأما لفظة الشراء فتحتمل الحقيقة والمجاز. أ هـ.

أما الحقيقة فإن النضر بن الحارث كان يشترى كتب الأعاجم، وينقل منها حديث رستم واسفنديار، ويقول: إن حديثى أحسن حديثا من محمد.

وأما المجاز فالمراد بالشراء هنا: الاختيار والاستحسان، والترغيب فى الباطل، حتى يشغل الناس عن القرآن والإسلام، قال تعالى: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . (البقرة: ١٦).

وقال قتادة: اشتراؤه: استحبابه، يختارون حديث الباطل على حديث الحق.

من تفسير القرطبى:

ذكر القرطبى فى تفسيره (١٤/٥٤) حديث أبى أمامة وآثارًا بنحوه فى ذمّ الغناء والتحذير منه، ثم قال:

ولهذه الآثار وغيرها، قال العلماء بتحريم الغناء، وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذى يحرك النفوس، ويبعث على الهوى والغزل، والمجون الذى يحرك الساكن، ويبعث الكامن، فهذا النوع إذا كان فى شعر يشبب فيه بذكر النساء، ووصف محاسنهن، وذكر الخمور والمحرمات؛ لا يُختلف فى تحريمه، لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق.

فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، فأما ما ابتدع اليوم من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف، والأوتار فحرام.

وقد استطرد القرطبى فى تفصيل أحكام الغناء والسماع، كما فصل الألوسى ذاك أيضا عند تفسير هذه الآية وأطال فيه [٣٢].

من الدرّ المختار:

التغنى لنفسه لدفع الوحشة لا بأس به عند العامة، على ما فى (العناية) وصححه العينى وغيره، وإليه ذهب شمس الدين السرخسى، قال: ولو كان فيه وعظ وحكمة فجائز اتفاقًا، ومنهم من أجازه فى العرس كما جاز ضرب الدُّفّ فيه، ومنهم من أباحه مطلقا، ومنهم من كرهه مطلقا. انتهى كلام الدرّ.

من تفسير الألوسى:

ومثل الاختلاف فى الغناء الاختلاف فى السماع، فأباحه قوم كما أباحوا الغناء، واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى، عن عائشة، قالت: دخل علىَّ النبى ﷺ، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه.

وفى رواية لمسلم تسجّى بثوبه، ودخل أبو بكر فانتهرنى، وقال: مزمارة الشيطان عند النبى ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: «دعهما»، فلما غفل غمزتهما فخرجتا، وكان يوم عيد. [٣٣].

والحق أن الغناء الذى لا يحرك الشهوة، ولا يحث على الفجور وشرب الخمور، يجوز فى المناسبات كالعيدين، كما ورد فى حديث البخارى السابق عن عائشة، وكالعرس، لما ورد أن الرسول ﷺ، حينما علم بزواج فتاة، قال: «هلاَّ بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
فلولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم [٣٤]

وعند التنشيد على القيام بالأعمال الشاقة، كغناء وأناشيد أصحاب الحرف والصناعات، وكحداء الإبل للصبر على قطع المفاوز واجتياز الصحراء، كما يجوز سماع ذلك، والله أعلم. [٣٥].

٧ – وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

وإذا تُقرأ على هذا الضال آيات الله أعرض عنها، غير معتقد بها، متكبرًا مبالغًا فى الكبر، وحاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع، كأنَّ فى أذنيه صمما وثقلاً مانعًا من السماع، فأنذره يا أيها الرسول بالعذاب الأليم، جزاء إعراضه عن آياتنا، وتكبره عن الاستجابة لهدايتنا.

قال ابن كثير فى تفسير الآية ما يأتى:

أى: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولّى عنها وأعرض وأدبر، وتصامّ وما به من صمم، كأنه ما يسمعها، لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها.

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

أى: يوم القيامة يؤلمه، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات:

جنات النعيم: أى: جنات النعيم الكثير، حيث يتنعمون بأنواع الملاذّ، من المآكل والمشارب.

وعد الله حقا: أى: هذا ثابت لا محالة، لأنه وعد الله، ووعده لا يتخلف.

العزيز: الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء.

الحكيم: فى أقواله وأفعاله.

التفسير:

٨ ، ٩ – إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

تأتى هاتان الآيتان فى بيان جزاء المؤمنين، الذين استجابوا لأمر الله، فالذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله؛ مآلهم إلى جنات النعيم، التى يتنعمون فيها بأنواع المآكل والملابس والمساكن، والمراكب والنساء والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها، قد حقق الله لهم وعده، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وهو سبحانه، الْعَزِيزُ. الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء، الْحَكِيمُ. فى أقواله وفى أفعاله، الذى يضع الشىء فى موضعه.

★ ★ ★

﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾

المفردات:

بغير عمد: العَمَد واحدها: عماد، وهو ما يُعْمد به، أى: يسند به، تقول: عمدت الحائط، إذا دعمته.

رواسى: جبالا ثوابت.

تميد: تضطرب.

بثّ فيها: البث: الإثارة والتفريق، كما قال تعالى: كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ . (القارعة: ٤). والمراد: الإيجاد والإظهار.

زوج : صنف.

كريم: شريف كثير المنفعة.

التفسير:

١٠ - خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

خلق الله السماوات ورفعها فوق رءوسنا بدون أعمدة، ونحن نشاهدها صباح مساء، مرفوعة عالية بدون أعمدة، مع أن بيوتنا لا ترتفع أسقفها إلا على أعمدة، ومن تسبيح المؤمنين: سبحان الأبدى الأبد، سبحان من رفع السماء بلا عمد، سبحان من قسم الأرزاق فلم ينس أحد، سبحان من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

فالضمير فى: تَرَوْنَهَا ، عائد على السماوات، قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية، ويجوز أن يعود الضمير على الأعمدة فيكون مخفوضا مثلها.

أى: إن الله خلق السماوات بغير أعمدة مشاهدة بالعين، وإن كانت لها أعمدة غير مرئية منها الجاذبية، أو قوة القدرة الإلهية التى أبدعت كل شىء خلقته. قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها.

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ...

ووضع الله فى الأرض جبالا راسية، أرست الأرض وثقلتها، حتى لا تميد ولا تضطرب بأهلها، قال تعالى: وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . (النازعات: ٣٢).

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ...

أوجد فى الأرض من أصناف الحيوانات ما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذى خلقها.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

أنزل الله من السماء ماءً، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت فيها أصناف النباتات، مختلفة الألوان والأشكال، كما أنبت فيها أصناف الحيوان والإنسان.

قال الشعبى: والناس أيضا من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

وجاء فى تفسير روح البيان، للشيخ إسماعيل حقى البروسوى، المتوفى سنة ١١٣٧ هـ :

واعلم – وفقنا الله جميعا للتفكير فى عجائب صنعه، وغرائب قدرته – أن عقول العقلاء، وأفهام الأذكياء قاصرة متحيرة فى أمر النباتات والأشجار، وعجائبها وخواصها وفوائدها، ومضارها ومنافعها، وكيف لا وأنت تشاهد اختلاف أشكالها، وتباين ألوانها، وعجائب صور أوراقها، وروائح أزهارها، وكل لون من ألوانها ينقسم إلى أقسام، كالحمرة مثلاً: كوردى، وأرجوانى، وسوسنى، وشقائقى، وخمرى، وعنابى، وعقيقى، ودموى وغير ذلك، مع اشتراك الكل فى الحمرة، ثم عجائب روائحها، ومخالفة بعضها بعضا، واشتراك الكلّ فى طيب الرائحة، وعجائب أشكال أثمارها وحبوبها، وأوراقها، ولكل لون وريح وطعم، وورق وثمر وزهر وحبٍّ، خاصية لا تشبه الأخرى، ولا يعلم حقيقة الحكمة فيها إلا الله، والذى يعرفه الإنسان فى ذلك بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من بحر[٣٦]. أ هـ.

من ألوان البيان:

فى الآية بيان قدرة الخالق الذى خلق السماء مرتفعة بغير عمد مرئية، وأحكم بناءها وحفظها من السقوط، وبسط الأرض وحفظ توازنها بالجبال المرتفعة الشاهقة، ونثر فيها المخلوقات من الحيوان والإنسان، ثم تحدث عن قدرة الرازق، بعد أن تحدث عن قدرة الخالق، فبين قدرته على إنزال المطر، وإنبات صنوف النباتات المتعددة، كثيرة المنافع جميلة المنظر.

١١ – هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

أى: هذا الذى ذكر من خلق السماوات والأرض، وما فيها من جمال وإبداع ونظام، خلق الله الواحد القادر، المستحق للعبادة، ومع هذا فأنتم عبدتم الأوثان والأصنام، وغير ذلك من المخلوقات، فأخبرونى ماذا خلقت هذه الأصنام حتى يكونوا شركاء لله.

ثم صرح بظلم أهل مكة، وشركهم وضلالهم الواضح، فقال: بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . أى: الكافرون من أهل مكة ظلموا أنفسهم بعدولهم عن الإيمان والإسلام، إلى الضلال الواضح البيّن.

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات:

لقمان: كان نجارًا أسود من سودان مصر، ذا مشافر، آتاه الله الحكمة.

الحكمة: العقل والفطنة.

الشكر: الثناء على الله تعالى، وإصابة الحقّ، وحب الخير للناس، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له.

تمهيد:

حكم منسوبة إلى لقمان

نُسب إلى لقمان من المقالات الحكيمة شىء كثير، كقوله لابنه ما يأتى:

أى بنىّ، إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثيرون، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو، ولا أراك ناجيا.

وقوله: من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ.

وقوله: من أنصف الناس من نفسه، زاده الله بذلك عزًا، والذلّ فى طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية.

وقوله: يا بنى، لا تكن حلوًا فتبتلع، ولا مُرًا فتُلفظ.

وقوله: يا بنى، إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه فآخه، وإلا فاحذره.

التفسير:

١٢ - وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

ولقد أعطينا لقمان الفهم والعقل، وحسن التبصر والإصابة فى القول، وأمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه، وخصّه به من بين أبناء جنسه، وأهل زمانه، ومن يشكر الله فإن فائدة الشكر إنما تعود عليه، حيث يمنحه الله زيادة فى النعمة والحكمة، ومن يكفر بنعمة الله فإنما يعود ضرر الكفر على نفسه، لأن الله غنى عن عباده، محمود بالفعل فى السماء والأرض.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر: ١٥).

وقد أفاض الطبرى فى وصف لقمان وحكمته وبلده، وكذلك ابن كثير، وجمهور المفسرين على أن لقمان كان عبدًا صالحا أعطاه الله الحكمة، ورجح ابن كثير أنه كان عبدًا صالحًا حكيمًا، ولم يكن نبيا، واستند إلى أن بعض الروايات أفادت أنه كان عبدًا مملوكا لبعض الناس، ثم منَّ الله عليه بالحكمة والعلم والقبول، فرآه زميل له فى مجلس، وقد خضع له الناس، وأنصتوا واستمعوا، فقال له: ألست أنت الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: ما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنينى.

وروى جابر، عن عكرمة، قال: كان لقمان نبيا.

وذهب ابن كثير إلى أنه لم يكن نبيا، لأن الرسل تبعث فى أحساب قومها، قال: وجمهور السلف على أنه لم يكن نبيا، وإنما نُقل كونه نبيا عن عكرمة، وإسناده ضعيف، والله أعلم.

وروى ابن كثير فى تفسيره، عن قتادة، عن عبد الله بن الزبير، قال: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرًا أفطس من النوبة.

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى، عن سعيد بن المسيب، قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة، ومنعه النبوة (٣٧).

١٣ - وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

واذكر إذ قال لقمان الحكيم لابنه المشفق عليه، وهو ينصحه، ويقدم له التذكير بالخير، فيما يرق له القلب، قائلا له:

يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ . . .

أى: اعبد الله وحده، ولا تشرك بعبادته أحدًا من خلقه، فليس من العدل أن تسوِّى بين الخالق الرازق، الذى بيده الخلق والأمر، وهو على كل شىء قدير، وبين من لا يخلق ولا يرزق، ولا يُتصوَّر منه شىء من ذلك.

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

أى: أعظم الظلم، والظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه، ومن أشرك بالله فقد وضع العبادة والتأليه والخضوع والدعاء فى غير موضعه.

روى البخارى، ومسلم، عن عبد الله، قال: لما نزلت: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ . . . (الأنعام: ٨٢). شق ذلك على أصحاب رسول ﷺ، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . » (٣٨).

وفى الحديث الصحيح، أن رجلا قال: يا رسول الله، أىّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»، قال: ثم أىّ ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يأكل معك»، قال: ثم أىّ؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك» (٣٩).

★ ★ ★

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات:

الوهن: الضعف.

الفصال: الفطام.

جاهداك: حرصا على متابعتك لهما فى الكفر.

أناب: رجع.

التفسير:

١٤ - وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ.

هذا كلام مستأنف على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان، تأكيدًا لما فى الوصية من النهى عن الإشراك، فهو من كلام الله عز وجل، ولم يقله للقمان، وقيل: هو من كلامه تعالى للقمان.

والمعنى:

وأمرنا الإنسان أن يحسن إلى والديه، وأن يردَّ الجميل إليهما، فقد تكفلا بتربيته ورعايته ووصيناه بالأمّ خاصة، لأنها تحملت المشقة والوهن والضعف فى الحمل والولادة والرضاع والكفالة، وقيل: وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ... مشقة على مشقة.

قال الزجاج: المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة، ويقال: الحمل ضَعْف، والطلق ضعف، والوضع ضعف، وقيل: الحمل كلما عظم ازدادت ثقلاً وضعفا.

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ...

أى: فطامه فى عامين؛ والحولان نهاية مدة القضاء.

قال تعالى: **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ...** (البقرة: ٢٣٣).

ومفهوم الآية أنهما الغاية التى لا تتجاوز، والأمر فيما دون ذلك موكول إلى اجتهاد الأم.

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ .

وصينا الإنسان أن يشكر ربّه لقاء ما أنعم به عليه من النعم التى لا تحصى، وأن يشكر والديه لقاء ما تحملا فى سبيل تربيته، وذلك بالدعاء لهما، والبرّ بهما وإكرامهما وطاعتهما، والمرجع والمصير إلى الله تعالى، فيجازى عباده على ما قدّموا، وفى الحديث الشريف: «والذى نفس محمد بيده، لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ على ما تعملون، ولتجزونّ بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا، أو لنار أبدًا».

وروى ابن كثير، عن معاذ بن جبل، أنه قال فى خطبة له: وأن المصير إلى الله، وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت.

١٥ – وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وإن حملك والداك بجهد على أن تشرك بالله ما لا تعلم أنه إله – والله تعالى لا شريك له – فلا تطعهما فى الشرك، ومع هذا صاحبهما بالمعروف، والكرم والمروءة والبر، مثل القيام بشئونهما من طعام وكسوة، وعدم جفائهما، وكذلك رعايتهما فى المرض والموت، وما يتصل بذلك من شئون الدنيا فهى قصيرة الأمد.

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

واسلك طريق المؤمنين الراشدين الملتزمين، ولا تتبع والديك المشركين، وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما فى الدنيا، ثم إن المرجع والمآب إلى الله، والجزاء منه تعالى.

قال تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. (الزلزلة: ٧، ٨).

والآية الكريمة نزلت فى سعد بن أبى وقاص، ورد ذلك فى كتب التفسير وأسباب النزول.

قال ابن جرير الطبرى: وذكر أن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمّه.

قال سعد: لما أسلمتُ حلفتْ أمّى لا تأكل طعاما، ولا تشرب شرابا، فناشدتها أوّل يوم فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثانى ناشدتها فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت، فقلت: والله لو كانت لك مائة نَفْس فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت دينى هذا، فلما رأت ذلك، وعرفت أنّى لست فاعلاً، أكلت [٤٠].

★ ★ ★

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات:

إنها: أى: الخصلة من الإساءة أو الإحسان.

إن تَكُ: أى: إن تكن فى الصغر قدر حبّة الخردل مثلا.

مثقال: المثقال ما يقدر به غيره لتساوى ثقلهما، وهو فى العُرف معلوم وزنه.

يأت بها الله: يحضرها فيحاسب عليها.

لطيف: يصل علمه إلى كل خفى.

خبير: عالم بكنهه.

إن ذلك: إشارة إلى ما ذكر من الصبر على ما أصابك وغيره.

من عزم الأمور: مما عزمه الله وقطعه على عباده وأمر به.

ولا تصعر خدك: ولا تُمل خدّك عن النّاس، ولا تولّهم صفحة وجهك، كما يفعل المتكبرون.

التفسير:

١٦ - يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم، ليمتثلها الناسُ ويقتدوا بها، فقال:

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ...

أى: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت فى الصغر قدر حبة الخردل مثلا، وكانت مع ذلك فى أخفى مكان، وأحرزه كجوف الصخرة، أو بعيدة فى السماء، أو قريبة فى الأرض.

يَأْتِ بِهَا اللَّهُ . . .

يحضرها الله يوم القيامة، حين يضع الموازين القسط، ويجازى عليها إن خيرا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا.

قال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء: ٤٧).

وقوله تعالى: يَأْتِ بِهَا اللَّهُ . . . إما على ظاهره، أو معناه: بمعنى يحضر ثوابها وجزاءها، ويجعلها كالحاضر المشاهد للتذكير والاعتراف بها.

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . يصل علمه إلى كل خفى، فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقت ولطفت واستترت.

خَبِيرٌ . عالم بكنهه ومستقره، عالم بدبيب النمل فى الليل البهيم.

١٧ - يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ .

يا بنىّ، حافظ على الصلاة، بحدودها وأركانها وخشوعها، وأدائها فى أوقاتها، لتكون صلة بين العبد وربه.

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ . . .

بحسب طاقتك وجهدك، محتسبا لله صابرًا على ما تلقاه فى سبيل ذلك، إن الصبر على ما أصابك وعلى سائر ما أمرت به مما عزمه الله تعالى، وأمر به أمر إيجاب وإلزام، فلزم قبوله والعمل به والحرص عليه.

١٨ - وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

ولا تتكبر على عباد الله، ولا تمل خدك تيها وعجبًا، بل تواضع للناس.

قال الطبرى:

وأصل الصَّعر داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رءوسها، حتى يلوى أعناقها عن رءوسها، فشبّه به الرجل المتكبر.

ومنه قول عمرو التغلبى:

وكنّا إذا الجبّارُ صَعَّر خدَّهُ ... أقمنا له من مَيْله فتقوَّما

وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا . . .

جذلا فرحا متكبّرا، متبطرًا جبارًا عنيدًا، أى: لا تفعل ذلك فيبغضك الله.

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

والمختال: المتكبر المعجب بنفسه، وهو مأخوذ من الخيلاء وهو التبختر فى المشى كبرا.

والفخور: كثير الفخر والمباهاة بنفسه، وماله، وأعماله وعطائه، والقليل منه جائز إذا كان تحدثا بنعمة الله، مثل اختيال المجاهدين بين الصفين.

١٩ - وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ .

أى: امش مشيا وسطًا بين بين، ليس مثل دبيب المتماوتين، ولا مثل سرعة المفرطين، بل سيرًا مقتصدًا معتدلاً، والقصد: الاعتدال.

وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ .

أى: اخفض من صوتك، واجعله قصدًا ولا ترفعه إذا تكلمت، فالصوت الهادئ أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه، إن أقبح ما يستنكر من الأصوات ويستكره منها صوت الحمير.

وهذا تعبير بالصورة حيث لفت الأنظار إلى صورة الحمار عند نهيقه، تحذيرا من رفع الصوت، حتى لا يتشبّه صاحبه بالحمار، وهى صورة للتحذير والتنفير من رفع الصوت، وقد استشهد الحافظ ابن كثير بحديث النبى ﷺ: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا»(٤١). ثم قال ابن كثير: وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجة، وفى بعض الألفاظ: «بالليل»، فالله أعلم.

وساق ابن كثير فى تفسيره طائفة من حكم لقمان مثل: إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

ثم ساق فصلا فى الخمول والتواضع، وفصلا آخر فى ذم الشهرة، أو الاشتهار بين الناس بالبدعة أو الفسوق، ثم فصلا فى حسن الخلق، ثم فصلا فى ذم الكبر، وفصلا فى ذم الاختيال.

وكلها تتلاقى على رسم صورة للمؤمن الموصول قلبه بالله، فهو متواضع ملتزم بمكارم الأخلاق، بعيد عن التكبر والتجبّر، يفرّ من البدعة والخروج عن الصراط المستقيم، وهو ملتزم بهدى النبى ﷺ فى رحمته وتواضعه ومراقبته لله، وبعده عن التكبر والتجبّر، وهذ الوصايا النافعة فى سورة لقمان، ورد نظير لها فى سورة الإسراء، وأيضا ورد وصف عباد الرحمان فى سورة الفرقان، ومجموع هذه الوصايا التى وردت فى الآيات ٢٢ - ٣٩ من سورة الإسراء، وفى الآيات ٦٣ - ٧٧ من سورة الفرقان، وفى الآيات ١٢ - ١٩ من سورة لقمان، هذه المواطن الثلاثة فى القرآن الكريم، تكوّن نموذجا مثاليا لمكارم الأخلاق فى القرآن الكريم، كما ورد فى السنّة المطهرة طائفة من الأحاديث النبوية الصحيحة، تحثّ المسلمين على التمسك بروح هذا الدين، مثل التكافل والتراحم والتعاون، والبعد عن الخصام والسخرية والاستهزاء، وتطفيف الكيل والميزان، والزنا والربا والغرور، وأكل أموال الناس بالباطل.

أى أن القرآن والسنة يتلاقيان فى الحث على مكارم الأخلاق، ويحذران من الكبائر والرذائل.

قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٤٢].

وقال ﷺ: «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منّى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منّى منازل يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»، قيل: يا رسول الله، هؤلاء الثرثارون المتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[٤٣].

★ ★ ★

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

المفردات:

سخر: ذلل، والتسخير: سياقة الشىء إلى الغرض المختص به قهرًا.

أسبغ: أتمّ وأكمل.

نعمه: جمع نعمة، وهى: كل نفع قصد به الإحسان.

يجادل: يحاور ويخاصم وينازع فى توحيد الله، وعبادته وصفاته.

بغير علم: بغير برهان من الله.

ولا هدى: ولا هدى رسول.

كتاب منير: كتاب مرشد.

ما أنزل الله: أى: على رسوله من الشرائع المطهّرة.

ما وجدنا عليه آباءنا: يريدون ما عبد آباؤهم من دون الله.

التفسير:

٢٠ - أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ .

ألم تشاهدوا أيها الناس من أدلة القدرة الإلهية، أن الله ذلل لكم الاستفادة مما خلق فى هذا الكون، حيث جعل السماء سقفا مرفوعا، وزينها بالنجوم والشمس والقمر، والملائكة والسحاب والمطر.

وذلل لكم ما فى الأرض من النبات والأشجار والأنهار والبحار، والثمار والهواء والفضاء والليل والنهار، والمعادن والدواب وما لا يحصى من النعم.

وأسبغ عليكم نعمه الظاهرة منها كالسمع والبصر وحسن القامة، وتسوية الأعضاء، كاليدين والقدمين والشفتين واللسان، والبلعوم والمرىء والقلب والمعدة وسائر الأجهزة، كالجهاز الهضمى والجهاز العصبى والجهاز التناسلى والجهاز اللمفاوى، كما أسبغ عليكم النعم الباطنة التى تشاهد آثارها كالهداية والفهم والعقل.

وكم فى بدن الإنسان من نعم لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها، وصدق الله العظيم: وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ... (النحل: ١٨).

فالإنسان مغمور فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار، بنعم الله السابغة الوافرة، التى لا يدرك مداها، ولا يحصى أنماطها.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ .

مع وضوح الأدلة على وجود الله، وظهور آياته فى الآفاق، وتعدد نعمائه وآلائه، فإن فريقا من المنكرين الجاحدين ينكرون وجود الله، ولا يشكرون ولا يذكرون، ولا يتدبرون ما حولهم، ولا يوقنون بالمنعم المتفضل الكريم، وهم فى جدالهم لا يعتمدون على كتاب مأثور، أو علم صحيح معقول، أو هداية من رسول يوحى إليه، أو كتاب مبين كالقرآن الكريم.

٢١ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ .

وإذا قيل لكفار مكة أو النضر بن الحارث، وأُبَى بن خلف، وأشباههم من المجادلين بالباطل: اتبعوا ما أنزل الله تعالى من الوحى والقرآن على رسوله محمد ﷺ، قال هؤلاء المجادلون المكابرون: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، من عبادة الأوثان، والتقرب إلى الأصنام، فيصرُّون على التقليد الأعمى لآبائهم، قل لهم يا محمد: أتتبعون الآباء وتصرون على تقليدهم بدون تعقل أو تفكير، وإن كان الشيطان هو الذى يوسوس للآباء والأجداد، ليصدهم عن طاعة الله، ويزين لهم الضلال والكفر وعبادة الأوثان، حتى تكون نهايتهم النار، وعذابها وسعيرها وأهوالها.

وقريب من الآية قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ . (البقرة: ١٧٠).

والآية دليل واضح على تحرير الإسلام للعقل والفكر، ووجوب النظر فى الدليل والحجة، والبعد عن التقليد والجمود.

قال الآلوسى:

وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر.

وأما اتباع الغير فى الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق، فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله تعالى وليس من التقليد المذموم فى شىء، وقد قال سبحانه: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٤٣).

★ ★ ★

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات:

يسلم وجهه: يفوض إلى الله جميع أموره.

محسن: مطيع لله فى أمره ونهيه.

العروة الوثقى: أوثق العرى وأمتنها، وهو مثل، وأصله: أن من يرقى إلى جبل شاهق، أو يريد النزول منه، يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع.

عاقبة الأمور: مصير الأمور ونهايتها.

فننبئهم: فنخبرهم.

ذات الصدور: خبيئة القلوب ودخيلتها.

نضطرهم: نلجئهم ونلزمهم.

عذاب غليظ: عذاب شديد ثقيل، ثقل الأجرام الغلاظ.

التفسير:

٢٢ - وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ .

ومن يفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه سبحانه، مع إخلاص القلب وطهارة النية، فقد تمسك بالعروة الوثقى، والحبل القوى المتين.

والأصل فى العروة الوثقى: أنها الحبل القوى الذى إذا أراد إنسان صعود جبل أو النزول منه تعلّق به، فهى تعبير مصوّر لبيان أن المسلم المخلص لله، المعتمد عليه، متمسك بأقوى سبب، وأوثق قوة.

وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ .

أى: مصير الأمور ونهايتها إلى الله، ومن وجد الله وجد كل شىء، ومن فقد الله فقد كل شىء.

قال ابن كثير: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ... أى: فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذّبه.

وقال الفخر الرازى فى التفسير الكبير:

أوثق العرى جانب الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باق لا انقطاع له.

٢٣ - وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

يقابل القرآن بين موقف المؤمن المستمسك بحبل الله تعالى، وموقف الكافر، فيقول للنبى ﷺ: لا تحزن ولا تبتئس بإصرار الكافرين على الكفر، وإعراض المشركين عن دعوة التوحيد، فكل هؤلاء سيرجعون إلى الله تعالى فى الآخرة، فيعلمهم بأعمالهم، ويحاسبهم ويجازيهم جزاء عادلاً من جنس أعمالهم، فالله تعالى مطلع على ما فى نفوسهم، وخبير بخبيئة القلوب ودخيلتها، قال تعالى على لسان لقمان الحكيم:

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان: ١٦).

جاء فى صفوة التفاسير للشيخ محمد على الصابونى:

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أى: عليم بما فى قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليه.

٢٤ - نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

هؤلاء الكفار يتمتعون فى الحياة الدنيا بما يستمتع به الكافر من زينة الدنيا وبهجتها، لكنه فى الآخرة يلجأ لجوء المضطر إلى عذاب شديد أليم، يضّيق عليه فى جهنم، وإذا شاهد ألوان العذاب والضيق، رأي أنه لم ير نعيما قط فى الدنيا، بالنسبة لما هو فيه من ألوان العذاب.

قال تعالى: مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ . (يونس: ٧٠).

وقد عبر القرآن عن متاع الدنيا بأنه قليل، لأن الآخرة هى الحياة الحقيقية البرزخية الأبدية.

قال تعالى: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . (النساء: ٧٧).

وقال سبحانه وتعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . (الأعلى: ١٦، ١٧).

وفى الحديث النبوى الشريف: «إذا دخل المؤمن الجنة، قال الله تعالى له: يا عبدى هل رأيت بُؤْسًا قط، فيقول: لا يا ربّ ما رأيت بؤسًا قطّ، وإذا دخل الكافر جهنم، قال له الله تعالى: يا عبدى هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا يا ربّ لم أر نعيمًا قط» (٤٤).

فالكافر من هول ما يرى من العذاب الغليظ، يهون ويضعف ويذهب فى سبيل البعد عنه كل نعيم، فيقول: يا رب لم أر نعيما قط، بجوار ما أنا فيه من العذاب.

قال تعالى: وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . (العنكبوت: ٦٤).

أى أن الحياة الحقيقية الأبدية السرمدية هى حياة الآخرة.

★ ★ ★

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير:

٢٥ - وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

اقسم حقا أنك يا محمد إذا سألت هؤلاء المشركين: من الذى خلق السماوات والأرض؟ فإن أجابتهم ستكون: خلقهن الله.

فهذه السماء المرفوعة الممتدة العالية، لا يرفعها ولا يمسكها غير الله، وهذه الأرض المبسوطة الممتدة الواسعة الأطراف طولا وعرضا، لا يحفظها غير الله، والفطرة السليمة تشهد بأن هذا الخلق البديع المنظم لا يقدر على خلقه غير الله، ولم يدَّع أحد أنه خلق السماوات والأرض، ولابد لهما من خالق، لأن كل مخلوق لابد له من خالق، ولن يكون هذا الخالق إلا الله.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّه . . .

الحمد لله الخالق القادر، الحمد لله الذى أودع فى فطرة الإنسان الاعتراف بالحق، وبالعظمة والقدرة لله، والحمد لله على كلِّ حال.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

أى: أكثر المشركين لا يعلمون من له الحمد، ومن له الخلق والأمر، ومن يستحق العبادة، ومن ثمّ يجادلون ويجهلون منطق الفطرة ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم.

٢٦ – لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

الله تعالى له ما فى السماوات من أملاك وأفلاك، وأبراج وشموس وأقمار وغير ذلك، وله ما فى الأرض من خلق وشجر ونهر، وبحر وجبل وسهل وغير ذلك، له سبحانه ما فيهما ملكا وخلقا وتصرفا، وليس ذلك لأحد سواه، فلا يستحق العبادة فيهما غيره، إن الله تعالى هو، الْغَنِيُّ . عن جميع خلقه، الْحَمِيدُ. المحمود على سائر صفاته وألطافه وإنعامه.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر: ١٥).

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

التفسير:

٢٧ – وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

تدل الآية على سعة علم الله تعالى، فكمالاته تعالى لا تحدُّ، وقدرته وعلمه وإرادته وسائر صفاته لا حدود لها.

ويضرب القرآن مثالا محسوسًا، حيث كانت الناس تكتب بأقلام البوص، وتملأ الدواة أو الزجاجة بالحبر لكتاباتها المحدودة، فأفاد القرآن أن جميع ما فى الأرض من أشجار لو تحولّت إلى أقلام، والبحر تحوّل إلى مداد، لتكتب كلمات الله وآياته ومعلوماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله، ولو جئنا لهذا البحر بسبعة أبحر مثله، وتحولت البحور إلى مداد لتكتب آيات الله وكلماته، فستنفد البحور كلها قبل أن تنفد كلمات الله وآياته.

إن الله عَزِيزٌ. غالب مقتدر، حَكِيمٌ . فى تصرفاته فلا يخرج عن الحكمة ما يتكلم به.

وفى معنى الآية يقول الله تعالى: قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا . (الكهف: ١٠٩).

وقد ذكر ابن كثير وغيره أن سبب نزول هذه الآية ما يأتى:

قال المشركون: إنما هذا الكلام الذى يأتى به محمد يوشك أن ينفد، فقال تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ...

وعن ابن عباس: أن أحبار يهود قالوا للنبى ﷺ: أرأيت قولك: وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً . (الإسراء: ٨٥) . إيانا تريد أم قومك؟ فقال ﷺ: «كلا عنيت»، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء؟ فقال ﷺ: «إنها فى علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم»، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: وَلَوْ أَنَّما فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ... أ هـ.

قال العلماء: والمراد بالآية الإعلام بكثرة معانى كلمات الله، وهى غير متناهية فى نفسها، وإنما قرب الأمر بهذا المثال لأفهام البشر بما يتناهى؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور ...

قال الآلوسى: والمراد بكلمات الله تعالى، كلمات علمه سبحانه وحكمته.

وقيل: المراد بها: مقدوراته، وعجائب خلقه، والتى إذا أراد سبحانه شيئا منها، قال له كن فيكون. أ هـ .

وفى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ما يأتى:

ليس المراد بذكر العدد فى قوله: سَبْعَةُ أَبْحُرٍ . خصوص العدد، وإنما المراد الكثرة، واختير عدد سبعة بخصوصه من بين الأعداد، لأن كثيرا من المعدودات التى لها شأن سبع، كالسماوات، والكواكب السيارة، وأيام الأسبوع، إلى غير ذلك. أ هـ.

ومما يستحق التأمل أننا الآن فى عام ١٤٢١ هـ بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم، وقد كتب فى تفسير القرآن الكريم أكثر من ثلاثة آلاف تفسير، فضلا عن كتب علوم القرآن وبلاغته وإعرابه وإعجازه، وما يتصل به من دراسات متعددة، ولا يزال القرآن الكريم مصدر هداية وإعجاز وإرشاد، ومع تقدم العلوم والتقنية، فإن هذا التقدم العلمى، لم يصطدم بأى حقيقة علمية ذكرت فى القرآن، بل إن العلم الحق أصبح يؤكد ويؤيد ويتناسق مع ما ذكره القرآن.

وفى كتاب: «التوراة، والإنجيل، والقرآن فى ضوء العلم»، للمستشرق موريس بوكاى ما يفيد الآتى:

تكلمت التوراة عن بدء الخليقة، وعن أمور تاريخية وعلمية، واصطدمت أخبار التوراة بحقائق العلم، وكذلك الأناجيل، لكن القرآن تكلم عن خلق الكون، وخلق آدم ومراحل تكون الجنين فى بطن أمّه، وانتهاء إحساس الجلد بالعذاب بعد احتراقه، وأهمية الحديد والصلب فى الصناعة والعلم، وتنوع الاختراعات والابتكارات فى آفاق العلم، وفى آفاق النفس، وتطور وسائل المواصلات، ونقص الأوكسجين فى طبقات الجو العليا، واضطراب الكون عند نهاية الدنيا، وتحوّل الشمس إلى ما يشبه النجوم القزمة، وتسيير الجبال، وتشقق السماء وانطماس ضوء النجوم، وانمحاق الشمس والقمر، وتبديل الأرض والسماوات، وغير ذلك من الحقائق التى أيدها العلم، ولا يزيدها التقدم العلمى إلا تأييدا وتصديقا، مما يؤيد أن القرآن هو حقا كتاب الله، وأنه معجز، خصوصا أنه نزل على نبى أمىّ، خلال القرن السادس الميلادى، ولم تكن اكتشفت حقائق علمية كثيرة عرفت فيما بعد.

فالدورة الدموية مثلا يعتبرها العلماء من ابتكار هارفى فى القرن العاشر الميلادى، وهذه الحقيقة جاءت على لسان نبى أمِّى فى قول القرآن الكريم: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ . (النحل: ٦٦).

وكذلك قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت: ٥٣).

والخلاصة: القرآن كلام الله حقا، ومعانيه وآدابه وأحكامه وتشريعاته وهداياته، لا نهاية لفضلها وبركتها.

كما قال سبحانه: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٢٨ – مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

قدرة الله لا حدود لها فهو على كل شىء قدير، وخلق الخلائق جميعا من أول آدم إلى قيام الساعة هين على الله تعالى كخلق نفس واحدة، وبعث جميع الخلائق وإخراجهم من قبورهم، وإعادة الحياة إليهم للحساب والجزاء هين على الله تعالى، كبعث نفس واحدة، لأن الله على كل شىء قدير، فهو يصدر الأمر مرة واحدة لا يكرره.

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس: ٨٢).

وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم: ٢٧).

قال ابن كثير:

أى: ما خلق جميع الناس، وبعثهم يوم الميعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه.

قال تعالى: وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . (القمر: ٥٠).

أى: لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشىء، لا يحتاج إلى تكراره وتوكيده.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

أى: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة.

ولهذا قال تعالى: مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

★ ★ ★

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

المفردات:

يولج الليل: يدخل الليل، والمراد: أنه يضيف الليل إلى النهار، والعكس بالعكس، فيتفاوت بذلك حال أحدهما زيادة ونقصانا.

سخر: سير وذلل.

كل يجرى: كل يسير سيرًا سريعًا.

إلى أجل مسمّى: قيل: هو يوم القيامة، وقيل: هو منتهى دورتهما.

بنعمة الله: بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما.

غشيهم: غطاهم وأحاط بهم.

كالظلل: الظلل: جمع ظلة، وهو ما يستظل به من جبل وسحاب وغيرهما، وقال الراغب: الظلل: السحابة تظلّ.

مقتصد: سالك للقصد السويّ من التوحيد.

ختّار: شديد الغدر والختر، قال عمرو بن معد يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

تمهيد:

تعدد الآيات جانبا من دلائل القدرة الإلهية، والنعم المتعددة من الله على عباده، ومن هذه النعم ما يأتى:

١ - زيادة الليل فى الشتاء والنهار فى الصيف، وتسخير الشمس والقمر طلوعا وأفولا.

٢ - الله هو الحق، والأصنام والأوثان باطل.

٣ - السفن تسير فى البحر، تحمل نعم الله من القمح والشعير والأغذية، والفواكه والملابس وسائر الأمتعة، ليستفيد من ذلك المُصَدِّر والمستورد.

٤ - راكب البحر يتعرض لهياج البحر، فيخلص فى الدعاء، فإذا هدأ البحر ووصل إلى اليابسة، فالناس قسمان: مؤمن شاكر، وكافر جاحد.

التفسير:

٢٩ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

ألم تنظر أيها العاقل، أو يا كلّ من يتأتى منه النظر، أن الله يطيل الليل فى الشتاء، فيأخذ الليل من ساعات النهار، تدريجيا حتى يصل الليل إلى أربع عشرة ساعة، ثم يقصر الليل تدريجيا، حتى يصل فى الصيف إلى عشر ساعات، والنهار إلى أربع عشرة ساعة، وقد ذلل الشمس والقمر، وخلقهما مسخرين، تطلع الشمس فى ميعادها، تملأ الكون بأشعتها، وتنير للمخلوقين، وتمدّ الكون بالضوء والحرارة، ويستفيد منها الإنسان والحيوان والنبات، والفضاء والهواء والأفلاك والأقمار، وقد سخر الله القمر فيبدأ هلالاً صغيرا، ثم يكبر تدريجيا حتى يصبح بدرًا كاملا، ثم يتناقص فيرجع صغيرا كما بدأ، وإذا انتهى أمر الدنيا انعدم ضوء الشمس، وانعدم ضوء القمر، فالشمس والقمر نيِّران مسخران إلى أمد محدد، هو يوم القيامة، أو نهاية عمرهما حيث تصبح الشمس من النجوم القزمة.

قال تعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ . (التكوير: ١ ، ٢).

أى: إذا انتهت وظيفة الشمس والنجوم، قامت القيامة وبدأ الحساب والجزاء.

وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فهو سبحانه مطلع وشاهد، يرى كل شىء، لا تخفى عليه خافية، وسيحاسب الإنسان على عمله، ويجازيه عليه جزاء السميع البصير الخبير.

٣٠ - ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

ما تراه من أثر القدرة الإلهية فى الخلق والمراقبة والإيجاد والعدم، واختصاص البارى سبحانه وحده بذلك، ثابت بسبب أن الله وحده هو المتحقق فى ذاته، وفى جميع صفاته، والكمالات اللائقة بربوبيته، فهو سبحانه الحقيقة الأبدية، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شىء عليم، هو سبحانه حى لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكل ما نراه متغير و فانٍ، والله وحده الدائم الباقى.

قال تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ . (الرحمن: ٢٦، ٢٧).

فما يعبد الناس من أصنام وأبقار وأشجار، وآلهة متعددة، باطل ليس له حقيقة الألوهية، فلا إله إلا الله، وأن الله سبحانه هو العلى الكبير، المتعالى على جميع الأشياء، الكبير عن أن يتصف بنقص، أو أن يكون له شريك.

٣١ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

من شأن القرآن أن يلفت أنظار الناس، وأن يرشدهم إلى أنعم الله حولهم، فقد سبق أن لفت نظرهم، إلى ما فى السماء، من تسخير الشمس والقمر، والليل والنهار، وفى هذه الآية يلفت النظر، إلى أنعم الله فى الأرض والبحر، فالفلك والسفن تجرى فوق سطح الماء، وتحركها الرياح التى سخرها العليم القدير، فأنعم الله تحركها، وهى فى نفس الوقت تحمل التجارة والطعام، والفواكه والأرزاق، من بلد إلى آخر فيستفيد المصدِّر والمستورد، ويربح التاجر ويستفيد الناس، وفى هذه النعم دلائل بينات، لكل صبار كثير الصبر على البأساء، شكور كثير الشكر على النعماء.

فالصبر نصف الإيمان، ومن دلائل الإيمان الصبر على البأساء، والشكر على النعماء، والرضا بالقضاء.

وراكب البحر إذا كان مؤمنا صبر على الأنواء والرياح العاتية، منتظرًا الفرج، فإذا سارت الريح رخاء وهدأ الموج شكر الله تعالى على أنعمه، فهو الجدير بأن يرى آيات الله أمامه، متمثلة فى أنعمه العديدة، فيصبر على الشدائد، ويشكر الله على النعم المتعددة، كما قال تعالى:

لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

وقال سبحانه وتعالى: لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ . (إبراهيم: ٧).

٣٢ - وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...

تصوّر هذه الآية طبيعة الإنسان، فهو فى الشدة والكرب يلجأ إلى الله لجوء المضطر، وعندما يكون فى البحر وتشتد الرياح، ويرتفع الموج ويظلل الناس من شدة ارتفاعه، كأنه غمامة فوق رءوسهم، فإنهم يستولى عليهم الهلع والجزع، ويخافون الموت، فيخلصون فى الدعاء لله تعالى أن ينجيهم من هذه الكارثة.

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

فإذا استجاب الله الدعاء، ونجاهم من البحر إلى البر، ووطئت أقدامهم اليابسة، وجدنا بعض الناس مستمرا على إيمانه وإخلاصه، فهو مقتصد مقيم على القصد، أى: الطريق السوىّ وهو التوحيد، باق على الإخلاص الذى كان عليه فى البحر عند الفزع.

كما نجد أن بعض الناس قد رجع إلى الغَدْر والكفر، فلا يذكر لله فضلا، ولا يشكر لله نعمة.

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

وما ينكر نعم الله وفضله، إلا كل غادر شديد الغدر، كفور شديد الكفر.

جاء فى تفسير القرطبى:

قال ابن عباس: مُقْتَصِدٌ . موف بما عاهد عليه الله فى البحر.

وقال النقّاش: يعنى عدلٌ فى العهد، وفىٌّ فى البرّ بما عاهد عليه الله فى البحر.

وقال الحسن: مُقْتَصِدٌ . مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة.

وقيل: فى الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصد، ومنهم كافر، ودلّ على المحذوف قوله تعالى:

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

الختار: الغدّار، والختر: أسوأ الغدر.

قال عمرو بن معد يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غَدْرٍ وخَتْرِ

قال الجوهرى: الختر: الغدر، يقال: ختره فهو ختار، وقال عطية: إنه الجاحد.

والخلاصة:

أن أنعم الله متعددة، ومن بين هذه النعم استجابة دعاء المضطرين، ونجاة المكروبين من قلب العاصفة، إلى البر والسلام والأمان، وبعد النجاة نجد المؤمن الشاكر، والختّار الشديد الغدر، والكفور الجاحد، الذى يجحد آيات الله وينكرها، بعد أن شاهدها بعينيه.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات:

اتقوا ربكم: خافوا عقابه.

واخشوا يوما: هو يوم القيامة.

لا يجزى: لا يُغنى ولا يقضى.

فلا تغرنكم: فلا تلهينكم ولا تخدعنكم.

الغَرور: الشيطان، أو ما غرّ الإنسان من مال وجاه، وشهوة وشيطان.

الساعة: القيامة.

الغيث: المطر.

ما فى الأرحام: ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله، ومستقبله وعمره ورزقه، وشقى أو سعيد.

وما تدرى: وما تعلم.

التفسير:

٣٣ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ.

فى ختام سورة لقمان يأتى هذا النداء الإلهى للناس أجمعين، يدعوهم للإيمان بالله ومراقبته وتقواه، أى خشيته والخوف من معصيته، والالتزام بطاعته، والخوف من الحساب والجزاء يوم القيامة، حيث يشتد الهول ويشيب الوليد، ويذهل الإنسان سكران من غير مسكر، فى ذلك اليوم تكون المسئولية فردية، ويتحمل كل إنسان جزاء عمله، فلا ينفع الأب ابنه، ولا يقضى عنه شيئا، وكذلك المولود لا ينفع أباه ولا يقضى عنه شيئا، فكل إنسان مرتهن بعمله، إن وعد الله تعالى بمجىء القيامة، ومحاسبة الناس حق، وصدق لا خلف فيه.

فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . .

بمشاغلها وأموالها، وما فيها من مناصب وجاه وسلطان، وتجارة وعمارة، يتنافس الناس فيها، فالعاقل من جعل الدنيا مزرعة الآخرة، واستثمر دنياه فى إعمار آخرته، فأقام الصلاة وآتى الزكاة، وأدّى الواجبات، واجتنب المنهيات.

وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ .

لا تغرنكم متع الدنيا، من الشباب والمال والجاه والشيطان.

قال الراغب: الغَرور كل ما يغرّ من مال وجاه وشهوة وشيطان.

وقال غيره: لا يغرنكم الشيطان بتزيين المعاصى، وتأخير التوبة، حتى يفاجئكم الموت.

قال فى ظلال القرآن:

وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ . من متاع يُلهى، أو شغل يُنسى، أو شيطان يوسوس فى الصدور، والشياطين كثير، الغرور بالمال شيطان، والغرور بالعلم شيطان، والغرور بالعُمْر شيطان، والغرور بالقوة شيطان، والغرور بالسلطان شيطان، ودفعة الهوى شيطان، ونزوة الشهوة شيطان، وتقوى الله وتصوُّر الآخرة هما العاصم من كل غرور.

٣٤ - إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

هذه الآية ختام سورة لقمان، وتعرض جانبا من مظاهر علم الله تعالى، فهو سبحانه علام الغيوب، وتذكر الآية خمسة أمور:

١ - إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . فهو سبحانه المستأثر بمعرفة يوم القيامة، لا يعلم ذلك ملك مقرب ولا نبى مرسل، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ... (الأعراف: ١٨٧).

ولعل حكمة ذلك أن يظل الإنسان مترقبا الموت، فقد يأتى فجأة فى ليل أو نهار، وفى الأثر : من مات فقد قامت قيامته.

٢ - وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ . فهو سبحانه الذى يرسل المطر فى وقته، بلا تقديم ولا تأخير، وفى بلد لا يتجاوزه إلى غيره، وبمقدار تقتضيه حكمته.

٣ - وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ . فهو سبحانه العليم بكل ما يتصل بهذا الجنين، من رزق وعمر، وهداية أو ضلال، وإن علم الإنسان ما يتصل بنوع الجنين من ذكورة أو أنوثة، فإنه لا يعلم شيئا عن مستقبله وأجله ورزقه وشقاوته أو سعادته.

٤ - وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا . لا يعلم الإنسان ماذا يكسب غدا من خير أو شر، ومن نفع أو ضر، ومن يسر أو عسر، ومن صحة أو مرض، ومن طاعة أو معصية، كل ذلك فى أمر الغيب، يعلمه علاّم الغيوب وحده، وشاءت حكمته أن يخفى ذلك، ليستمر تعلق الإنسان بربّه، ودعاؤه له وصلاته، فهو سبحانه يقول: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... (غافر: ٦٠).

٥ - ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾. أى: لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض، أفى بحر أم فى بر، أم فى سهل أم فى جبل.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

هو سبحانه عالم الغيب مطلع على الظاهر والباطن، محيط علمه بكل كبيرة وصغيرة، خبير بخفايا النفوس وبواطنها وظواهرها.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. (الأنعام: ٥٩).

فهذا العلم الشامل لكل ما فى الغيب، وللبر والبحر، وللأشجار والأوراق، وللورقة الساقطة من فوق الشجر، ولكل حبة فى ظلمات الأرض، وللأرض اليابسة والأرض التى غمرتها المياه، كل ذلك مسجل فى علم الله الذى لا يحول دونه حائل، من ليل أو نهار، أو أرض أو سماء، أو غائب أو شاهد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

روى البخارى، ومسلم، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ، قال: «مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت، إن الله عليم خبير»[٤٥].

وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة، أن رجلا يقال له: الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى ﷺ، فقال: يا محمد، متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدًا؟ وقد علمتُ بأى أرض ولدتُ، فبأى أرض أموت؟ فنزلت الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة لقمان

١ - القرآن هداية ورحمة للمؤمنين.

٢ - قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم، واتخذ آيات الله هزوا.

٣ - وصف العالم العلوى، والعالم السفلى، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله.

٤ - قصص لقمان، وإيتاؤه الحكمة، ثم نصائحه لابنه.

٥ - النعى على المشركين فى ركونهم إلى التقليد، إذا دعوا إلى النظر فى الكون وعبادة الله.

٦ - تعجيب الرسول من المشركين، حيث يقرون بأن الله هو الخالق لكل شىء، ثم هم يعبدون معه غيره ممن هو مخلوق مثلهم.

٧ - نعم الله ومخلوقاته لا حصر لها.

٨ - الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه، لنسترشد بذلك إلى وحدانية الصانع.

٩ - الأمر بالخوف من عقاب الله يوم لا يجزى والد عن ولده.

١٠ - مفاتيح الغيب الخمسة التى استأثر الله بعلمها.

١١ - إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات ظاهرها وباطنها.

★ ★ ★



تفسير سورة السجدة

أهداف سورة السجدة

سورة السجدة مكية، وآياتها ٣٠، نزلت بعد سورة غافر، وقد نزلت سورة السجدة فى المرحلة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة، إذ كان نزولها بعد الإسراء وقبيل الهجرة.

اسماء السورة:

لسورة السجدة ثلاثة أسماء:

الاسم الأول: سورة السجدة، لاشتمالها على سجدة التلاوة فى قوله تعالى: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . (السجدة: ١٥).

الاسم الثانى: سجدة لقمان [٤٦]، للتمييز عن حم السجدة، وهى سورة فصلت.

الاسم الثالث: المضاجع، لقوله تعالى: تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... (السجدة: ١٦).

مخاطبة القلوب

سورة السجدة نموذج متميز من نماذج الخطاب القرآنى للقلب البشرى، بالعقيدة الضخمة التى جاء القرآن ليوقظها فى الفطر، ويركزها فى القلوب، وهى عقيدة الدينونة لله الأحد، الفرد الصمد، خالق الكون والناس ومدبر السماوات والأرض وما بينهما، وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله، والتصديق برسالة محمد ﷺ، الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله، والاعتقاد بالبعث والقيامة، والحساب والجزاء.. هذه هى القضية التى تعالجها السورة، وهى القضية التى تعالجها سائر السور المكية، كل منها تعالجها بأسلوب خاص، ومؤثرات خاصة، تلتقى كلها فى أنها تخاطب القلب البشرى، خطاب العليم الخبير المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها، العارف بطبيعتها وتكوينها، وما يستكن فيها من مشاعر، وما يعتريها من تأثرات واستجابات فى جميع الأحوال والظروف.

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة، فهى تعرضها في آياتها الأولى، ثم تمضى بقيتها تقدم مؤثرات موقظة للقلب، منيرة للروح، مثيرة للتأمل والتدبر كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية، معروضة فى صفحة الكون ومشاهده، وفى نشأة الإنسان وأطواره، وفى مشهد من مشاهد اليوم الآخر حافل بالحياة والحركة، وفى مصارع الغابرين، وآثارهم القاطعة الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها.

«كذلك ترسم السورة صورا للنفوس المؤمنة فى خشوعها وتطلعها إلى ربها، وللنفوس الجاحدة فى عنادها ولجاجها، وتعرض صورًا للجزاء الذى يتلقاه هؤلاء وهؤلاء، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان، يشهده كل قارئ لهذا القرآن.

وفى كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشرى بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة، وإلى الخوف والخشية مرة، وإلى التطلع والرجاء مرة، وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد، وتارة بالإطماع وتارة بالإقناع .. ثم تدعه فى النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين، تدعه لنفسه يختار طريقه، وينتظر مصيره على علم، وعلى هدى، وعلى نور»(٤٧).

أفكار السورة ونظامها

تبدأ سورة السجدة بالحديث عن القرآن، وتبين أنه حق من عند الله، وتبين قدرة الله وعظمته، فهو خالق السماوات والأرض، وهو المهيمن على الكون، وهو المدبر للأمر كله، وهو الخالق للإنسان، الذى وهبه السمع والبصر والإدراك، والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون. وبذلك عالجت قضية الألوهية وصفتها: صفة الخلق، وصفة التدبير مذكورة فى سياق آيات الخلق والتكوين، وتستغرق هذه المجموعة بما فيها صفة الإحسان، وصفة الإنعام، وصفة العلم، وصفة الرحمة، تستغرق من أول السورة إلى الآية ٩ .

ثم تتحدث الآيات عن إنكار الكافرين للبعث والحساب، وتجيبهم بأن البعث حق، وتعرض مشهدا من مشاهد القيامة يقف فيه المجرمون أذلاء يعلنون يقينهم بالآخرة، ويقينهم بالحق الذي جاءتهم به الدعوة المحمدية.

وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب تعرض مشهد المؤمنين فى الدنيا وهم يعبدون الله، ويسجدون لعظمته، ويقومون الليل بالصلاة والعبادة، ثم تبشرهم بحسن الجزاء: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة: ١٧).

ثم تشير الآيات إلى أن منطق العدالة يأبى أن يستوى المؤمن والفاسق، فقد اختلفا فى العمل فى الدنيا، فيجب أن يختلف الجزاء فى الآخرة، فللمؤمنين جنات المأوى، وللفاسقين عذاب منوّع فى جهنم، وتستغرق هذه المجموعة الآيات من (١٠ - ٢٢).

وفى الآيات الأخيرة من السورة ترد إشارة إلى موسى عليه السلام، ووحدة رسالته ورسالة محمد ﷺ والمهتدين من قومه.

وتعقب هذه الإشارة جولة فى مصارع الغابرين من القرون وهم يمشون فى مساكنهم غافلين، ثم جولة فى الأرض الميتة ينزل عليها الماء بالحياة والنماء فيتقابل مشهد البلى ومشهد الحياة فى سطور، ويتساءل الكفار فى

استخفاف عن موعد يوم الفصل بين الفريقين، ويجيب القرآن بأنه إذا أتى يؤمنون بصدقه، فلا ينفعهم إيمانهم، ولا يمهلون ليستدركوا ما فاتهم.

وتختم السورة بتوجيه الخطاب للنبى ﷺ أن يعرض عنهم، وأن ينتظر ما يحل بهم من جزاء لعنادهم وكفرهم، قال تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ . (السجدة: ٢٨ - ٣٠).

وتختم السورة على هذا الإيقاع العميق، بعد تلك الإيحاءات والمشاهد والمؤثرات، وخطاب القلب البشرى بشتى الصور التى تأخذه من كل جانب، وتأخذ عليه كل طريق.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾﴾

المفردات:

الم: حروف للتحدى، والتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، أو هى كالجرس الذى يُقرع؛ فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة.

تنزيل الكتاب: أنزل القرآن.

لا ريب فيه: لاشك فيه.

افتراه: اختلقه من عند نفسه.

بل هو الحق: القرآن هو الحق الثابت المنزل من الله.

لتنذر: لتخوف وتحذّر.

ما أتاهم من نذير: إذ كانوا أهل الفترة، لعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

التفسير:

١ - الٓمٓ .

أحرف للتحدى وبيان إعجاز القرآن الكريم، فهو مؤلف من حروف عربية ينطقون بها، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر، ولكنه تنزيل من حكيم حميد.

وقيل: هى أدوات للتنبيه، وإثارة الاهتمام، كالجرس الذي يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة، فكذلك إذا قرعت أسماع العرب هذه الأحرف، التى لم يألفوا سماع أمثالها تنبهوا، فيقرأ القرآن عليهم ما بعدها من الآيات.

٢ - تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .

هذا القرآن الكريم، لاشك أنه منزل من عند الله رب العالمين، على رسوله محمد ﷺ، فليس سحرا ولا شعرا ولا كهانة، ولكنه كلام الله خالق الناس أجمعين.

٣ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

بل يقول كفار مكة: محمد قد افترى القرآن واختلقه من عند نفسه، وادعى أنه وحى من السماء وما هو بوحى.

بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ . . .

القرآن حق من عند الله خالق الكون، والقرآن تشريع إلهى عادل، لا تضارب فيه ولا تناقض، بل هو تشريع عادل منصف، يخاطب الفطرة الإلهية، ويواجه الناس أجمعين، الأمى والمتعلم، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فهو هداية السماء، وحقيقة الوحى، أنزله الله رب العالمين.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

أرسل الله محمدًا ﷺ إلى العرب خاصة، وإلى الناس عامة، وكانت رسالة إسماعيل عليه السلام إلى جرهم من العرب العاربة، ومرت فترة طويلة بين إسماعيل ومحمد ﷺ، فلم يرسل رسول فى هذه الفترة إلى قريش، ولا إلى آبائهم الأقربين، وقريش من العرب المستعربة التى هى من نسل إسماعيل وجرهم، وكان محمد ﷺ أول رسول إلى قريش، ولا يعرف التاريخ رسولا بين إسماعيل عليه السلام جد العرب الأول، وبين محمد ﷺ، وقد أنزل عليه القرآن الكريم لينذرهم به.

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . إلى شرع الله والإيمان به وباليوم الآخر.

★ ★ ★

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾

المفردات:

فى ستة أيام: فى ست مراحل من مراحل الخلق والتكوين، تقدر عند العلماء بـ ٦ مليارات سنة، ولم تكن مثل أيام الدنيا، حيث لم يكن فى ذلك الوقت شمس أو قمر.

ثم استوى: ثم استولى.

على العرش: العرش أعظم المخلوقات، وهو لغة: سرير الملك، والمقصود: قام وحده بملك كل شىء، وتدبير سماواته وأرضه بعد خلقهما.

من ولى ولا شفيع: من ناصر ينصركم، ولا وسيط يشفع لكم.

يدبر الأمر: يدبر أمر الدنيا مدة بقائها، على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة.

التفسير:

٤ - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ .

الله تعالى هو الذى خلق السماوات وما فيها من أفلاك وأبراج وأملاك، وشموس وأقمار ونظام بديع، مرت عليه ملايين السنين، دون أن يصيبه خلل أو اضطراب، وكذلك خلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار، وليل ونهار، ورياح وفضاء وهواء.

وَمَا بَيْنَهُمَا ... من فضاء وهواء وكائنات لا يحيط بحقائقها إلا الله الواحد القهار .

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... فى ست مراحل من مراحل الخلق والتكوين، حيث كان الكون كرة ملتهبة، مرت بها مراحل متعددة، لتنفصل السماء وترتفع، وتنفصل الأرض وتنبسط، ويكون بينهما خلق وسيط من الفضاء والهواء، وقد مرت ستة بلايين سنة على خلق هذا الكون حتى صار صالحا للحياة [٤٨].

قال فى ظلال القرآن:

تلك الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السماوات والأرض وما بينهما، حتى انتهت إلى ما هى عليه، أو ست مراحل فى النشأة والتكوين، أو ستة أدهار، لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله.

وهى على أية حال شىء آخر غير الأيام الأرضية، التى تعارف عليها أبناء الفناء، فلنأخذها كما هى، غيبا من غيب الله، لاسبيل إلى معرفته على وجه التحديد.

إنما يقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير فى الخلق، وفق حكمة الله وعلمه، وإحسانه لكل شيء خلقه، فى الزمن والمراحل والأطوار المقدرة لهذا الخلق العظيم.

ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ...

ثم استولى على ملك الأشياء، ودبّر ملكه بعد تمام خلقه، لم يعنه فى ذلك أحد، ولم يحتج إلى نصير أو شريك، فقدِّروا قدرته، واشكروا نعمته.

مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ...

إنه سبحانه وتعالى المالك للكون والمدبر له، وهو الإله الواحد، فاقصدوه واعبدوه، فمن ترك عبادته لا ينفعه ناصر ينصره، ولا وسيط يشفع له، أو يدفع عنه عذابه، أو يجيره من بأسه.

أفلا تتذكَّرون .

وتذكّر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الإقرار بالله، والاتجاه إليه وحده دون سواه.

٥ - يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

يدبر أمر الكون كله فى العالم العلوى والسفلى، ثم يصعد إليه أثر الأمر وتنفيذه بواسطة الملائكة، وهذا تمثيل لعظمة الله، وامتثال المخلوقات جميعا لمراده وتدبيره، كالحاكم المطلق الذى يصدر أوامره، ثم يتلقى من أعوانه ما يدل على تنفيذها.

قال الألوسى:

والمراد بعروج الأمر إليه بعد تدبيره - سبحانه - وصول خبر وجوده بالفعل كما دبر، إظهارا لكمال عظمته وعظيم سلطانه، وذلك كعرض الملائكة عليه أعمال العباد الوارد فى الأخبار. أ هـ. (باختصار).

وفى تفسير القرطبى ما يأتى:

وقال ابن عباس: المعنى كان مقداره لو سار غير الملك ألف سنة، لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة. وروى ذلك عن جماعة من المفسرين، وهو اختيار الطبرى، ذكره المهدوى...

والمعنى: أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة فى يوم من أيامكم، ذكره الزمخشرى.

وقيل: معنى: فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

ترفع الأُمُور الحاصلة فى الدنيا صغيرها وكبيرها إلى الله تعالى يوم القيامة ليفصل فيها، ويحكم فى شأنها، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، التى نعدّها فى هذه الحياة.

والمراد من الألف: الزمن المتطاول الذى هو فى لغة العرب أقصى نهاية العدد.

وفى موضع آخر وصف الله تعالى مقدار هذا اليوم بخمسين ألف سنة، قال تعالى: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج: ٤).

قال القرطبى: المعنى أن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة، قاله ابن عباس، والعرب تصف أيام المكروه بالطول، وأيام السرور بالقصر، قال شاعرهم:

ويوم كظل الرمح قصّر طوله … دم الزقّ عنا واصطفاق المزاهر

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام، فمنه ما مقداره ألف سنة، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة [٤٩].

من تفسير ابن كثير:

يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ . . .

أى: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ . . . (الطلاق: ١٢).

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد والضحاك: النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها فى طرفة عين، ولهذا قال تعالى: فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ . أ هـ.

أى: فى يوم عظيم، هو يوم القيامة، طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله.

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ﴾

المفردات:

الغيب: ما غاب عن الخلق وخفى.

الشهادة: ما شاهدوه ورأوه.

العزيز: المنيع فى ملكه.

الرحيم: بأهل طاعته، وفيه إشارة إلى أنه تعالى يراعى مصالح الناس تفضلا وإحسانا.

أحسن: أتقن ونظّم وجمّل وأبدع.

الإنسان: آدم.

نسله: ذريته.

سلالة: نطفة، وسلالة الشىء ما استل منه.

مهين: ضعيف، وهو النطفة، أو متبذل لا يعتنى به.

سواه: قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغى وأتمّه.

ضللنا فى الأرض: خفينا وتحللت فيها أجزاؤنا.

التفسير:

٦ - ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

ذلك المدبّر لهذا الكون، هو سبحانه العالم بجميع الأشياء، ما غاب منها وما حضر، وهو الخالق المسيطر المدبر، وهو العزيز القوى القادر الفعال لما يريد، الرحيم بالمؤمنين الطائعين فإنه يشملهم برحمته فى الدنيا والآخرة.

٧ - الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ .

لقد أتقن وأبدع كل شىء خلقه فى هذا الكون، فالطير فى الهواء، والسمك فى الماء، والشمس والقمر والليل والنهار، والهوام والنبات والإنسان، بل حتى العين والأنف والأذن واللهاة والأصابع، والأجهزة المتعددة فى جسم الإنسان مثل: الجهاز الهضمى، والجهاز العصبى، والجهاز اللمفاوى، كل شىء خلقه الله آية فى الإبداع والجمال، وأداء الوظيفة التى يؤديها، فهو سبحانه بديع السماوات والأرض.

قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

وقال سبحانه وتعالى:

وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ . (الذاريات: ٢٠ - ٢٣) .

فآيات الإبداع والجمال والإتقان ظاهرة فى كل شىء، فى السماء والأرض، والإنسان والحيوان والنبات، والدنيا والآخرة، كل ذلك بيد الله: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ... أى: أتقن وأبدع الخلق لكلّ مخلوقاته.

«انظر .. هذه النحلة، هذه الزهرة، هذه النجمة، هذا الليل، هذا الصبح، هذه الظلال، هذه السّحب، هذه الموسيقى السارية فى الوجود كله، هذا التناسق الذى لا عوج فيه ولا فطور»(٥٠).

كل ذلك بيد الخالق المبدع، قال تعالى: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً . (الفرقان: ٢).

وقال تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ...﴾ (الملك: ٣) .

فسبحان الله، والحمد لله على جليل نعمائه وهدايته، الذى خلق وأبدع، وقدم الهداية للإنسان ليتأمل فى هذا الكون البديع، وفى نفسه وخلقه.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ .

وبدأ خلق آدم أبى البشر من طين، والطين مكوّن من ماء وتراب.

وعند التأمّل نجد أن القرآن الكريم تحدّث عن خلق الإنسان من تراب ومن طين، ومن سلالة ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وكلها مراحل مرّ بها خلق الإنسان، حيث كان ترابا، ثم خلط بالماء فتحول إلى طين، ثم ترك الطين فترة فتحول إلى حمأ مسنون، ثم تحوّل إلى صلصال كالفخار، ثم نفخت فيه الروح.

٨ - ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ .

ثم جعل ذرية الإنسان يتناسلون من امتزاج نطفة الرجل بماء المرأة الذى فيه البويضة، التى تتلقح بنطفة الرجل، فيتم التوالد والتناسل، وبقاء النوع الإنسانى من خلاصة ماء ضعيف، ممتهن عادة وهو المنىّ.

٩ - ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .

أتم الله خلق الإنسان وتسوية أعضائه، وتحول فى بطن أمّه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام، ثم كسا الله العظام لحما، ثم نفخ الله فيه الروح، وجعل الله له السمع ليسمع، والبصر ليبصر، والفؤاد ليفهم ويفقه، وأنعم عليه بأجل النعم، بيد أن الإنسان قليلا ما يشكر ربّه على هذه النعم الجليلة، بل كثيرا ما يقابل ذلك بالكنود والكفر.

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ . (سبأ: ١٣).

١٠ - ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ .

أى: إذا دفنّا فى الأرض وتحولنا إلى لحم ودم ورفات وعظام بالية تختلط بتراب الأرض، وغبنا فيها وامتزجنا بأجزائها، بدون تمييز بيننا وبين ترابها، أنجمع مرة أخرى ونبعث من جديد، فما أبعد الخلق والحياة مرة أخرى، بعد أن يصبح الإنسان ترابا باليا غائبا فى الأرض.

بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .

إنهم نظروا إلى قدرتهم المحدودة، وقاسوا عليها قدرة الله، وهو سبحانه يقول للشىء كن فيكون، وهو سبحانه على كل شىء قدير، فهو سبحانه قادر على إحيائهم، وبعث الحياة فيهم كما خلقهم أول مرة.

إنهم أنكروا البعث والحشر، والحساب والجزاء والعقاب، فاستبعدوا الحياة بعد الموت، وأنكروا قدرة الله على البعث والحشر، بل اعتقدوا ما هو أشنع من ذلك حيث كفروا باليوم الآخر.

وفى معنى هذه الآية، قال القرآن الكريم:

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس: ٧٨، ٧٩).

وقال سبحانه وتعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ... (الأنبياء: ١٠٤) .

وقال القرطبى:

بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .

أى: ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى.

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات:

يتوفاكم: يقبض أرواحكم، يقال: توفاه الله، أى: استوفى روحه وقبضها.

ناكسو رءوسهم: خافضوها ومطأطئوها حياء وخزيا.

أبصرنا: ما وعدتنا من البعث.

وسمعنا: منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه.

فارجعنا: إلى الدنيا.

موقنون: الآن ولم يبق لنا شك.

هداها: رشدها وتوفيقها إلى الإيمان.

حق القول منى: ثبت قضائى وسبق.

الجنة: الجن.

بما نسيتم: بما تركتم لقاء اليوم الآخر وذكره، فالنسيان مشترك بين الغفلة والترك العمد.

نسيناكم: تركناكم فى العذاب ترك المنسى.

التفسير:

١١ - قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

أى: قل للمشركين يا محمد: إن ملك الموت الموكّل بقبض أرواحكم سيقبضها فى الوقت المحدد لانتهاء الأجل.

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

بالبعث والحساب والجزاء، وهو تهديد لهم ووعيد.

ونلحظ أن الله تعالى أضاف الموت إلى الملائكة، فقال: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . (الأنعام: ٦١).

وأضافه إلى ملك الموت فى هذه الآية، فقال: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ...

قال القرطبى: واسمه عزرائيل، ومعناه عبد الله، وتصرفّه كله بأمر الله تعالى، فهو سبحانه الفاعل حقيقة لكل فعل، قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ... (الزمر: ٤٢).

وقال تعالى: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ... (غافر: ٦٨).

وقال تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... (الملك: ٢).

فملك الموت يقبض، والأعوان يعالجون، والله تعالى يزهق الروح، وهذا هو الجمع بين الآى والأحاديث.

وروى عن مجاهد: أن الدنيا بين يدى ملك الموت، كالطست بين يدى الإنسان، يأخذ من حيث شاء. وقد روى هذا المعنى مرفوعًا.

وروى أن ملك الموت لما وكّله الله تعالى بقبض الأرواح، قال: رب جعلتنى أذكر بسوء، ويشتمنى بنو آدم، فقال الله تعالى: إنى أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام، ينسبون الموت إليها، فلا يذكرك أحد إلا بخير.

وروى أن ملك الموت يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب [٥١].

١٢ - وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ .

ولو ترى يا محمد، والخطاب له والمراد أمته، أو كلُّ من يتأتى منه الرؤية من المخاطبين، والقرآن هنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة حاضرا، حيث يشاهد هؤلاء المجرمون المكذِّبون بالبعث، وقد حشروا يوم القيامة يعلوهم الخزى والخجل، حيث طأطأوا رءوسهم عند حساب ربهم وملكوته وتصرفه، وقد تبينوا الحقيقة وأيقنوا بصدق الرسل، وقالوا: يا ربنا، أبصرنا بأعيننا حقيقة البعث والجزاء، وسمعنا بآذاننا تصديقك للرسل فيما أرسلوا به، وأيقنّا بصدق البعث والحساب والجزاء، فارجعنا إلى الدنيا مرة أخرى لنعمل عملا صالحا، بعد هذا اليقين والتأكد من صدق البعث والجزاء.

١٣ - وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

لو شاء الله لمنح كل نفس تقواها وإيمانها، لكنه ميز الإنسان بالعقل والإرادة والاختيار، وهداه النجدين وبيّن له الطريقين، وأرسل له الرسل، وأنزل الكتب، وبيّن له أدلة الإيمان فى هذا الكون ومخلوقاته، وحركات الليل والنهار، والنوم واليقظة، وشروق الشمس وطلوع القمر، وارتفاع السماء وانبساط الأرض، وخلق البر والبحر والهواء والفضاء، والنَّبات والرياح وسائر المخلوقات، كل هذه أدلة تأخذ بيد الإنسان إلى الإيمان، والهداية عن تبصّر وتفكر.

لكن الكافر أو الفاجر يرفض استخدام عقله وفكره ولُبّه، ويقاوم سُبل الهداية، ويصر على الكفر والفجور والكنود، وقد أقسم الحق سبحانه أن يملأ جهنم بالعصاة وأتباع إبليس، كما أن المؤمنين أهل لطاعة الله فى الدنيا ودخول جنته فى الآخرة.

جاء فى تفسير القاسمى ما يأتى:

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ... أى: تقواها.

وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ... أى: فى القضاء السابق.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . أى: سبق القول، حيث قال تعالى لإبليس عند قوله: وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (الحجر: ٣٩، ٤٠). فرد عليه سبحانه: قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص: ٨٤، ٨٥).

أى: فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم، بل منعناه عن أتباع إبليس، الذين هؤلاء من جملتهم، حيث صرفوا اختيارهم إلى الغىّ والفساد، ومشيئته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها، فلمّا

لم يختاروا الهدى، واختاروا الضلالة، لم يشأ إعطاء الهدى لهم، وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البارّة، فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى فى الحقيقة، سوء اختيارهم لا تحقق القول. أفاده أبو السعود [٥٢].

وفى تخصيص الجن والإنس، فى قوله تعالى: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . إشارة إلى أن الله عصم ملائكته من عمل يستوجبون به جهنم.

١٤ - فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

تصف الآية مشهدًا من مشاهد القيامة، حيث يقال للكافرين المعرضين عن الإيمان: ذوقوا وتعرضوا لآلام العذاب فى جهنم، بسبب أنكم أهملتم الاستعداد ليوم القيامة، ولم تقدموا له عملا ينفعكم فيه، فأهملتم هذا اليوم وعاملتموه معاملة الناسى له، المهمل لشأنه، وقد عاملهم الله بنفس عملهم وجازاهم من جنس سُلوكهم، فأهملهم وتركهم فى العذاب، وعاملهم معاملة الناسى لهم، والله تعالى لا ينسى شيئا، ولا يضلّ عنه شىء، ولكن قابل نسيانهم وإهمالهم ليوم القيامة، بإهمالهم وتركهم فى جهنم، وهذا ما يسمى بأسلوب المقابلة أو المشاكلة.

قال تعالى: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ... (الجاثية: ٣٤).

وقال تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ... (التوبة: ٦٧).

ويقال لهؤلاء الكفار توبيخا وتأكيدا:

وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى: اصلوا عذاب جهنم خالدين فيها أبدًا، جزاء كفركم وأعمالكم السيئة، ونلحظ هنا تكرار القول لهم، حيث قال لهم أولاً:

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ...

ثم كرر القول لهم للإشعار بأن سبب العذاب ليس مجرد ما ذكر من النسيان، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا.

فقال سبحانه: وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

ثم أسدل الستار على المشهد، وقد قيلت الكلمة الفاصلة فيه، وتُرك المجرمون لمصيرهم المهين.

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

ذكروا بها: وعظوا.

خروا سجدا: سقطوا ساجدين.

سبحوا بحمد ربهم: جمعوا بين التسبيح والحمد فى سجودهم، فقالوا: سبحان الله وبحمده، والتسبيح التنزيه.

تتجافى: ترتفع وتبتعد.

الجُنُوب: جمع جنب، وهو الشّق أو الجانب الأيمن أو الأيسر.

المضاجع: واحدها مضجع، وهو مكان النوم.

خوفا وطمعا: خوفا من عذابه، وطمعا فى ثوابه.

من قرة أعين: من شىء نفيس تقرّ به أعينهم وتسرّ.

تمهيد:

عقب الحديث عن جزاء الكافرين فى جهنم، تعرض الآيات مشهد المؤمنين الذين يستحقون أفضال الله ومنته فى الجنة، هؤلاء المؤمنون خاضعون ساجدون لله تعبدًا وطاعة وعدم تكبر، وهم فى ظلام الليل ورغبة الجسم فى النوم، يقاومون هذه الرغبة بالقيام والعبادة والتهجد، فاستحقوا النعيم الذى لا مثيل له من السعادة وقرة العين.

وفى معنى الآيات يقول عبد الله بن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

التفسير:

١٥ - إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ .

يقارن القرآن بين موقف المشركين وعذابهم، وموقف المؤمنين ونعيمهم، فقد تحدثت الآيات السابقة عن موقف الخزى والهوان والعذاب للمجرمين، وهنا تتحدث الآيات عن مشهد وضىء يتناول صفات المؤمنين، ومعنى الآية: إذا

امتنع المجرمون عن الإيمان، فإن للإيمان قومًا هداهم الله إليه، ومن صفاتهم أنهم إذا سمعوا آيات الله، أو وعظهم واعظ وذكرهم بأنعم الله، وقعوا على الأرض ساجدين لله، سجود عبادة خالصة، وجمعوا فى سجودهم بين التسبيح والحمد، أى قالوا: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لنا، حال كونهم متواضعين خاشعين لله، غير مستكبرين ولا ممتنعين عن السجود لله، والامتثال لأمره.

١٦ - تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

هؤلاء المؤمنون يصلُّون لله تعالى فى أوقات ينام فيها الآخرون، ويتلذذون بالرقاد، مثل الصلاة بين المغرب والعشاء، أو صلاة العشاء فى جماعة، والفجر فى جماعة، أو التهجد فى الثلث الأخير من الليل، وهو وقت غارت فيه النجوم، ونامت العيون، وبقى الله الواحد القيوم.

والمعنى: من صفات المؤمنين مناجاة ربهم بالليل، حين يحب الآخرون الرقاد، فإنهم يقومون لله عابدين، يهجرون المضجع والسرير والرقاد، ويتطهرون ويصلون لله خائفين من عذابه، طامعين فى رحمته.

فعقيدتهم سليمة، وعبادتهم وصلاتهم وخشوعهم ودعاؤهم لله، متحقق بصورة طيبة، وكذلك يؤدون زكاة أموالهم، ويتصدقون على الفقراء، وينفقون من كل ما أعطاهم الله، من العلم والجاه، والفتوح والتقوى والتجليات الإلهية.

من كتب التفسير:

حفلت كتب التفسير بطائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، فى فضل قيام الليل وثواب التهجد، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى تفسيرى القرطبى وابن كثير وغيرهما، كما نجد ذلك فى كتب السنّة المطهرة، وكتاب إحياء علوم الدين للغزالى، بتخريج الحافظ العراقى.

نماذج من الأحاديث النبوية الشريفة :

أخرج أحمد والترمذى، والنسائى، وابن ماجة، وابن جرير، والحاكم، وابن مردويه، عن معاذ بن جبل، قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر (٥٣)، فأصبحت قريبا منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبى الله، أخبرنى عما يدخلنى الجنة، ويباعدنى من النار، فقال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله تعالى عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل فى جوف الليل»، ثم قرأ: تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه» ؟ فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله» ؟ فقلت: بلى يا نبى الله. فأخذ بلسانه، ثم قال: «كفّ عليك هذا»، فقلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يكبّ الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» (٥٤).

وروى البخارى، ومسلم، والترمذى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ...﴾ (٥٥).

١٧ - ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أى: فلا يعلم أحد عظيم ما أخفى لهم، وخبِّئ لهم من ألوان النعيم، والرضا والقربى، جزاءً وفاقا بما كانوا يعملون، لقد أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

أخرج الفرّيابى، وابن أبى شيبة، وابن جرير، والطبرانى، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود، قال: إنه لمكتوب فى التوراة: لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلم ملك مقرب، ولا نبى مرسل، وإنه لفى القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ...﴾

وقال ابن عباس: الأمر فى هذا أجل وأعظم من أن يُعرف تفسيره.

قال القرطبى: وهذه الكرامة إنما هى لأعلى أهل الجنة منزلة (٥٦).

وجاء فى صحيح مسلم، عن المغيرة بن شعبة، يرفعه إلى رسول الله ﷺ، قال: «سأل موسى عليه السلام ربه، فقال: يا رب، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يأتى بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة، فيقول: أى ربّ، كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقال له: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك، فيقول: رضيت رب...» (٥٧).

وأخرج مسلم أيضا، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخْرًا بَلْهَ ما أطلعكم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ...﴾ (٥٨).

وقال ابن سيرين: المراد به: النظر إلى الله تعالى.

وقال الحسن: أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت (٥٩).

★ ★ ★

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات:

مؤمنا: مصدقا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فاسقا: كافرا خارجا من الإيمان وأحكام الشرع، فهو أعم من الكفر، وأصل الفسق ؛ الخروج ، يقال : فسقت الثمرة ، إذا خرجت من قشرها.

جنات المأوى: جنات المسكن الحقيقى، أما مساكن الدنيا فمرتحل عنها.

نزلا: ثوابا وجزاء وعطاء، وأصل النُزُل: ما يُعدّ للضيف من طعام وشراب ومبيت، ثم أطلق على كل عطاء.

فمأواهم النار: ملجؤهم ومنزلهم.

العذاب الأدنى: الأقرب والأقل، وهو عذاب الدنيا، مثل: القحط، والأسر، والقتل.

دون العذاب الأكبر: قبل عذاب الآخرة.

ثم أعرض عنها: فلم يتفكر فيها.

من المجرمين: ممن أذنبوا أو أشركوا.

تمهيد:

لما بيَّن مآل الكافرين والمؤمنين، عطف على ذلك سؤال العقلاء: هل يستوى الفريقان ؟ ثم بين أنهما لا يستويان، وأعقب ذلك ببيان جزاء المؤمنين، وعقوبة الفاسقين.

سبب النزول:

قال ابن عباس، وعطاء بن يسار: نزلت الآية الثامنة عشرة من سورة السجدة فى على بن أبى طالب والوليد بن عقبة بن أبى معيط، وذلك أنهما تلاحيا، فقال الوليد: أنا أبسط منك لسانا، وأحدّ سنانًا، وأملأ فى الكتيبة جسدًا، فقال له على: اسكت فإنك فاسق، فنزلت الآية.

وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت فى على وعقبة بن أبى معيط.

قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قتل فى طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر، وقد ناقش القرطبى سبب نزول الآية مناقشة عقلية طريفة (٦٠).

التفسير:

١٨ - أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ .

استفهام موجه لكل من يتأتى منه الخطاب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أى: أيستوى المؤمن الصالح المستقيم المطيع لربه، المؤمن برسوله، الملتزم بأصول دينه، والفاسق الذى خرج على هدى السماء، وكذّب بالرسول، واجترأ على معصية الله ؟!

لاَّ يَسْتَوُونَ .

أى: لم يستويا فى الدنيا، من ناحية العمل والسلوك والاعتقاد، فليس من المناسب أن يستويا فى الآخرة، من ناحية الجزاء والثواب والعقاب.

قال تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . (الجاثية: ٢١).

وقال تعالى: لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ . (الحشر: ٢٠).

وقال سبحانه وتعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (ص: ٢٨).

وتتلاقى هذه الآيات على تأكيد عدالة السماء ؛ وأن الله سبحانه وتعالى لا يسوّى فى الجزاء بين المؤمن المستقيم البارّ الذى يعمل الصالحات ، والفاسق المنحرف الذى يعمل السيئات ، لقد اختلفا فى العمل ، فوجب أن يختلفا فى الجزاء .

١٩ - أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أما الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحة فى الدنيا، فمآلهم وجزاؤهم ونزلهم فى جنات المأوى التى يقيمون فيها إقامة دائمة، وينزلون فيها منزلة الإعزاز والتكريم، جزاء بما قدموا فى الدنيا من عمل صالح.

٢٠ - وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ .

وأما الفاسقون الخارجون على أوامر الله، فمآلهم جهنم يضربهم لهيبها، وتقمعهم الملائكة بالعذاب.

قال الفضيل بن عياض:

والله إن الأيدى لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم، ويتمنى الكفار الخروج من النار، فتردهم الملائكة إلى جهنم فى حالة من الذل واليأس، وتقول لهم الملائكة على سبيل الزجر والتأنيب، وزيادة الحسرة فى قلوبهم:

ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ .

أى : تذوقوا وتحمَّلوا عذاب النار، الذى كذبتم به فى الدنيا، فإن الله أعدّه للمشركين به.

كما قال تعالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ... (الحج: ٢٢).

وكما قال تعالى: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ . (الزّخرف: ٧٧).

ثم بيّن أن عذاب الآخرة له مقدمات فى الدنيا، لأن الذنب مستوجب لنتائجه، عاجلا وآجلا، فقال سبحانه:

٢١ - وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

ولنبتلينهم بمصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، من المجاعات والقتل والأسر ونحو ذلك، عظة لهم، ليقلعوا عن ذنوبهم قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب يوم القيامة.

جاء فى تفسير القرطبى:

قال الحسن، وأبو العالية، والضحاك، وأبى بن كعب، وإبراهيم النخعى: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها، مما يبتلى به العبيد حتى يتوبوا .

وقال ابن مسعود، والحسين بن على، وعبد الله بن الحارث: هو القتل بالسيف يوم بدر.

وقال مقاتل، ومجاهد: الجوع سبع سنين بمكة، حتى أكلوا الجيف، ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذاب جهنم. أ هـ.

وقال القاسمى:

وَلَنُذِيقَنَّهُم . أى : أهل مكة، مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ . أى : عذاب الدنيا والجدب والقتل والأسر.

دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ . يعنى عذاب الآخرة.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . أى : يتوبون عن الكفر، ويرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى. أ هـ.

وقال النيسابورى:

ولم يقل : الأصغر ، فى مقابلة الأكبر، أو الأبعد فى مقابلة الأدنى، لأن المقصود هنا هو التخويف والتهديد، وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر، وبالكبر لا بالبعد.

٢٢ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ .

أى : لا أحد أشد ظلما ممن جاءت إليه الرسل والكتب والمواعظ، تذكره بآيات الله، وتدعوه للإيمان والإسلام، فأعرض واستكبر وظلم وأجرم، إن هذا المجرم الظالم أهل لانتقام الله وعذابه.

قال القرطبى:

وَمَنْ أَظْلَمُ . أى: لا أحد أظلم لنفسه.

مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ . أى : بحججه وعلاماته.

ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا . بترك القبول.

إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ . لتكذيبهم وإعراضهم . أ هـ.

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات:

الكتاب: التوراة.

فى مرية: فى شك.

من لقائه: من لقائك الكتاب مثله، كما قال تعالى: وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . (النمل: ٦).

وقيل : المقصود : من لقاء موسى الكتاب، أو من لقاء محمد بموسى، وقد التقيا ليلة الإسراء والمعراج.

أئمة: قادة يُقتدى بهم فى دينهم.

لما صبروا: على طاعة ربهم، وعلى البلاء فى الدنيا.

يوقنون: يصدقون، لإمعانهم النظر فيها.

التفسير:

٢٣ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ .

إنزال الكتب شأن إلهى، وكذلك إرسال الرسل، فلست يا محمد بدعًا من الرسل، فقد أرسلنا موسى بن عمران رسولا، وأنزلنا عليه التوراة كتابا، كما أرسلناك يا محمد، وأنزلنا عليك القرآن، فلا تكن فى شك من الوحى المنزل عليك.

قال القاسمى:

والمعنى: إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه من الوحى مثل ما لقيناك، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله.

ونهيه ﷺ عن الشك، المقصود به نهى أُمَّته، والتعريض بمن صدر عنه الشك فى القرآن الكريم.

وقيل : معنى الآية: آتينا موسى التوراة، فلا تكن فى مرية من لقاء موسى ليلة الإسراء والمعراج، فقد لقيه النبى ﷺ وتناقش معه، وفى صحيح البخارى : «ولقيت فى السماء السادسة موسى، ونعم الصاحب كان لكم».

لكن الزمخشرى فى تفسير الكشاف رجح الرأى الأول، حيث قال: والضمير فى : لقائه ، لموسى، ومعناه: إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله، ولقيت نظيره، كقوله تعالى: فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ... (يونس: ٩٤).

ورجح صاحب الظلال هذا الرأى، حيث قال :

وتفسير هذا العبارة المعترضة : فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ . على معنى تثبيت الرسول ﷺ على الحق الذى جاء به، وتقرير أنه الحق الواحد الثابت، الذى جاء به موسى فى كتابه، والذى يلتقى عليه الرسولان، ويلتقى عليه الكتابان، هذا التفسير أرجح عندى، مما أورده بعض المفسرين من أنها إشارة إلى لقاء النبى ﷺ لموسى عليه السلام فى ليلة الإسراء والمعراج، فإن اللقاء على الحق الثابت، والعقيدة الواحدة، هو الذى يستحق الذِّكر، والذى ينسلك فى سياق التثبيت، على ما يلقاه النبى ﷺ من التكذيب والإعراض، ويلقاه المسلمون من الشدة واللأواء، وكذلك هو الذى يتسق مع ما جاء بعده فى الآية: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ . للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك فى مكة، أن تصبر كما صبر المختارون من بنى إسرائيل، وتوقن كما أيقنوا، ليكون منهم أئمة للمسلمين، كما كان أولئك أئمة لبنى إسرائيل، ولتقرير طريق الإمامة والقيادة، وهو الصبر واليقين. أ هـ.

وقال الآلوسى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . أى : جنس الكتاب.

فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ . أى : شك، مِّن لِّقَائِهِ . أى : من لقائك ذلك الجنس.

وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ .

أى : وجعلنا الكتاب الذى أنزل على موسى وهو التوراة، هداية لبنى إسرائيل إلى طريق الحق والصواب.

٢٤ - وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة يقتدى بهم فى الدين، والإيمان والهداية، وكان ذلك بسبب صبرهم على عنت فرعون، وشدة تعلقهم بالتوراة وإيمانهم بها.

والآية توجيه لأتباع محمد ﷺ بالصبر على الحق، واليقين والإيمان بالوحى، فإن ذلك سبيل الإمامة والتفوق، وعز الدنيا وشرف الآخرة.

٢٥ - إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن الله تعالى يقضى ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كلا بما يستحق، أو إن ربك يقضى بين عباده فيما اختلفوا فيه من أمور الاعتقاد والدين والحساب، والثواب والعقاب، والأعمال، فيثيب المطيع بالجنة، ويعاقب العاصى بالنار.

قال فى التفسير المنير:

إن الله سبحانه هو القاضى العدل، والحاكم المطلق ، يُحقّ بين المؤمنين والكفار، فيجازى كلا بما يستحق، ويفصل بين المختلفين من أمة واحدة، كما يفصل بين المختلفين من الأمم.

★ ★ ★

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

المفردات:

أو لم يهد لهم: أو لم يتبين لكفار مكة.

كم أهلكنا: كثرة من أهلكنا قبلهم.

من القرون: من الأمم الماضية بسبب كفرهم.

أفلا يسمعون: سماع تدبر واتعاظ.

الأرض الجُرز: اليابسة التى لا نبات فيها، لأنه جرز نباتها، أى : قطع وأزيل.

ويقولون: للمؤمنين.

متى هذا الفتح: النصر، أو الفصل فى الحكم.

إن كنتم صادقين: فى الوعد به.

قل يوم الفتح: بإنزال العذاب بهم يوم القيامة.

ولا هم ينظرون: يمهلون لتوبة أو معذرة.

فأعرض عنهم: لا تبال بتكذيبهم.

وانتظر: النصرة أو إنزال العذاب بهم.

إنهم منتظرون: الغلبة عليك، أو الموت ، أو القتل.

التفسير:

٢٦ - أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ .

يلمس القرآن القلوب فى ختام السورة، ويرشد كفار مكة إلى دلائل القدرة، فيقول: أو لم يتبين لهم كثرة الأمم التى أهلكها الله عقابا لكفرها، كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط، وقوم شعيب، أنزل بهم العذاب فأهلكهم، وعرب الجزيرة كانوا يمرُّون على مساكن الهالكين، ويشاهدون بأعينهم، فهلا نظروا نظرة تبصّر، وهلا حركوا بصيرتهم ليتأملوا فى أن من أهلك الكافرين من الأمم السابقة، قادر على أن يهلك كفار مكة.

٢٧ - أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ .

أو لم يشاهدوا بأنفسهم قدرة الله وعظمته، فهو سبحانه يسوق السحاب، وينزل المطر على الأرض الجرز، وهى اليابسة التى لا نبات فيها لانقطاع الماء عنها، وبسبب هذا الماء تخضرُّ الأرض بالنَّبات، وتخرج أنواعا من الزروع، تستفيد بها الأنعام، كالكلأ والعشب والتبن، والبرسيم والبقول الخاصة بالأنعام ، كما تبرز الأرض من الحبوب والثمار والفاكهة والخضراوات، ما يفيد الإنسان نفسه.

أَفَلَا يُبْصِرُونَ . ذلك بأعينهم فيعتبرون ويتأملون فى فضل الله وإحسانه على عباده.

وفى معنى الآية ، قال تعالى:

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . (عبس: ٢٤ - ٣٢).

٢٨ - وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

تختم السورة بعرض مشهد من مشاهد الحرب الفكرية بين المشركين والمؤمنين، فقد كان كفار مكة يستهزئون بالمؤمنين، ويحاولون النيل من دين المؤمنين وعقيدتهم، فإذا قال المؤمنون لهم : إن هناك بعثًا وحشرًا وثوابا وعقابا، ويوما يفتح الله فيه بين المؤمنين والكافرين، أى : يحكم ويقضى بينهم، كما يحكم القاضى فى الدنيا بين المتخاصمين، وسمى القاضى فاتحا لأنه يفصل فى القضايا المغلقة فيفتح أمرها، ويفصل بين المظلوم والظالم.

ومعنى الآية :

يقول كفار مكة مستهزئين بالمؤمنين : متى يجىء يوم الفتح ويوم الفصل بيننا وبينكم إن كنتم صادقين؟ أو متى يوم النصر الذى تنصرون فيه علينا؟ يقولون ذلك استبعادًا لوقوع العذاب بهم، واستهانة بالمؤمنين، وبعقيدتهم وإيمانهم باليوم الآخر.

٢٩ - قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

أى : إذا جاء يوم النصر فى الدنيا، كيوم بدر أو فتح مكة، أو جاء يوم القيامة، فلن تقبل من الكفار توبة ولا إيمان، لأن ذلك لا يقبل إلاّ فى الدنيا.

والخلاصة :

إن جاء النصر يوم بدر فستقتلون ولا يقبل منكم الإيمان ولا ينفعكم ، لحيلولة القتل دون إيمانكم، وإذا كان يوم القيامة فسيحكم لكم بالنار، ولا تقبل منكم التوبة ولا الإيمان، لأنه جاء بعد فوات الأوان.

قال القاسمى:

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى:

أى : إذا حلّ بكم بأس الله وسخطه، وغضبه فى الدنيا والأخرى، لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون، كما قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ . (غافر : ٨٣ - ٨٥) .

ومن زعم أن المراد من هذا الفتح، فتح مكة، فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإنه فى يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريبا من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى :

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ...

وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ... (الشعراء: ١١٨).

وكقوله تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ . (سبأ: ٢٦).

وقال تعالى: وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . (إبراهيم: ١٥).

وقال تعالى: إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ... (الأنفال: ١٩).

٣٠ - فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ .

لقد أديت رسالتك، وبلّغت لهم دعوتك، وقابلوها بالرفض والاستهزاء، فوجب أن تمضى فى طريقك، داعيا إلى الله تعالى، مبشرا برسالتك قوما آخرين، معرضا عن هؤلاء الكافرين، منتظرًا ما ينزل بهم من الهزيمة فى الدنيا، والعقوبة فى الآخرة ، إنهم ينتظرون هلاكك، أو الانتصار عليك، ولكن الله تعالى سيخلف ظنهم، وينزل بهم عاقبة كفرهم وجحودهم، كقوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ . (الطور: ٣٠، ٣١).

وكقوله تعالى:

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . (التوبة: ٩٨).

قال القرطبى :

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ . قيل : معناه : فأعرض عن سفههم، ولا تجبهم إلا بما أُمرت به.

وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ .

أى : انتظر يوم الفتح، يوم يحكم الله لك عليهم. أ هـ.

من تفسير الفخر الرازي:

قوله تعالى: قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ .

أى : لا يُقبل إيمانهم فى تلك الحالة، لأن الإيمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا.

وَلا هُمْ يُنظَرُونَ . أى : ولا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا، فيقبل إيمانهم، ثم لما بيَّن المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم، قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ . أى : لا تناظرهم بعد ذلك، وإنما الطريق بعد هذا هو القتال.

وقوله تعالى: وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ . يحتمل وجوها: أحدها : وانتظر هلاكهم، فإنهم ينتظرون هلاكك، وعلى هذا فرق بين الانتظارين، لأن انتظار النبى ﷺ، بأمر الله تعالى بعد وعده، وانتظارهم بتسويل أنفسهم، والتعويل على الشيطان.

وثانيها : وانتظر النصر من الله، فإنهم ينتظرون النصر من آلهتهم، وفرق بين الانتظارين.

وثالثها : وَانتَظِرْ . عذابهم بنفسك، فإنهم ينتظرونه بأنفسهم استهزاء.

كما قالوا: فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا . . . (الأعراف: ٧٠).

وقالوا: مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . (النمل: ٧١).

إلى غير ذلك. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين [٦١].

★ ★ ★


تفسير سورة الأحزاب

أهداف سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية ، وآياتها ٧٣ آية ، نزلت بعد سورة آل عمران ، وتقع أحداث السورة فيما بين السنة الثانية والسنة الخامسة من الهجرة ، وهى فترة حرجة لم يكن عود المسلمين قد اشتد فيها ، إذ كانوا يتعرضون لدسائس المنافقين واليهود .

وسميت هذه السورة بهذا الاسم ، لذكر غزوة الأحزاب فيها ، فى قوله تعالى : يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ... (الأحزاب : ٢٠) .

أحداث السورة

تتناول سورة الأحزاب قطاعًا حقيقيًا من حياة الجماعة المسلمة ، فى فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى إلى ما قبل صلح الحديبية ، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى المدينة ، تصويرًا واقعيًا مباشرًا ، وهى مزدحمة بالأحداث التى تشير إليها خلال هذه الفترة ، والتنظيمات التى أنشأتها أو أقرتها فى المجتمع الإسلامى الناشئ .

ولهذه الفترة التى تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة فهى الفترة التى بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة ، ولم يتم استقرارها بعد ، ولا سيطرتها الكاملة ، كالذى تم بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجًا ، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية .

والسورة تتولى جانبًا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة ، وإبراز تلك الملامح ، وتثبيتها فى حياة الأسرة والجماعة ، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ، كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها وإخضاعها فى هذا كله للتصور الإسلامى الجديد ، وفى ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب وغزوة بنى قريظة ، ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، ودسائسهم فى وسط الجماعة المسلمة ، وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف ، كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين فى أخلاقهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال فى سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث ، هى علاقة هذه وتلك بموقف الكافرين والمنافقين واليهود ، وسعى هذه الفئات لإيقاع الاضطراب فى صفوف الجماعة المسلمة ، سواء عن طريق الهجوم الحربى ، والإرجاف فى الصفوف والدعوة إلى

الهزيمة ، أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية .. ثم ما نشأ فى أعقاب الغزوات والغنائم من آثار فى حياة الجماعة المسلمة ، تقتضى تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية ، ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة ، وتماسك سياقها ، وتناسق موضوعاتها المنوعة ، وهذا وذاك إلى جانب وحدة الزمن تربط بين الأحداث والتنظيمات التى تتناولها السورة .

فصول السورة

يمكن أن نقسم سورة الأحزاب إلى خمسة فصول ، يبدأ الفصل الأول منها بتوجيه الرسول ﷺ إلى تقوى الله ، وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين ، واتباع ما يوحى إليه ربه ، والتوكل عليه وحده .

وبعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية ، مبتدئا ببيان أن الإنسان لا يملك إلا قلبًا واحدًا ، ومن ثم يجب أن يتجه إلى إله واحد ، وأن يتبع نهجًا واحدًا . ولذلك يأخذ فى إبطال عادة الظهار ، وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه ، فتحرم عليه حرمة أمه ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أمًّا بهذا الكلام ، ثم من هذا إلى إبطال التبنى : وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ... (الأحزاب : ٤) .

والدعى هو المتبنى يدعى الإنسان بنوته ، وهو لا يصير ابنا بمجرد القول ، ثم يأمرهم أن يدعوا المتبنى إلى أبيه ، فإن ذلك أقسط وأعدل من دعوتهم لمن يتبنونهم .

ثم ينشئ الولاية العامة لرسول الله ﷺ على المؤمنين جميعًا ، كما ينشئ صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبى ﷺ والمؤمنين ، ويعقب على هذا التنظيم الجديد بالإشارة إلى أن ذلك مسطور فى كتاب الله القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة . على طريقة القرآن فى التعقيب على النظم والتشريعات والمبادئ والتوجيهات لتستقر فى الضمائر والنفوس ، ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٨ .

غزوتا الأحزاب وبنى قريظة

نجد الفصل الثانى من السورة ممتدا من الآية ٩ إلى الآية ٢٧ ، ويتناول هذا الفصل غزوة الأحزاب ، ويصف مشاهدها وملابساتها ، ويصور أحوال المسلمين فيها ، وقد جاءتهم قريش من أسفل الوادى ، وغطفان من أعلاه ، وأسقط فى يد المسلمين ، فالأحزاب أمام المدينة ، ويهود بنى قريظة نقضوا عهودهم ، وأظهروا الخيانة والغدر للمسلمين ، وحفر المسلمون خندقًا لحماية المدينة ، وكان المسلمون فى غاية الإجهاد والعسرة المادية ، واشتدت الفتن ، وفى وسط هذه المحن بشر النبى المؤمنين بالنصر ، ووعدهم كنوز كسرى وقيصر ، وظهر النفاق من بعض

المنافقين فقالوا : إن محمدًا يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع الخروج إلى الخلاء وحده ، وفى ذلك يقول القرآن : وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا . (الأحزاب : ١٢) .

واستنجد النبى بربه ، ورفع يديه إلى السماء ، وقال: «اللهم رب الأرباب، ومسبب الأسباب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا رب العالمين». فأرسل الله ريحًا عاتية، فى ليلة شاتية مظلمة، خلعت خيام الكافرين، وكفأت قدورهم ، وانسحبت قريش وأحزابها فى ظلام الليل يجرون أذيال الخوف والانكسار ، وسجل الله ذلك فى القرآن بقوله : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا . (الأحزاب : ٩ – ١١) .

وتصف الآيات صدق بعض المؤمنين وبلاءهم الحسن ، وإخلاصهم لله فى الجهاد ، حتى رُئى بعض الشهداء وفيه أكثر من سبعين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، وفى مثل هؤلاء تقول السورة : وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا * مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا * لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . (الأحزاب : ٢٢ – ٢٤) .

ثم تصف الآيات رحيل الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وحماية الله للمسلمين فى هذه الموقعة ، وهو سبحانه القوى العزيز ، ولما رحلت الأحزاب عن المدينة نزل جبريل من السماء وقال : يا محمد ، إن الملائكة لم تضع السلاح بعد ، اذهب إلى بنى قريظة فإن الله ناصرك عليهم ، جزاء خيانتهم وغدرهم ، فقال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة»[١٢] . وهناك حاصر المسلمون بنى قريظة ، ثم أجلوهم عن ديارهم ، وغنم المسلمون أرضهم ودورهم وأموالهم وحصونهم المنيعة بقدرة الله ، وهو على كل شىء قدير ، قال تعالى : وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا . (الأحزاب : ٢٥ – ٢٧) .

زوجات الرسول

تتناول الآيات ٢٨ – ٣٦ حديثًا عن زوجات الرسول ، وكانت الغنائم قد جاءت للمسلمين ، وأقبل المال بعد غزوة بنى قريظة ، فتطلعت زوجات الرسول إلى المتعة والنفقة الواسعة ، وقلن : يا رسول الله ،

نساء كسرى وقيصر بين الحلى والحلل ، والإماء والخدم ، ونساؤك على ما ترى من هذه الحال . فنزلت الآيات تخيرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة ، وخيّر النبى نساءه ، وبدأ بعائشة، فقال لها : «سأعرض عليك أمرين ، أرجو ألا تقطعى فى اختيار أحدهما ، حتى تستشيرى أبويك» ، وقرأ عليها الآيتين : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩) .

فقالت عائشة : أفيك أشاور أبوى يا رسول الله ؟ أختار الله ورسوله ، وقالت كل نسائه مثل ذلك ، فجعلهن الله أمهات المؤمنين ، وأشارت الآيات التالية إلى جزائهن المضاعف فى الأجر إن اتقين ، وإلى العذاب المضاعف إن ارتكبن فاحشة مبينة ، لأنهن فى بيت النبوة والقدوة والأسوة ، فلهن ضعف الأجر إن أحسن ، وضعف العقوبة إن أسأن ، فزلة العالم يقرع بها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل ، ثم أمرت الآيات زوجات الرسول بخفض الصوت وجعله مستقيما بدون تكسر ، حتى لا يطمع الشباب المنافق فيهن ، وحثهن على الاستقرار فى البيت ، وعدم التبرج ، وتلاوة القرآن والتفقه فى أحكامه ، واستطردت الآيات فى بيان جزاء المؤمنين والمؤمنات كافة ، وكان هذا هو الفصل الثالث فى سورة الأحزاب .

قصة زينب بنت جحش

أرسل الله محمدًا ﷺ للناس كافة ، فحرر العبيد ، وعلم الناس المساواة ، وكرم إنسانية الإنسان ، وبيّن أن الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى .

وخطب النبى ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت وقالت : أنا خير منه حسبًا – وكانت امرأة فيها حدة – فأنزل الله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلاً مُّبِينًا . (الأحزاب : ٣٦) . فقالت زينب : هل رضيته لى يا رسول الله زوجًا ؟ قال رسول الله : «نعم» ، قالت : إذن لا أعصى الرسول ﷺ ، قد أنكحته نفسى .

وتم هذا الزواج ، ولأمر أراده الله لم يدم طويلا ، فقد كانت زينب تفخر على زيد بن حارثة بأنها حرة قرشية جميلة ، وأنه عبد لايدانيها فى نسبها وحسبها ، فلما تكرر ذلك منها عزم زيد على طلاقها ، وذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال له النبى : «أمسك عليك زوجك واتق الله» ، رغبة فى إبقاء هذا الزواج ، وكان النبى يعلم بوحى من السماء أن زينب ستطلق وأنها ستكون زوجة للرسول ، ليبطل بهذا الزواج آثار التبنى بسابقة عملية يختار لها رسول الله ﷺ بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة فى البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها، ولما طلقت زينب من زيد خطبها النبى لنفسه ونزل الوحى من السماء بذلك ، حتى كانت زينب تفخر على أزواج النبى ، فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات .

ولم تمر المسألة سهلة ، فقد فوجئ بها المجتمع الإسلامى كله ، كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول: تزوج حليلة ابنه .

وكانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد ، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن محمد فلا تحل له ، حتى بعد إبطال عادة التبنى فى ذاتها ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء ، إنما كان حادث زواج النبى بزينب هو الذى قرر القاعدة عمليًا ، بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديمًا وحديثًا ، وصاغوا حولها الأساطير المفتريات ، إنما كان الأمر أمر الله ، تحمله النبى وواجه به المجتمع الكاره لهذا الأمر كل الكراهية ، حتى ليتردد النبى فى تحمله ومواجهة الناس به .

قال تعالى : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً . (الأحزاب : ٣٧) .

واستمرت الآيات توضح أنه لا حرج على النبى فيما فرض الله له ، فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء ، وذكرت الآيات أن محمدا لم يكن أبا أحد من رجال العرب حتى يحرم عليه الزواج من مطلقته ، وإنما محمد رسول الله وخاتم النبيين ، فهو يشرع الشرائع الباقية ، لتسير عليها البشرية إلى يوم الدين ، ثم حثت الآيات على ذكر الله وطاعته .

وقد استغرق هذا الموضوع الرابع ، الآيات من ٣٦ – ٤٤ .

أدب بيت النبوة

يستغرق الموضوع الخامس الآيات من ٤٥ إلى آخر السورة ، ويبدأ ببيان حكم المطلقات قبل الدخول، ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبى ﷺ ، فيبين من تحل له من النساء المؤمنات ومن تحرم عليه ، ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبى . وزوجاته فى حياته وبعد وفاته ، وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى أزواجه وبيوته وشعوره ، وهددهم باللعن فى الدنيا والآخرة ، مما يشى بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئا كثيرا .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبى وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن : ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ... (الأحزاب : ٥٩) .

وبتهديد المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفين فى المدينة ، بتسليط النبى ﷺ عليهم ، وإخراجهم من المدينة كما خرج بنو قينقاع من قبل وبنو النضير بعدهم ، أو القضاء عليهم كما وقع لبنى قريظة ، وكل هذا يشير إلى إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامى بوسائل شريرة خبيثة .

ثم ذكر من شرور هؤلاء الناس أنهم كانوا يسألون النبى عن وقت الساعة على سبيل الاستهزاء والاستخفاف ، وأجابهم بأن علم الساعة عند الله ، ولوّح بأنها قد تكون قريبًا ، وأتبع هذا بمشهد من مشاهد القيامة حيث يتقلب المجرمون فى جهنم ، ويتمرغون فى العذاب والندامة .

ثم تعقب السورة بنهى المؤمنين عن إيذاء النبى ، حتى لا يكونوا كالذين آذوا موسى بالطعن عليه ، ثم برأه الله وجعله نزيها وجيها .

تحمل الإنسان للأمانة

فى آخر السورة نجد آية شهيرة تكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية ، وعلى عاتق الجماعة الإسلامية بصفة خاصة ، وهى التى تنهض وحدها بعبء الأمانة الكبرى ، أمانة العقيدة والاستقامة عليها .

لقد عرض الله حمل الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين حملها لخطر أمرها ، وحملها الإنسان الذى خلق مزودا بالإرادة والكسب والاختيار ، والقدرة على الطاعة والمعصية .

فالسماء والأرض والجبال والبحار والكون كله يخضع لله خضوع القهر والغلبة، ولا يحتمل التكاليف، ولا يستطيع أن يتحمل الأمانة والتكاليف الشرعية ، فيثاب على الطاعة ويعاقب على المعصية ، إنما الإنسان وحده الذى ميزه الله بالعقل والإرادة ، وكرمه وفضله بالكسب والاختيار ، فله قدرة على الطاعة وقدرة على الظلم والجهل ، وقد استعمر الله الإنسان فى الأرض واستخلفه فيها لعلمه أنه وحده هو الذى يصلح خليفة عنه ، لما ركز فى غرائزه وطبائعه من حب التنافس ، والتسابق فى عمارة الأرض ، فمن أطاع الله من طائفة الإنسان فله الجنة وله التوبة عند الخطأ ، ومن كفر ونافق فله العذاب والعقاب . قال تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۞ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا . (الأحزاب :٧٢ ، ٧٣) .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ① وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ② وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ③ ﴾

المفردات :

اتق الله : دُم على تقواه ، أو زد على ما أنت عليه من تقوى ، وفيه توجيه للمؤمنين بتقوى الله ، فإن أمر الأعلى يراد به الأدنى من باب أولى .

ولا تطع الكافرين : فيما يخالف شريعتك وأوامر ربك .

عليما حكيما : واسع العلم ، عظيم الحكمة .

وتوكل على الله : فوض الأمر إليه .

وكفى بالله وكيلا : كفى به حافظًا ومعينًا .

تمهيد فى أسباب النزول

أخرج ابن جرير ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة ابن ربيعة ، دعوا النبى ﷺ أن يرجع عن قوله ، على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات .

وذكر الواحدى فى أسباب النزول أن الآيات نزلت فى أبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور السُّلمى ، قدموا المدينة بعد قتال أحد ، فنزلوا على عبدالله بن أُبىّ (زعيم المنافقين) ، وقد أعطاهم النبى ﷺ الأمان على أن يكلموه ، فقالوا للنبى ﷺ : ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزّى ومناة ، وقل : إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها ، وندعك وربك ، فشق على النبى ﷺ قولهم ، وأنزل الله عز وجل هذه الآيات .

وكل هذه الروايات تتلاقى على أن المشركين فى مكة والمنافقين فى المدينة حاولوا النيل من الإسلام والمسلمين ، فأنزل الله هذه الآيات تشدُّ أزر الرسول ﷺ ، وتثبته وتعلن رفض الإسلام لحيل الكفار والمنافقين .

وروى أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، تابعه ناس من اليهود نفاقًا ، وكان يلين لهم جانبه ، ويظهرون له النصح خداعًا ، فحذره الله منهم ونبهه إلى عداوتهم .

التفسير :

١ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

«إن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة ، يقوم على هذه الشريعة نظام ، وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هى الإسلام»[٦٣] .

وقد بُدئت السورة بدعوة النبى ﷺ إلى تقوى الله ومراقبته ، وامتثال أمره والابتعاد عن نواهيه ، وهو توجيه لأمته على توالى العصور والدهور .

قال طلق بن حبيب : التقوى هى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

لا تستجب لمطالبهم ، ولا تستمع لنصائحهم المغرضة ، بتخصيص بعض المجالس للأغنياء ، وطرد الضعفاء والفقراء عن هذه المجالس ، وقد كان ضغط الكافرين والمنافقين عنيفًا فى المدينة وما حولها ، فى هذه الفترة التى نزلت فيها السورة ، حوالى سنة خمس من الهجرة .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

فهو العليم بما يضمرونه ، الحكيم فى تدبير أمرك وأمر أصحابك ، وسائر شئون خلقه ، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطاع .

٢ - وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

اتبع الوحى والقرآن الذى ينزل عليك أيها النبى بواسطة جبريل من عند الله ، وهذا الوحى هداية السماء لك ولأمتك ، وللناس أجمعين إلى يوم الدين .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

فهو سبحانه مطلع وخبير بما تعمل أنت وأصحابك ، لا يخفى عليه شىء منه ، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم به من الجزاء .

٣ - وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً .

اعتمد على الله وحده ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، والتوكل على الله يتضمن الاعتماد عليه والثقة به ، وانتظار النجاح والتوفيق منه ، بعد الأخذ بالأسباب .

التوكل غير التواكل :

المتوكل يعمل ويكدح ويأخذ بالأسباب ، كالفلاح الذى يحرث الأرض ، ويسقيها وينظفها ويهيئ التربة للغرس ، ثم يضع الحبّ ويعتمد على الرب .

رأى عمر بن الخطاب قومًا من أهل اليمن فسألهم : ما هى حرفتكم ؟ قالوا : نحن متوكلون ، فقال عمر لهم : أنتم متواكلون ، المتوكل هو الذى يأخذ بالأسباب ، يغرس الحبّ ثم يعتمد على الرب .

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً .

كفى الله حافظًا ومعينًا ووليًا ونصيرًا .

والمقصود : إن الله عاصمك وحسبك ، فهو وحده جالب النفع لك ، ودافع الضر عنك .

إن هذه الآيات الثلاث تهدف إلى غرس العزة والكرامة فى نفوس المسلمين .

وقد اشتملت على ما يأتى :

١ - تقوى الله وطاعته واتباع وحيه .

٢ - الابتعاد عن طاعة الأعداء من الكافرين والمنافقين .

٣ - التوكل على الله ، فمن وجد الله وجد كل شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء .

★ ★ ★

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

جعل : خلق .

تظاهرون : الظهار : قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى ، يريد بذلك تحريمها كما تحرم الأم .

أدعياءكم : جمع دعىّ ، والمراد به هنا : الابن بالتبنى ، وقد كانت تجرى عليه أحكام الابن فى الجاهلية ، وصدر الإسلام .

السبيل : الطريق .

ادعوهم لآبائهم : انسبوهم لآبائهم الذين ولدوهم .

هو أقسط : أعدل .

مواليكم : أولياؤكم فيه .

جناح : إثم .

فيما أخطأتم به : فيما فعلتموه مخطئين جاهلين قبل النهى .

تعمدت قلوبكم : قصدته عمدًا بعد النهى عنه .

التفسير :

٤ – ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

تمهيد :

ورد فى أسباب النزول ، وفى تفسيرى القرطبى وابن كثير وغيرهما : أن هذه الآية عالجت ما كان متفشيا فى الجاهلية من أخطاء ، ومن هذه الأخطاء أن الظهار وهو قول الرجل لزوجته : أنتِ علىّ كظهر أمى ،

يحرم الزوجة فتحرم عليه كما تحرم الأم، وقد بين القرآن أن هذا عدوان، وتحريم للحلال، فالزوجة أحلَّها الله للإنسان، فلا يجوز أن يحرّمها كما تحرم عليه الأم، فالأم تجب طاعتها والبر بها، والزوجة يحلّ الاستمتاع بها.

وكان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه إنسان لظرفه ونبله ألحقه بنسبه، فقال: هذا ابنى ويرثنى، فيصبح له حكم الابن فى الميراث، وفى حق النسب إلى أبيه المدَّعى، ولا يجوز للأب المدَّعى أن يتزوج امرأة ابنه بالتبنى، وقد أراد القرآن إبطال هذه العادة المستحكمة فى الجاهلية، واختار القرآن محمدًا ﷺ ليكون قدوة عملية فى ذلك.

قصة زيد بن حارثة

كان زيد بن حارثة مسبيا من الشام، سبته خيل من تهامة، فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة، فوهبته خديجة للنبى ﷺ، فأقام عنده مدَّة، ثم جاء عمّه وأبوه يرغبان فى فدائه، فقال لهما النبى ﷺ: «خيِّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء»، فاختار زيد بن حارثة الرِّق مع رسول الله ﷺ، وقال: هذا الرجل ما رأيت منه إلا كلّ خير، وأنا أفضله على أبى وعمى، فلما رأى النبى ﷺ تعلّقه به، قال: «يا معشر الناس، اشهدوا أن زيد بن حارثة ابنى يرثنى وأرثه»، فرضى بذلك أبوه وعمه، وكان يدعى زيد بن محمد، فلما حرم الله نسبة الولد المتبنى إلى غير أبيه، قال النبى ﷺ له: «أنت زيد بن حارثة ابن شراحيل».

من تفسير القرطبى

قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ...﴾

عن الواحدى والقشيرى وغيرهما: نزلت فى جميل بن معمر الفهرى، وكان رجلاً حافظًا لما يسمع، فقالت قريش: ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان، وكان يقول: لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر، رآه أبو سفيان فى العير، وهو معلّق إحدى نعليه فى يده، والأخرى فى رجله، فقال أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما بال إحدى نعليك فى يدك، والأخرى فى رجلك؟ قال: ما شعرت إلا أنهما فى رجلىَّ، فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده. اهـ.

وقال ابن عباس: سببها أن بعض المنافقين قال: إن محمدًا له قلبان، لأنه ربما كان فى شىء فنزع فى غيره نزعة، ثم عاد إلى شأنه الأول، فقالوا ذلك عنه، فأكذبهم الله عز وجل[٦٤].

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ...

خلق الله الإنسان وله اتجاه ومنهج وطريق يسير عليه ، فمن اختار الإسلام والإيمان والهداية ، سار فى هذا الطريق ، ومن اختار الضلال أو الكفر أو النفاق ، سار فى طريقه ، ومن أمثلة العرب : (إنك لا تجنى من الشوك العنب) ، فالمؤمن يصدر عنه السلوك المستقيم ، والكافر يصدر عنه أفعال الكفر والضلال .

فلم يخلق الله لرجل قلبين فى جوفه ، يكون فى أحدهما إيمان وفى الآخر كفر ، بل الإنسان له قلب واحد ، فإذا اعتنق التقى والهدى ظهر ذلك فى سلوكه ، وإذا اعتنق الفسوق والكفر ظهر ذلك فى سلوكه .

قال ﷺ : «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح» ، قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة؟ قال : «نعم ، التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[٦٥]، ثم تلا قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ... (الزمر : ٢٢) .

وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ...

كان الرجل إذا قال لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمِّى ، حرمت عليه على التأبيد ، فرسم القرآن طريقًا جعل الطلاق مؤقتًا ، بأن يعتق المظاهر رقبة ، فإن لم يجد صام ستين يومًا ، فإن لم يجد أطعم ستين مسكينًا ، قبل أن يقرب زوجته .

كما بين القرآن الكريم أن هناك فرقًا بين الأم والزوجة ، فالأم تجب طاعتها والبر بها ، والزوجة أحلَ الله الاستمتاع بها ، وأوجب لها حسن العشرة ، وحين يقول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمِّى ، لا تتحول إلى أمّ ، ولا تكون الزوجة التى ظاهر منها زوجها مثل الأمّ .

وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ...

لم يجعل الولد المدَّعى مثل الابن ، لأنه ليس ابنا صلبيا ، وأجمع أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت فى زيد بن حارثة ، وقد أبطل الله هذا الإلحاق الوهمى ، وهذا النسب المزعوم بهذه الآية ، وبقوله تعالى : مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ... (الأحزاب : ٤٠) .

وهذا هو المقصود بالنّفى ، قدّم الله له نفى أمر حسّى معروف ، وهو ازدواج القلب ، ثم أردفه بنفى أمرين معنويين ، هما : اجتماع الزوجية مع الظهار ، والتبنى مع النسب ، فالثلاثة باطلة لا حقيقة لها .

ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ...

هذا كلام تدَّعونه ليس له أساس فى الواقع ، فليس لرجل من قلبين فى جوفه ، والزوجة لن تكون أمًا ، والابن الدعى لن يكون ابنا حقيقيا ، هذه دعاوى بألسنتكم وأفواهكم لا واقع لها .

وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ .

والله هو الذى يقرر الصدق والعدل، ويرشد إلى السبيل القويم الصحيح، فدعوا قولكم وخذوا بقوله عز وجل.

جاء فى صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى ما يأتى :

والغرض من الآية التنبيه على بطلان مزاعم الجاهلية ، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أمًا ، ولا الولد المتبنى ابنًا ، لأن الأم الحقيقية هى التى ولدته ، والابن الحقيقى هو الذى ولد من صلب الرجل ، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناءً لهم ، مع أنهم ليسوا من أصلابهم ؟[٦٦] .

٥ - ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين فذلك أعدل عند الله وأفضل ، فى نسب من كان معروفًا نسبه إلى أبيه ، وكان زيد بن حارثة يسمى زيد بن محمد فأصبح يسمى زيد بن حارثة ، أما من لم يكن معروف النسب ، فيقال له : يا أخى فى الدين ، أو يا مولاى ، بمعنى يا صديقى ، أو يا نصيرى .

قال ابن كثير :

أمر الله بردّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرفوا ، فإن لم يُعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، عِوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : «أنت أخونا ومولانا»[٦٧] ، وقال ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزلت: ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ... [٦٨] أخرجه البخارى.

وقيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة ، وكان قد تبناه من قبل .

جاء فى الحديث الذى رواه أحمد ، والشيخان ، عن أبى ذر : ليس من رجل ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه، إلا كفر[٦٩]

قال ابن كثير : هذا تشبيه وتهديد ووعيد أكيد ، فى التبرى من النسب المعلوم .

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ ...

ليس عليكم ذنب فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى ، أو بعده نسيانا أو سبق لسان .

وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ...

ولكن الذنب والإثم لمن تعمد إلحاق الابن بغير أبيه ، فتلك معصية موجبة للعقاب ، ولا إثم ولا تحريم فيما غلب عليه اسم التبنى ، كالمقداد بن عمرو ، فإنه غلب عليه نسب التبنى ، فيقال له : المقداد بن الأسود ، والأسود هو الأسود بن عبد يغوث ، كان قد تبناه فى الجاهلية ، فلما نزلت الآية ، قال المقداد : أنا ابن عمرو، ومع ذلك بقى الإطلاق عليه .

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

وكان الله – ومازال – ساترا لذنب المخطئ والمتعمد إذا تابا ، رحيما بهما فلا يعاقبهما ، فمن رحمته أنه رفع الإثم عن المخطئ ، وقَبِل توبة المسىء عمدًا .

قال تعالى : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ... (البقرة : ٢٨٦) . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله عز وجل : قد فعلت»[٧٠] .

وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[٧١] .

وروى ابن ماجة ، عن أبى ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٧٢] .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة أنه قال فى الآية : لو دعوت رجلا لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه .

وروى الإمام أحمد ، عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالحق ، وأنزل معه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم ، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : «ولا ترغبوا عن آبائكم ، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم»[٧٣] .

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاث فى الناس كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم»[٧٤] .

وقال في التفسير المنير :

هناك فرق بين التبني المنهي عنه ، والاستلحاق الذي أباحه الإسلام ، فالتبني هو ادعاء الولد مع القطع بأنه ليس ابنه ، وأما الاستلحاق الشرعي فهو أن يعلم المستلحق أن المستلحق ابنه أو يظن ذلك ظنًا قويًا ، بسبب وجود زواج سابق غير معلن[٧٥] .

★ ★ ★

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

أولى : أحق .

أمهاتهم : مثل أمهاتهم في التحريم واستحقاق التعظيم .

أولو الأرحام : أصحاب القرابات .

بعضهم أولى ببعض : بعضهم أحق ببعض في التوارث .

إلى أوليائكم : إلى حلفائكم من المهاجرين والأنصار .

معروفا : برًا ، كالتوصية .

كان ذلك : كان ما ذكر من الأحكام في الآيات السابقة .

مسطورا : في اللوح المحفوظ .

ميثاقهم : عهدهم بالدعوة إلى دين الله .

ميثاقا غليظا : عهدًا عظيم الشأن ، أو قويًا متينًا .

الصادقين : الأنبياء الصادقين .

عن صدقهم : في تبليغ الرسالة وعما قالوه لقومهم .

التفسير :

٦ - ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ ...﴾

سورة الأحزاب نزلت فى السنة الخامسة للهجرة ، وكانت أوضاع المسلمين قد استقرت بعض الشىء . ولذلك اشتملت على تشريعات مناسبة ، فقد كان التوارث فى بداية الهجرة على أخوة الدين ، حيث هاجر المسلمون من مكة فرارًا بدينهم ، وتركوا أموالهم وأزواجهم ، وملاعب الصبا وأوطانهم الحبيبة ، إيثارًا لدين الله ودعوته ، وكان الأنصار أهل المدينة نعم الأهل والعشيرة ، أحبُّوا المهاجرين ، ورغبوا فى إكرامهم وأُخوتهم ، فما نزل مهاجرىّ على أنصارى إلا بقرعة ، إذ كان عدد المهاجرين أقل من عدد الأنصار . وبهذه الأخوة فى الإسلام ، كان الأخ يرث أخاه إذا مات ، ويعقل عنه إذا جنى ، وكانت أخوة حقيقية ، ثبتت دعائم الإسلام ، وباركت فكرته فى النفوس ، قال تعالى : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (الأنفال : ٦٣) .

وبعد أن جاءت الغنائم ، وعادت الأمور إلي وضعها الطبيعى ، عاد الميراث إلى طبيعته ، فأصبح التوارث على القرابة .

ومعنى الآية :

النبى محمد ﷺ يبلغ عن الله ، وهو القدوة العملية للمسلمين ، وهو حامل وحى السماء ، فالواجب على المسلمين محبته وطاعته ، فهو أولى بالطاعة من آبائهم وأمهاتهم ، وأولى بالمحبة من حبهم لأنفسهم ، كما ينبغى أن يكون حكمه نافذا فيهم ، مقدما على ما يختارونه لأنفسهم .

قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ . (النساء : ٦٥) .

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ...﴾

أى : هنّ بمنزلة الأمَّهات فى الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام ، وفيما عدا ذلك هن كالأجنبيات، فلا يحل النظر إليهن ، ولا إرثهن ، ولا نحو ذلك .

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ .

وأصحاب القرابة أولى بالتوارث فيما بينهم ، فذلك حق موجود ثابت فى كتاب الله تعالى ، أو فى اللوح المحفوظ ، وهذا الحق – وهو التوارث بين الأقارب – أولى من التوارث بين المؤمنين بحق الدين ، والمهاجرين بحق الهجرة .

لقد كان التوارث بين المهاجرين والأنصار أمرًا عارضًا ، دعت إليه ظروف الهجرة ، فلما استقرت الأحوال عاد التشريع إلى الأصل وهو التوارث بحق القرابة ، وهذا التوارث بحق القرابة هو الأصل فى كتاب الله ، وقد عدل عنه لضرورة طارئة ، فلما استقرت الأحوال عاد التشريع إلى الأصل ، ثم استثنى من الميراث بحق القرابة أن يتطوع إنسان فيوصى لإخوانه فى الدين ، أو لأى فرد من الناس ، فيجب تنفيذ الوصية ، وتقديمها على الميراث ، وكذلك الدَّين يُقدَّم على الميراث .

حيث قال تعالى فى سورة النساء : مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ... (النساء : ١٢) .

إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا .

أى : إنَّ التوارث على القرابة لا يمنعكم من أن تقدموا لأوليائكم من الأنصار والمهاجرين وغيرهم معروفًا وبرًا سوى الميراث ، كالوصية والهبة والهدية والصدقة ، وما تقدم من الأحكام فى هذه السورة ، كان مسطورًا ومسجلاً فى كتاب الله وهو القرآن ، أو اللوح المحفوظ ، فهو واجب التنفيذ والطاعة والامتثال.

ملاحق بالآية

١ – آخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وخارجة بن زيد ، وآخى بين عمر وشخص آخر ، وآخى بين الزبير وكعب بن مالك ، فكان التوارث على هذه الأخوة حتى نسخ الله ذلك بقوله تعالى : وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ ...

٢ – روى البخارى ، عن أبى هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ... فأيما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دَيْنا أو ضياعًا (عيالا) فليأتنى فأنا مولاه»[٧٦] .

قال العلماء : كان ﷺ لا يصلى على أحد وعليه دين ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته»[٧٧] .

٣ – استنبط الفقهاء من هذا الحديث السابق أنه يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء، اقتداء بالنبى ﷺ .

٤ – المراد من كتاب الله اللوح المحفوظ أو القرآن الكريم ، ومن لفظ : ٱلْمُؤْمِنِينَ . الأنصار ، ومن لفظ (المعروف) : الوصية أو الهدية أو الهبة أو ما أشبه ذلك ، ومن (الأولياء) : الأصدقاء من المؤمنين ، ويدخل فيه المهاجرون والأنصار ، فإن الوصية تصحّ لكل مؤمن ومؤمنة ، وتقدم على الميراث بالقرابة والمصاهرة.

٧ – وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا .

واذكر إذ أخذنا ، مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ ... أى : العهد المؤكد على أن يبلغوا الرسالة ، ويدعوا أممهم إلى الحق، والصبر والتعاون والتناصر ، وإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، هذا العهد أخذه الله على المرسلين عامة فى تبليغهم الرسالة ، والتزامهم بتحمل تبعة القيادة ، وتربية الأمة ، ثم خصص خمسة من أولى العزم من الرسل لشهرتهم ونجاح دعوتهم وأهمية رسالتهم فقال : وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ... وقدم محمدًا ﷺ لأنه صاحب الرسالة الخاتمة ، ولأنه المخاطب هنا ، ثم ذكر أربعة بعده حسب تسلسلهم التاريخى ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم . نوح هو الأب الثانى للبشرية ، وإبراهيم أبو الأنبياء ، وموسى صاحب التوراة والصبر على بنى إسرائيل ، وعيسى آخر نبى قبل محمد ، ونسبه إلى أمّه مريم لينفى عنه ما شاع من أنه ابن الله ، فهو عبد الله ورسوله .

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا .

تأكيد للميثاق السابق ، أى : عهدًا مؤكدًا .

قال القرطبى : أى عهدًا وثيقًا عظيما على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة ، وأن يصدِّق بعضهم بعضا ، والميثاق هو اليمين بالله تعالى ، فالميثاق الثانى تأكيد للميثاق الأول باليمين ، وقيل : الأول هو الإقرار بالله تعالى ، والثانى فى أمر النبوة ، ونظير هذا قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ . (آل عمران : ٨١) .

أى : أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدًا رسول الله ﷺ ، ويعلن محمد ﷺ ألا نبى بعده[٧٨] .

وقد صرح القرآن بأولى العزم هنا ، وفى قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ... (الشورى : ١٣) .

قال ابن كثير : فهذه الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها .

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا .

أى : عهدًا عظيم الشأن ، وكيف لا ؟ وقد يعترضه من الماكرين والمحادِّين والمشاقِّين ما تزول منه الجبال ، لولا الاعتصام بالصبر عليه .

٨ - لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا .

لقد أخذ الله الميثاق على الرسل بتبليغ الرسالة والدعوة ، والصبر والمجاهدة فى سبيل هذه الدعوة ، حتى يسأل الله الأنبياء عن نتيجة تبليغهم للرسالة ، فالمراد بالصادقين الرسل .

والمعنى : ليسأل الصادقين عن نتيجة تبليغ رسالتهم ، فمن استجاب وصدَّق فله الجنّة ، ومن كفر فله العذاب الأليم .

وأفاد القرطبى أن الآية تحتمل معنى آخر ، وهو : ليسأل الله المؤمنين الصادقين عن صدقهم ومآثرهم وأعمالهم الجليلة ، كما يُسأل التلميذ النجيب عن إجابته المتميزة ، فهو سؤال تشريف وتكريم ، كما يسأل الكفار سؤال توبيخ .

قال تعالى : فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ . (الأعراف : ٦) .

وفى معنى الآية يقول الله تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ . (المائدة : ١٠٩) .

وفى هذا تنبيه ، أى : إذا كان الأنبياء يُسألون ، فكيف من سواهم ؟! .

قال ابن كثير :

ونحن نشهد أن الرسل بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم ، وأفْصَحُوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلى ، الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين ، والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل فهو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال . ا هـ .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

جنود : من قريش ومن تحزب معها فى غزوة الأحزاب .

وجنودا لم تروها : الملائكة .

من فوقكم : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وهم بنو غطفان وبنو قريظة .

ومن أسفل منكم : من أسفل الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش وباقى حلفائها .

زاغت الأبصار : مالت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة .

بلغت القلوب الحناجر : فزعت فزعًا شديدًا ، والحناجر جمع حنجرة ، وهى الحلقوم حيث مخرج الصوت .

هنالك : فى ذلك الحين ابتلى المؤمنون ، وتعرضوا لامتحان شديد .

زلزلوا : اضطربوا .

زلزالا : اضطربوا اضطرابًا شديدًا من الفزع وكثرة العدو .

مـــــرض : ضعف اعتقاد .

إلا غـــــرورا : باطلا من القول لا حقيقة له .

يـــثـــرب : من أسماء المدينة .

لا مـقـام لـكـم : لا ينبغى الإقامة ها هنا .

عـــــورة : غير حصينة .

مـن أقـطـارهـا : من جوانبها .

الـفـتـنـة : الردّة وقتال المسلمين .

يســيـرا : زمنًا قليلاً ، مقدار السؤال والجواب .

تمهيد موضوعه

غزوة الأحزاب فى كتب السيرة

فى السنة الخامسة من الهجرة اجتمع حول المدينة عشرة آلاف من الكفار الوثنيين وأهل الكتاب للقضاء على النبى ﷺ ، وكان سبب الوقعة اليهود ، وكان بنو النضير قد خانوا النبى ﷺ ، وهمّوا بقتله حين كان فى زيارتهم ، وبينما هو جالس بجوار حائطٍ لهم ، اتفق اثنان منهم أن يشغله أحدهما فى الكلام ، بينما يلقى عليه الثانى حجرًا من أعلى البيت ، ثم أخبر الله رسوله ﷺ بتدبيرهم ، فذهب وتركهم ، ثم حاصرهم وأجلاهم عن المدينة ، فذهب فريق منهم إلى خيبر وعلى رأسهم حيى بن أخطب ، وآل أبى الحقيق ، وذهب آخرون إلى أذرعات ، فلم يقرّ لهم قرار ، وذهب جماعة منهم برئاسة حيى بن أخطب ، إلى قريش لتحريضهم على قتال النبى ﷺ ، ثم حرَّضوا غطفان فاستجابوا لهم ، فأمر رسول الله ﷺ بحفر خندق من الحرّة الشرقية ، إلى الحرّة الغربية ، حيث قال سلمان الفارسى : يا رسول الله ، كنا إذا حوصرنا خندقنا ، وفوجئ المشركون بالخندق ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، وحاول بعض المشركين اقتحام الخندق ، فرُمى بالحجارة ، واقتحمه بعضهم بفرسه فهلك أو قُتل ، منهم الفارس المشهور عمرو بن ودّ العامرى ، الذى تبارز مع على رضى الله عنه فقتله على ، وفرّ صاحباه عكرمة بن أبى جهل ، وضرار بن الخطاب ، واستشهد سعد بن معاذ رضى الله عنه فى غزوة بنى قريظة .

ثم وقعت مكيدة محكمة بين الأحزاب ، فقد جاء نعيم بن مسعود الأشجعى إلى رسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنى قد أسلمت ، فمرنى بما شئت ، فقال النبى ﷺ : «خذّل عنا الناس إن استطعت ، فإن الحرب خدعة» ، فذهب إلى بنى قريظة ، ونصحهم بألاَّ يحاربوا مع قريش وغطفان ، إلا إذا أخذوا رهائن من أشرافهم ، حتى يستمروا معهم فى حرب محمد إلى النهاية ، لأنهم إذا سئموا الحرب عادوا إلى بلادهم ،

وتركوهم وحدهم أمام محمد ، ولا طاقة لهم به ، وذهب نعيم إلى قريش ، فأخبرهم أن اليهود ندموا على نقض عهدهم مع محمد ، ويريدون أن يأخذوا رهائن من أشرافكم ، لتستمروا معهم إلى النهاية فى قتال محمد ، ولما حاول أبو سفيان ومن معه خوض معركة فاصلة ، أرسل إلى اليهود ليحكموا الهجوم ، فتباطأ اليهود ، وطلبوا رهائن من رجال قريش ، فامتنعوا وصدقوا حديث نعيم بن مسعود ، وتخاذل اليهود والعرب، وتفرقت الكلمة .

واشتد الظلام ، ومكث النبى ﷺ قائما يصلى رافعا يديه يقول : «يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى» ، «اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم» فأرسل الله ريحا عاتية ، فى ليلة شاتية باردة ، خلعت خيام الكافرين ، وكفأت قدورهم ، وألقت الملائكة الرعب فى قلوبهم ، فخطب فيهم زعيمهم أبو سفيان ، ونصحهم بالرحيل فرحلت قريش وغطفان ، ومن جاء معهم من الأحزاب ، ولما رحلت الأحزاب عن المدينة ، قال رسول الله ﷺ : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم» .

ثم ذهب النبى ﷺ إلى بنى قريظة ، وعاتبهم على نقض العهد ، والاتفاق مع المشركين على قتال المسلمين ، وحاصرهم النبى ﷺ ، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فحكم أن يُقتل مقاتليهم ، وتسبى ذراريهم ونساؤهم ، فقال النبى ﷺ : «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات»[٧٩] .

التفسير :

٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

ويُذكِّر القرآن المسلمين بهذه المعركة الكبيرة فيقول : يا أيها الذين آمنوا بالله تعالى ، تذكَّروا نعمة الله عليكم وفضله ، حيث كفَّ عنكم أعداءكم ، حيث جاءتكم جنود كثيرة ، تزيد على عشرة آلاف مقاتل، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية ، فى ليلة شاتية باردة ، فخلَعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وألقت الملائكة الرعب فى قلوبهم ، وقد فعل الله ذلك بالأعداء مكافأة لكم على اجتهادكم فى حفر الخندق ، وطاعة الرسول ، وبذل النفس والنفيس ، دفاعًا عن الإسلام ورسوله .

وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ... أى : الملائكة .

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . أى : مطلع وشاهد على أعمالكم ، وخبير بما فى قلوبكم فيجازيكم عليه .

١٠ - إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ .

واذكروا حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وجاء اليهود من أسفل الوادى من جهة المغرب ، وقيل غير ذلك .

والخلاصة : أن الأعداء كانوا كثيرين ، وأن هجومهم كان من جبهتين ، قريش والأحزاب من جبهة ، واليهود من جبهة أخرى ، واشتد الكرب بالمسلمين ، وباتوا فى حالة من الترقب ، خشية هجوم الأعداء عليهم من الأمام والخلف ، وعبَّر القرآن عن هذا القلق بقوله :

وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ...

حين مالت عن كل شىء ، فلم تلتفت إلا إلى عدوّها .

وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ...

أى : خافت القلوب خوفًا شديدًا ، كأنها من خوفها بلغت الحناجر .

وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ .

وتظنون بالله مختلف الظنون ، فالمؤمنون توقعوا من الله النصر والتأييد ، ورأوا فى ذلك امتحانًا ، يستحق الصبر والرضا واليقين ، وقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله .

أما المنافقون فقد ظهر نفاقهم ، ومرض قلوبهم ، وظنوا أن الأحزاب ستنتصر على المؤمنين، وستدخل المدينة غازية منتصرة ، وسيُهزم المؤمنون أمام المشركين .

١١ - هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا .

أى : عند هذه المعركة امتُحن المؤمنون امتحانًا قاسيًا ، واضطربوا اضطرابًا قويًا من شدة الفزع ، وهجوم قوة كبيرة عليهم من قريش وغطفان وحلفائهما ، ثم خيانة اليهود العهد ، واتفاق بنى قريظة مع الأعداء على استئصال المسلمين ، وكانت هذه المعركة من أشد المعارك وأقساها على المسلمين ، حتى همَّ النبى ﷺ أن يتفق مع غطفان على أن يرجعوا عن حرب المسلمين ، ولهم ثلث ثمار المدينة ، واستشار النبى زعماء الأوس والخزرج ، فقالوا : لم يكونوا ينالون منا شيئًا فى الجاهلية ، فكيف نعطيهم وقد أعزنا الله بالإسلام ؟ لا نعطيهم إلا السيف .

١٢ - وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا .

واذكروا أيها المؤمنون حين نجم النفاق من المنافقين ، حين شاهدوا حرج الموقف ، وشدة الضيق بالمسلمين ، فالأحزاب أمامهم كثيرون ، واليهود نقضوا العهد ، والمؤمنون فى كرب شديد ، يتوقعون الهجوم عليهم من جهتين ، وهم فى قلة وعسرة ، عند ذلك ظهر النفاق والمرض سافرًا ، حيث قالوا : إن محمدًا يعدنا بالنصر على كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع الخروج إلى الخلاء وحده .

روى النسائى بإسناده ، عن البراء قال : لما أمرنا رسول الله ﷺ أن نحفر الخندق ، عرضت لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فألقى ثوبه وأخذ المعول وضرب الصخرة ، فصارت كثيبًا أهيل ، ثم قال لأصحابه : «إن الله أضاء لى من هذه الصخرة كنوز كسرى وقيصر» . عند ذلك قال المنافقون ومرضى القلوب : ما وعدنا الله ورسوله من النصر والاستيلاء على الممالك ، إلا وعدًا باطلاً لا سبيل إلى تحقيقه .

١٣ - وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .

واذكروا حين ظهر النفاق من جماعة من المنافقين ، فنصحوا أهل المدينة بعدم الصبر على الجهاد والكفاح ، وكان رسول الله ﷺ قد اتخذ موقعًا حصينًا للقتال ، فجبل سلع خلف ظهور المسلمين ، والخندق بينهم وبين المشركين ، فقالت طائفة من المنافقين : يا أهل المدينة ، ليس هذا الموقع مناسبًا لإقامتكم ، فارجعوا إلى المدينة للإقامة فى بيوتكم ، أو لا مقام لكم فى دين الإسلام ، فارجعوا إلى ما كنتم عليه ، فرارًا من تبعة الجهاد والدفاع عن الإسلام .

وفريق آخر من المتخاذلين بعثوا من يستأذن لهم من النبى ﷺ ، بالعودة إلى بيوتهم لحمايتها ، فهى ذليلة غير حصينة ، يخاف عليها من السُّرَّاق ، والحال أن بيوتهم سليمة حصينة ، ولكن السبب الحقيقى وراء استئذانهم هو الفرار والهرب من تكاليف الجهاد وأعبائه .

ملاحق بتفسير الآية

١ - رُوِى أن بنى حارثة بعثت بأوس بن قيظى إلى رسول الله ﷺ ، يقولون : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ... وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردُّهم عنا ، فَأْذن لنا فلنرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا ، فأذن لهم ﷺ ، فبلغ ذلك سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة ، إلا صنعوا هكذا ... فردَّهم .

٢ - قال القاسمى :

(فائدة) : يثرب من أسماء المدينة كما فى الصحيح[٨٠] : «أُريت فى المنام دار هجرتكم ، أرضٍ بين حرّتين، فذهب وَهْلى أنها هَجَر ، فإذا هى يثرب» . وفى لفظ : المدينة .

قال ابن كثير : فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد[٨١] عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طابة هى طابة» فقد تفرد بروايته الإمام أحمد ، وفى إسناده ضعف . ا هـ .

١٤ - وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا .

ولو دخل الأعداء عليهم المدينة من كل جانب من جوانبها ، ثم طُلب منهم الكفر والردة عن الإسلام ، والعودة صراحة إلى الكفر وقتال المسلمين لفعلوا ، وما تأخروا عن ذلك إلا وقتًا قليلاً ، وهو مقدار ما يكون بين السؤال والجواب ، وهذا دليل على ضعف إيمانهم ، وجبنهم وعدم ثباتهم ، وهذا هو سر استئذانهم للعودة إلى بيوتهم جبنًا وفرقًا ، فلا ثبات عندهم على المحن ، ولا صبر فى البأساء ، بل قلوبهم هواء ، وإيمانهم ضعيف ، ويقينهم مضطرب واهٍ .

والخلاصة : إنهم لضعف إيمانهم مستعدون لترك الإسلام والدخول فى الكفر والفتنة ، عند أدنى صدمة ، فلا ثبات عندهم ولا عزيمة ولا صبر .

١٥ - وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا .

ولقد كان هؤلاء المستأذنون فى العودة إلى المدينة هربا ، قد عاهدوا الله من قبل على الثبات ، وعدم الفرار ، وعدم تولية الأدبار ، وكان عهد الله واجب الوفاء به .

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق فى السيرة : هم بنو حارثة ، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أُحد مع بنى سلمة حين همتا بالفشل يومها[٨٢] ثم عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها أبدًا ، فذكر لهم الذى أعطوا من أنفسهم . ا هـ .

لقد تداركهم الله برحمته ورعايته يوم أحد ، حيث ثبتهم وعصمهم من مواقف الفشل ، وكان ذلك درسًا من دروس التربية فى أوائل العهد بالجهاد ، فأمًا فى غزوة الأحزاب فقد انقضى زمن يزيد على خمس سنوات فى الإسلام ، فالقرآن هنا يواجههم هذه المواجهة العنيفة .

١٦ – قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً .

لقد كتب الله على كل نفس أجلها ورزقها وقدرها ، وما يستقبل من أمرها ، قال تعالى : فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (الأعراف : ٣٤) .

فاستئذان المنافقين فى ميدان القتال ، فرارًا بأنفسهم إلى المدينة ، وهربًا من الموت أو القتل ، لن يطيل آجالهم ، وربما عرَّضهم لأخطار أشد ، لأن أجَل الله إذا جاء لا يؤخَّر ، ولذلك تقول لهم الآية : لن ينفعكم فراركم من المعركة ، ولن يؤجل وفاتكم بالموت أو القتل ، وحتى إذا نجوتم فإن الباقى من أعماركم قليل ، بالنسبة إلى الخلود فى الآخرة ، قال تعالى : قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . (النساء : ٧٧) .

قال القرطبى :

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ...

أى : من حضر أجله مات أو قتل ، فلا ينفع الفرار .

وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً .

أى : فى الدنيا بعد الفرار ، إلى أن تنقضى آجالكم ، وكل ما هو آتٍ قريب . ا هـ .

قال الربيع بن خيثمة : وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى : إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار ، لأن مجىء الأجل لابد منه . ا هـ .

١٧ – قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ...

إن مراد الله نافذ لا محالة ، فقل لهم أيها الرسول الكريم: من ذا الذى يمنعكم من قضاء الله، ويعصمكم مما يريد أن ينزل بكم ، إن أراد بكم هلاكًا أو شرًا ، فلن يستطيع أحد أن يدفعه عنكم ، وإن أراد بكم رحمة أو نفعًا وخيرًا ، فلن يستطيع أحد أن يمنع وصوله إليكم ، قال تعالى : مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (فاطر : ٢) .

وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

ولا يجد هؤلاء المنافقون من يعصمهم مما يريده الله تعالى بهم ، ولا يجدون من دونه سبحانه قريبا ينفعهم ولا ناصرًا ينصرهم ، فإن الله سبحانه وحده هو الناصر والمغيث والمجير .

★ ★ ★

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

المعوقين : المثبطين عن القتال مع رسول الله ﷺ .

هلم إلينا : أقبلوا إلينا .

البأس : الحرب والقتال ، وأصل معناه الشدة .

أشحة عليكم : مفرده شحيح ، أى : بخيل بالنصرة والمعاونة .

تدور أعينهم : تدير أعينهم أحداقهم من شدة الخوف .

سلقوكم : آذوكم بالكلام وبالغوا فى شتمكم .

ألسنة حداد : قاطعة سلطة ، تفعل فعل الحديد .

أشحة على الخير : بخلاء على الإنفاق فى سبيل الله .

أحبط : أبطل الله أعمالهم لإضمارهم الكفر .

بادون فى الأعراب : كائنون فى البادية مع الأعراب .

ما قاتلوا إلا قليلاً : رياء وسمعة .

التفسير :

١٨ - قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً .

ترسم هذه الآية والآيتان بعدها صورة زرية للمنافقين ، الذين اشتد جبنهم وهلعهم وخوفهم ، وفى آيات سابقة ذكر القرآن تعللهم بالحجج الباطلة ، وقولهم : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . (الأحزاب : ١٣) . وأنهم لا ثبات لهم ، ولا بطولة ولا صبر فى المعارك .

وهنا يتوعَّدهم القرآن بأن الله عالم بهم ، مطلع على رذائلهم ، فهم مثبطون مخذلون فى صفوف الجماعة المسلمة ، وهم دعاة إلى النكوص عن الجهاد ، حيث كان بعض المنافقين يرسلون إلى إخوانهم المنضمين إلى كتيبة الجهاد ، فيقولون لهم : هلموا فانضموا إلينا فى القعود والتخلف ، ثم هم لا يشتركون فى الحرب إلا اشتراكا قليلا ، حتى يراهم الناس ، ثم يتسللون فى خفية ويهربون فرادى .

قال قتادة : كان المنافقون يقولون لإخوانهم من ساكنى المدينة من الأنصار : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، (يريدون أنهم قليلو العدد) ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فدعوه فإنه هالك .

١٩ - أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا .

ترسم الآية صورة بارزة المعالم للمنافقين ، عنوانها : الجبن فى البأساء ، والطمع فى الرخاء وعند الغنيمة .

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ...

عندهم شح وبخل بالمال والنفس ، والإنفاق فى سبيل الله ، وإذا جاء الخوف وبدأت المعركة وطار الشجعان إلى القتال ، رأيت هؤلاء المنافقين الجبناء فى خوف وهلع ، وقد دارت أعينهم فى رءوسهم ، فرقا وخوفا ، كدوران عين الذى قرب من الموت ، وغشيته أسبابه ، فإنه إذ ذاك يذهب لبّه ، ويشخص بصره فلا يتحرك طرفه .

فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ...

فإذا جاء الرخاء وانتهت المعركة ، تحول هؤلاء الجبناء إلى متظاهرين بالشجاعة ، يفخرون بما لهم من المشاركة فى البأساء والحرب ، ولهم ألسنة قوية كأنها الحديد ، فى بيان الحجة ، والمنازل العالية التى قدموها فى الحرب .

قال قتادة : أمّا عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا ، لقد شهدنا معكم ، وأمّا عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق . اهـ .

قال الشاعر :

أفى السلم أعيارٌ جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك[٨٢]

أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ...

بخلاء أشحاء بالمال ، لا ينفقونه فى سبيل الله ، أو مبالغون فى حب المال والغنيمة ، والشح بها أن تنتقل من أيديهم إلى أيدى المؤمنين ، بسبب نفاقهم ، فالإيمان لم يتسرب إلى قلوبهم ، وإن تظاهروا بالإسلام .

قال الفخر الرازى :

أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ...

يعنى لم يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظا ، فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين .

وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا .

أى : كشف أعمالهم ، وتبيين خفاياهم ، ومعاملتهم بالعدل والحق ، والقسطاس المستقيم كان أمرًا سهلاً هينا على الله ، فهو سبحانه قادر عادل مطلع لا معقب لأمره ، ولا يخشى من اعتراض أحد ، لأنه عادل منصف .

قال الزمخشرى : وفى هذا حث على إتقان المكلف أساس أمره ، وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح الإيمان، كالبناء على غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا.

٢٠ - يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلاً .

ترسم الآية معالم المنافقين وشدة جبنهم ، فحتى بعد رحيل الأحزاب ، وبعد أن ردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، فإن المنافقين يظنون أن الأحزاب لم يذهبوا ، ولم يرحلوا بعيدًا عن المدينة ، وعلى فرض عودة الأحزاب مرة ثانية ، فإن المنافقين يتمنون أن يكونوا من أهل البادية ، بعيدين عن المدينة والدفاع عنها ، ويتمنون أن يسمعوا أخبار المدينة من بعيد ، مع أنهم لم يشتركوا فى القتال اشتراكًا حاسمًا ، ولو كانوا مع المؤمنين أثناء القتال ما قاتلوا إلا قتالا قليلا ، كالرَّمى بالنبل والسهم ، دون الالتحام المباشر الذى يسبب النصر ، فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة .

لقد رسمت الآيات صورة زريَّة للمنافقين ، وكشفت عن نفوس ملأها الهلع والجبن ، فهم عوامل شر وتثبيط ، وهم فى الكريهة والحرب فى خور وهلع ، وفى السلم فى جشع وحب للمال ، وألسنة سليطة ، وأقوال

كاذبة ، لا مدلول لها من الأعمال ، ولشدة هلعهم يتمنون الإقامة فى البادية ، يستطلعون أخبار المدينة عن بعد ، دون المشاركة فى القتال وتبعاته .

★ ★ ★

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

أسوة حسنة : قدوة طيبة ، والمراد به : المقتدى به .

يرجو الله : يأمل رضا الله .

واليوم الأخر : وثواب اليوم الآخر .

صدق الله : ظهر صدق خبر الله .

وتسليما : وانقيادًا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

التفسير :

٢١ – ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

من شأن القرآن أن يقارن بين موقف المنافقين من الضعف والخور ، وموقف المؤمنين من الثبات فى المحنة ، والأمل والعمل للنصر .

ومعنى الآية :

لقد كان لكم دليل هادٍ ونبراس مضىء ، فى محمد ﷺ رسول الله، فكان القائد الرائد ، نظم ورتب ، وشارك فى حفر الخندق ، وشارك فى تثبيت المؤمنين ، وضرب كدية شديدة لم تعمل فيها المعاول ، ضربها فعادت كثيبًا أهيل ، وأخلص فى الدعاء لله يوم الخندق ، حتى أرسل الله الريح والملائكة تعاون فى نصر المؤمنين ، والاقتداء برسول الله كائن ومتحقق ، لمن كان له أمل ورجاء فى ثواب الله ، وفى عطاء اليوم الآخر فى الجنة ، ولمن ذكر الله ذكرًا كثيرًا ، حتى يتحقق اتصاله بالله ، وطاعته لأمره ، فهو القائل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) . ورغم أن الآية نزلت فى مدح موقف الرسول ﷺ يوم الأحزاب ، ومدح المؤمنين الثابتين فى البأساء ، إلا أن الآية مع ذلك أصل كبير فى

التأسى برسول الله ﷺ، فى أقواله وأفعاله وأحواله، وصبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه [٨٤].

والآية وإن سيقت للاقتداء به ﷺ فى أمر الحرب، من الثبات فى القتال ونحوه، فهى عامة للاقتداء به فى كل أفعاله، ما لم يعلم أنها من خصوصياته، فالقرآن قد حث المسلمين على توقير الرسول ﷺ، وطاعته وتعظيمه وحبه، وهدد القرآن المخالفين لأمر الرسول، قال تعالى: مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ... (النساء: ٨٠)

وقال سبحانه: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... (آل عمران: ٣١).

وقال سبحانه: فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (النور: ٦٣).

٢٢ – وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا.

لما شاهد المؤمنون الأحزاب، مع كثرتهم وقوتهم، وتعدد جموعهم، قابلوا ذلك بالثبات، ورباطة الجأش، وقالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، حيث بين القرآن أن ثمن الجنة هو الثبات فى المحنة، والصبر على البأساء، وبين الرسول الأمين أن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، وقيل: إن الآية من دلائل النبوة، حيث أخبر النبى المؤمنين بقدوم الأحزاب، وأنهم جمع كبير، وسيصلون بعد تسع ليال أو عشر ليال، من أول الشهر، فلما وصلت الجموع فى الميعاد، ازداد يقين المؤمنين، واستعدوا للحرب ولقاء الأحزاب، فى صدق ويقين، ولم تزدهم مشاهدة الأحزاب إلا إيمانًا بالله وتصديقًا بشريعته، وتسليمًا لأوامره، وانقيادًا وطاعة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ.

قال تعالى: أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. (العنكبوت: ٢).

وقال سبحانه: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ. (البقرة: ٢١٤).

من تفسير القرطبى

ومعنى الآية: وما زادتهم الرؤية للأحزاب إلا إيمانًا بالرب وتسليمًا للقضاء، ولما اشتد الأمر على المسلمين، وطال المقام فى الخندق، قام عليه السلام على التلّ، الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى، وتوقع ما وعده الله من النصر، وقال: «من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة» فلم يجبه أحد. وقال ثانيًا

وثالثًا فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : «من هذا»؟ فقال : حذيفة . فقال : «ألم تسمع كلامى منذ الليلة» ؟ قال حذيفة : فقلت : يا رسول الله ، منعنى أن أجيبك الضر والقر . قال : «انطلق حتى تدخل فى القوم فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلى ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتينى» . فانطلق حذيفة بسلاحه ورفع رسول الله ﷺ يده يقول : «يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى» . فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : «شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت أصحابى» . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحا ، فبشر أصحابه بذلك . قال حذيفة : فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد ، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته ، وجعلوا يتترسون من الحصباء . وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح فى قريش : النجاء النجاء ! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس ، وتفرقت الأحزاب ، وأصبح رسول الله ﷺ فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله ، فجاءته فاطمة بغسول فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : وضعت السلاح ولم يضعه أهل السماء ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء ، ثم قال : انهض إلى بنى قريظة ، وقال أبو سفيان : مازلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الروحاء(٨٥) .

★ ★ ★

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات :

صدقوا ما عاهدوا : من الثبات فى القتال مع الرسول ﷺ ، حتى الاستشهاد أو النصر ووفوا بذلك .

قضى نحبه : مات أو قتل فى سبيل الله شهيدًا ووفى نذره ، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر، والنحب : النذر ، فجعل كناية عن الموت .

من ينتظر : الشهادة ، كعثمان وطلحة .

وما بدلوا : العهد ولا نقضوا شيئا منه .

ويعذب المنافقين : بأن يميتهم على النفاق ، فيعذبوا بكفرهم .

أو يتوب عليهم : أو يوفق المستعد منهم للتوبة .

سبب النزول

روى البخارى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر رضى الله عنه : مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ...

وروى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذى ، والنسائى ، عن أنس قال : غاب عمّى أنس بن النضر عن بدر ، فشقّ عليه ، وقال : أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه ، لئن أرانى الله تعالى مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ، ليرينّ الله عز وجل ما أصنع ، قال أنس : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذٍ رضى الله عنه ، فقال له أنس رضى الله عنه : يا أبا عمرو ، أين ؟ واها لريح الجنة ، إنى لأجده دون أحد ، فقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه ، فوجد فى جسده بضع وثمانون ، بين ضربة وطعنة ورمية ، فنزلت هذه الآية : مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ... الآية . وكانوا يرونها نزلت فيه وفى أصحابه[٨٦] .

وذكر الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربًا مع رسول الله ﷺ ، ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم رضى الله عنهم .

التفسير :

٢٣ - مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلاً .

من المؤمنين الصادقين الأوفياء رجال أى رجال ، قد أخلصوا أنفسهم لله ، وعاهدوه على الصدق فى الحرب ، والجدّ فى طلب الشهادة ، ونصرة الإسلام ، فلما جدّ الجدّ ، وكشّرت الحرب عن أنيابها ، خاضوا غمار الحرب ، واصطلوا بنارها ، غير هيّابين ، فمنهم من قُتل شهيدا ، قد أدى واجبه وقدّم روحه لله ، ومنهم من عاد سليمًا معافى ، ينتظر دوره فى الشهادة والفداء ، ولم يغيروا عهدهم مع الله ، ولم ينكصوا على أعقابهم ، كما فعل بعض المنافقين .

٢٤ - لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

لقد اختبر الله الناس بالشدائد والمحن ، والجهاد والقتال ، وسائر أحداث الدنيا ، ليتبين ويظهر المؤمن الصادق المستقيم ، ويظهر الكافر والفاجر والمنافق ، فيكافئ الله الصادقين بالجزاء الأوفى ، وهو

جزاء صدقهم ، ويعذب المنافقين الذين ماتوا على النفاق بدون توبة ، أو يتوب عليهم بأن يوفقهم إلى التوبة، وقد تاب بعض المنافقين وحسن إسلامهم .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

فهو سبحانه يستر على العصاة ، ويتوب على من تاب من الناس ، ولا يعاقبهم على ما مضى بعد التوبة ، فرحمته واسعة ، وفضله عميم ، وهو سبحانه يفتح أبوابه للتائبين ، وفى هذا حث على التوبة والإيمان قبل فوات الأوان ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ . (محمد : ٣١) .

وقوله تعالى : مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ... (آل عمران : ١٧٩).

★ ★ ★

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

الذين كفروا : الأحزاب .

بغيظهم : الغيظ : أشد الغضب والحنق .

لم ينالوا خيرا : غير ظافرين بشىء من مرادهم .

وكفى الله المؤمنين : وقاهم القتال بالريح والملائكة .

ظاهروهم : عاونوهم .

من أهل الكتاب : من يهود بنى قريظة .

من صياصيهم : من حصونهم ، جمع صيصة ، وهى كل ما يمتنع به .

الرعب : الخوف الشديد .

أورثكم : ملككم إياها وجعلها لكم .

وأرضا لم تطؤوها : بعد وهى خيبر ، أخذت بعد قريظة ، وعن عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

تمهيد :

تشير الآيات إلى ختام غزوة الخندق ، فقد كانت البداية بتذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم ، فى إرسال الريح والملائكة على الأحزاب ، ثم عرض لجهود المؤمنين الصادقين ، وصور النفاق والغدر والخور والضعف من المنافقين ، ثم ختم الحديث عن الغزوة بفضله تعالى فى هزيمة الأحزاب ، وعودتهم يجرون أذيال الخيبة والحرمان ، ثم هزيمة بنى قريظة .

التفسير :

٢٥ - وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا .

تبين هذه الآية إتمام الله النعمة على المؤمنين ، برحيل الأحزاب عن المدينة ، مذعورين خائفين فى شدة من الغيظ والحنق ، فقد تفرقت الأحزاب عن المدينة ، ورحلوا فى جنح الظلام ، بعد أن أرسل الله عليهم الريح ، فخلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وألقت الملائكة الرعب فى قلوبهم ، فرحلت الأحزاب وهم فى حالة من الخوف والفزع ، وانصرفت قريش وغطفان بغمهم ، بفوت ما أملوا من الظفر ، فلم ينتصروا فى معركة ، ولم يصيبوا مالاً ولا إسارًا ، ولم يحتج المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلائهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين القتال ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : «لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده» .

وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا .

فالله تعالى قادر على تنفيذ ما يريد ، عزيز لا يغلبه غالب ، فهو سبحانه فعال لما يريد ، وهو على كل شىء قدير .

قال محمد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق قال ﷺ فيما بلغنا : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم» ، فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، وكان رسول الله ﷺ يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله تعالى مكة .

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق صحيح ، كما قال الإمام أحمد ، وروى مثله الإمام البخارى فى صحيحه[٨٧] .

٢٦ – وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا .

تتحدث الآيتان ٢٦ ، ٢٧ عن يهود بنى قريظة ، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق على حسن الجوار ، فللمسلمين دينهم ، ولليهود دينهم ، وإذا هجم عدو على المدينة يتعاون المسلمون واليهود فى الدفاع المشترك عن المدينة ، فلما قدمت الأحزاب لحرب المسلمين نقض بنو قريظة هذا العهد ، وانقلبوا على النبى ﷺ وأصحابه ، وكوَّنوا جبهة متعاونة مع الأحزاب ، وأصاب المسلمين بلاءٌ شديد بسبب ذلك ، فلما أعز الله المسلمين ، ورحلت الأحزاب بدون نصر أو أسرى ، وإنما رحلت كسيرة ذليلة فى خوف وهلع ، عاد المسلمون إلى المدينة ، واستراحوا واغتسلوا ووضعوا أسلحتهم ، فجاء جبريل إلى النبى ﷺ ، وقال له : يا محمد ، إن الملائكة لم تضع السلاح بعد ، اذهب إلى بنى قريظة ، فإن الله ناصرك عليهم ، فنهض ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على بُعد أميال من المدينة ، وقال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة»[٨٨] .

فسار الناس فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلَّى بعضهم فى الطريق ، وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة ، فلم يعنِّف واحدًا من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة عبدالله بن أمّ مكتوم رضى الله عنه ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم نازلهم رسول الله ﷺ ، وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ، رضى الله عنه ، لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ، فحكم سعد ابن معاذ بأن يقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم[٨٩] ، لأنهم لو ظفروا بالمسلمين لأجهزوا عليهم .

ومعنى الآيـة :

وأنزل اليهود الذين ساعدوا الأحزاب ، وعاونوهم على حرب رسول الله ﷺ من حصونهم وقلاعهم التى كانوا يتحصنون بها ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب والخوف ، حتى فتحوا الحصون واستسلموا ، فقتل المسلمون الرجال المقاتلين ، وقتل منهم يومئذ ما بين الثمانمائة والتسعمائة ، وتم أسر النساء والذرية .

قال ابن كثير :

وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ...

وهو الخوف ، لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبى ﷺ ، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ، فانعكس عليهم الحال .

٢٧ - وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا .

غنمتم أرض بنى قريظة ، وصارت حقًا واجبًا لكم كما يجب الحق بالميراث ، وملكتم ديارهم وحصونهم ومتاعهم وأموالهم ، ومواشيهم وأثاثهم وكل ما كانوا يمتلكون ، كما أورثكم ملك أرض أخرى ، لم تطؤوها بعد بأقدامكم ، وهى خيبر لأنها أخذت بعد قريظة ، وقيل : مكة ، وقيل : فارس والروم .

قال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مرادًا .

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا .

فهو سبحانه فعالٌ لما يريد ، وهو على كل شىء قدير ، فقد نصر المؤمنين على الأحزاب ، وعلى بنى قريظة ، ويسر لهم ملك أرض خيبر ، ومكة وفارس والروم ، وكل ما فتحه المسلمون فى أنحاء المعمورة ، كل ذلك بتوفيق الله ، وقدره وقدرته ، وهو سبحانه قدير على أن يملككم ما شاء .

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها والسعة فيها .

فتعالين : أقبلن بإرادتكن واختياركن .

أمتعكن : أى : أعطكن متعة الطلاق، وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة –ملاءة– بحسب السعة والإقتار.

وأسرحكن : أطلقكن .

سراحا جميلا : طلاقًا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة .

بفاحشة : فعلة قبيحة أو معصية كبيرة .

مبينة : ظاهرة القبح ، من قولهم : بيَّن كذا ، بمعنى ظهر وتبين .

ضعفين : ضعفى عذاب غيرهن ، أى : مثليه .

يسيرا : هينا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبى ، بل هذا سبب له .

المناسبة

فى أعقاب رحيل الأحزاب ، ونصر الرسول ﷺ على بنى قريظة ، وغنيمة أموالهم ، رغبت زوجات الرسول ﷺ فى مزيد من المتعة والنفقة ، واجتمعت زوجاته من حوله يقلن : يا رسول الله ، نساء كسرى وقيصر بين الحُلىَ والحُلَل ، والإماء والخدم ، ونساؤك على ما ترى من هذه الحال من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه بمطالبتهن بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، وكان الله تعالى قد خيّر نبيه بين أن يكون نبيًا ملكًا ، أو نبيًا مسكينًا ، فاختار أن يكون نبيًا مسكينًا ، وهى أعلى درجة ، أى: اختار الرسول الأمين أن يكون زاهدًا فى الدنيا ، لا فقرًا ، فقد جاءت الغنائم ، ولكن ترفعًا عن زينة الدنيا ومتعها ، ورغبة فى التسامى بنفسه وروحه ، رغبة فيما عند الله .

التفسير :

٢٨ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

جاء هذا التخيير من الله تعالى ، حيث أمر رسوله ﷺ ، أن يخير نساءه بين أمرين : زينة الدنيا ومالها ومتاعها ، من الثياب والفراش والمال ، وهذا ممكن بعد المتعة والطلاق ، أو الحياة فى بيت الرسول ﷺ ، راغبات فى التزام أمر الله وشرعه ، وطاعة رسوله ﷺ ، وإيثار الآخرة ، وجزاء ذلك الأجر العظيم ، والجزاء الجزيل ، وقد خير الرسول ﷺ نساءه ، وكن تسع نسوة ، فاخترن جميعا الله ورسوله والدار الآخرة ، فعوضهن الله أن جعلهن أمهات المؤمنين ، وحرم على النبى ﷺ تطليقهن ، وأمره ألا يتزوج عليهن .

فى أعقاب الآية

١ - من اختارت الطلاق فلها المتعة ، وهى كسوة للمطلقة حسب حالة الزوج ، قال تعالى : وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ . (البقرة : ٢٣٦) .

٢ - السراح الجميل ، هو الطلاق مع الإحسان ، بلا شكاية ولا إيذاء ، بل بتقديم مؤخر الصداق ، والمكارمة وترضية المطلقة بالمال والمجاملة ، لأنها كانت تأمل أن تعيش فى كنف زوجها ، وأولى بالمسلمين أن يفعلوا ذلك مع المطلقات ، قال تعالى : فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ... (البقرة : ٢٢٩) . ونرجو أن نخفف من ويلات الطلاق ، وأن يكرم الرجال النساء بإغداق الأموال والتعويض والمكارمة ، وإذا

علمنا أن القضاء الأمريكى يعطى للمطلقة نصف الأموال التى اكتسبها زوجها تعويضًا لها ، فأولى بنا أن نكرم المطلقة امتثالاً لأمر الله فى سراح جميل ، وتسريح بإحسان .

٣ - خلاصة معنى الآية :

يا أيها النبى خير زوجاتك بين أمرين :

الأول : الطلاق ولهن عندئذ المتعة وهى الكسوة ، والتسريح أى والطلاق ، سَرَاحًا جَمِيلاً . فراقًا حسنًا بلا مشادة ، بل فيه مكارمة ودفع التعويض والترضية المناسبة .

٢٩ - وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا .

وإذا فضلتم ثواب الله ، ومرضاة رسوله وطاعته، والرغبة فى ثواب الآخرة وهو الجنة ، فنعم الاختيار، لأن الله أعدّ للمحسنة منكن ثوابًا عظيمًا ، تستحقر زينة الدنيا دونه ، ولما اختارت نساء النبى ﷺ جميعًا رسول الله وطاعة الله وثواب الآخرة ، سُرَّ رسول الله ﷺ بذلك ، وعوضهن الله فجعلهن أمهات المؤمنين ، وشكرهن الله على حسن اختيارهن وكرمهن ، فقال : لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ... (الأحزاب : ٥٢)

وقال تعالى : وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ... (الأحزاب : ٥٣) .

ملاحق بتفسير الآيتين (٢٨ ، ٢٩)

١ - عدد زوجاته ﷺ :

عند نزول آيات التخيير بين الدنيا أو الآخرة ، كان عند الرسول ﷺ يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة رضى الله عنهن .

وأربع من غير قريش : زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حيى ابن أخطب النضيرية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية .

ولم يعتبر ذلك التخيير طلاقًا ، لا واحدة ولا أكثر ، لقول عائشة فيما أخرجه الشيخان : خيرنا رسول الله ﷺ ، فاخترناه ، فلم يعدَّه علينا طلاقًا .

٢ - المخيرة :

هى التى خيرها زوجها بين الطلاق أو البقاء مع الزوج ، فإذا اختارت نفسها ، وهى مدخول بها فهو الطلاق كله ، ولا عبرة بإنكار الزوج ، لأن معنى التخيير : التسريح ، والتسريح البتات .

قال الله تعالى : ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ...﴾ (البقرة : ٢٢٩) .

وقال تعالى فى آية التخيير : ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ . والتسريح بإحسان : هو الطلقة الثالثة ، ومعنى التخيير التسريح ، وعلى هذا يكون طلاق المخيرة ثلاثا عند الإمام مالك .

٣ - جعل العصمة فى يد المرأة :

قال ﷺ : «إنما الطلاق لمن أخذ بالساق»[٩٠] .

أى : إن الطلاق حق ثابت للرجل دون المرأة ، لكن الرجل يملك أن يتنازل عن هذا الحق لزوجته عند الحنفية ، ويمكن أن ينص فى العقد على ذلك ، لكنها تستخدم هذا الحق نيابة عن الرجل ، فيقول الرجل : قد جعلت عصمة زوجتى فى يدها ، ولها أن تقول أمامه : لقد ملكتنى عصمة نفسى ، وأنا أملك نيابة عنك حقّ الطلاق ، وإنى أطلق نفسى منك ، وبذلك تصبح طالقة من زوجها .

وجمهور الفقهاء على أن هذا تبديل لحكم الله ، يتضمن مذلة للرجل ، وقلبًا للأوضاع ، ولذلك رفضه جمهور الفقهاء .

٣٠ - ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ .

زوجات الرسول الأمين يظلهن بيت الرسول ﷺ ، وفيه ينزل وحى السماء وتعاليم الله لعباده ، وهن يشاهدن رسول الله أمامهن وهو القدوة والأسوة والمثل الأعلى ، لذلك ضاعف الله عقوبتهن على المعصية ، ولما كان الله قد عصم زوجات النبى ﷺ من ارتكاب فاحشة الزنا ، فإن المراد بالفاحشة المبينة ، القبيح من الأفعال ، كعصيان الله ورسوله ، وطلب ما يشق على الرسول ، ويضيق به ذرعا ، ويغتم لأجله ، إذا فعلت إحدى زوجات الرسول ﷺ ذلك ، فإن الله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين ، أى ضعفى عذاب غيرها ، لأن زلة العالم يقرع بها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل ، فلعلوّ منزلتهن ، ضاعف الله عقوبتهن عند المعصية ، كما ضاعف الله لهن الثواب عند الاستقامة والعمل الصالح .

روى أن رجلا قال لزين العابدين رضى الله عنه : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى ﷺ ، من أن نكون كما قلت ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب ، وقرأ هذه الآية والتى تليها .

جاء فى تفسير القاسمى ما يأتى :

قال القاضى : لأن الذنب منهن أقبح ، فإن زيادة قبحه ، تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ، ولذلك جعل حدّ الحرّ ضعفى حدّ العبد ، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم .

وجاء فى تفسير الفخر الرازى ما ملخصه :

وحكمة مضاعفة العذاب لزوجاته ﷺ ، أن امرأة لو كانت تحت النبى ﷺ، وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبى ، ويكون ذلك الغير خيرًا عندها من النبى وأولى ، والنبى أولى من النفس التى هى أولى من الغير ، فقد نزلت منصب النبى مرتين ، فتعذب من العذاب ضعفين ، واعلم أن الله قد صان زوجات الرسول ﷺ عن الفاحشة ، فقوله تعالى : مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، من باب قوله تعالى : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ... (الزمر : ٦٥) .

وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا .

أى : ليس كونكن تحت النبى ﷺ ، وكونكن شريفات جليلات ، مما يدفع العذاب عنكن ، وليس أمر الله كأمر الخلق ، حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة ، بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم ، أو شفعائهم وإخوانهم[٩١] .

وجاء فى تفسير القرطبى ما خلاصته :

أخبر تعالى أن من جاء من نساء النبى ﷺ بفاحشة ، يضاعف لها العذاب ضعفين ، لشرف منزلتهن ، وفضل درجتهن ، وتقدمهن على سائر النساء أجمع ، وكذلك بينت الشريعة فى غير ما موضع ، أنه كلما تضاعفت الحرمات فهُتكت ، تضاعفت العقوبات ، وقيل : لما كان أزواج النبى ﷺ فى مهبط الوحى ، وفى منزل أوامر الله ونواهيه ، قوى الأمر عليهن ولزمهن ، بسبب مكانتهن ، أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب ، وقيل : إنَّما ذلك لعظم الضرر فى جرائمهن ، بإيذاء رسول الله ﷺ ، فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة ، فى إيذاء رسول الله ﷺ .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ... (الأحزاب : ٥٧) .

واختار هذا القول الكيا الطبرى .

وكان عمر رضى الله عنه كثيرًا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصبح ، وكان إذا بلغ: يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ ... رفع بها صوته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أذكرهن العهد .

وقرأ الجمهور : مَن يَأْتِ . بالياء ، وقرأ يعقوب : مَن تَأْتِ ، و : تقنت ، بالتاء من فوق .

وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهى الزنا واللواط ، وإذا وردت منكرة فهى سائر المعاصى ، وإذا وردت منعوتة فهى عقوق الزوج وفساد عشرته ، وقالت فرقة : بل قوله : بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ . تعم جميع المعاصى ، وكذلك الفاحشة كيف وردت .

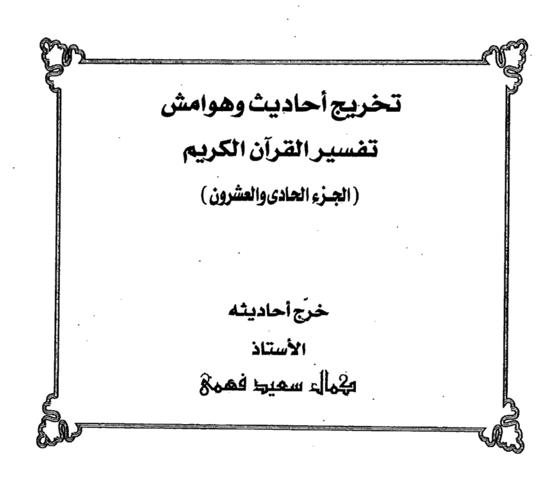
قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبىٍ قط ، وإنما خانت فى الإيمان والطاعة .

وقال بعض المفسرين : العذاب الذى توعدن به ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ . هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فكذلك الأجر[٩٢]

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وزوجاته أمهات المؤمنين ، فقد أدين الرسالة ، ونصحن الأمة ، وكن مثلاً أعلى فى الاستقامة والعفة ، ونصح المؤمنين والمؤمنات . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء (الحادى والعشرين)



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجزء الحادى والعشرون)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

جمال سعيد فهمي

(١) الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣) ، وأحمد في مسنده (٩٠١٧) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» .

(٢) لا تصدقوا أهل الكتاب :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٥) وفي الاعتصام (٧٣٦٢) وفي التوحيد (٧٥٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ الآية .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٠ .

(٤) البلاد بلاد الله والعباد عباد الله :

رواه أحمد في مسنده (١٤٢٣) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرًا فأقم» .

(٥) لا هجرة بعد الفتح :

رواه البخاري في الجهاد (٢٧٨٣ ، ٢٨٢٥) ، والترمذي في السير (١٥٩٠) ، والدارمي في السير (٢٥١٢) (١٩٩٢ ، ٣٣٢٥) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» . ورواه البخاري في المناقب (٣٨٩٩) وفي المغازي (٤٣١١) من حديث عبد الله بن عمر . ورواه مسلم في الإمارة (١٨٦٤) من حديث عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» . وفي الباب عن : أبي سعيد الخدري ، ومجاشع بن مسعود .

(٦) إن في الجنة غرفا ترى ظهورها :

رواه الترمذي في البر (١٩٨٤) وفي الجنة (٢٥٢٦) ، وأحمد في مسنده (١٣٤٠) من حديث علي قال : قال النبي ﷺ : «إن في الجنة غرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها» ، فقام أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال: «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

٧) لو أنكم توكلون على الله حق توكله :

رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٤) ، وابن ماجة في الزهد (٤١٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢٠٥ ، ٣٧٢) من حديث عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو تميم الجيشاني اسمه عبد الله بن مالك .

(٨) من أصبح منكم آمنا في سربه :

رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) ، وابن ماجة في الزهد (٤١٤١) من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي ، عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية . وحيزت: جمعت .

(٩) انظر تفسير الجلالين ، والطبري ، ومقاتل بن سليمان ، وظلال القرآن ، وفي أسباب النزول للواحدي .

(١٠) فى تفسير الجلالين أن نصر الروم كان يوم بدر ، فإذا لاحظنا أن نزول سورة الروم كان قبل الهجرة بسنة ، رجحنا ما ورد فى تفسير مقاتل بن سليمان من أن نصر الروم على الفرس جاء خبرة للمسلمين وهم فى الحديبية (٦ هجريًا) وبذلك يكون بين الهزيمة والنصر بضع سنين ، أو سبع سنين .

(١١) التفسير المنير أ . د وهبة الزحيلى ٤٩/٢١ ، وتفسير القاسمى ٤٥٦/١٣ تحقيق أ . محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

(١٢) تفسير القاسمى .

(١٣) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣٢٤٤ ، وفى التفسير ح ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، وفى التوحيد ح ٧٤٩٨ ، ومسلم فى الجنة ح ٢٨٢٤ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٩٧ ، ٣٢٩٢ ، وابن ماجة فى الزهد ح ٤٣٢٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٨٢٨ من حديث أبى هريرة .

(١٤) باسمك رب وضعت جنبى وبك أرفعه :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) وفى التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم فى الذكر (٢٧١٤) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم يقول : باسمك رب وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» .

(١٥) الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣١٢ ، ٦٣١٤ ، ٦٣٢٤) والترمذى فى الدعوات (٣٤١٧) وأحمد فى مسنده (٢٢٧٦٠) من حديث حذيفة بن اليمان قال : كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : «باسمك أموت وأحيا» وإذا قام قال : «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» . ورواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال : «اللهم باسمك أموت وأحيا» ، فإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» .

(١٦) اللهم غارت النجوم وهدأت العيون :

قال الهيثمى فى المجمع : عن زيد بن ثابت قال : أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : قل : «اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وأنت حى قيوم ، يا حى يا قيوم أنم عينى وأهدئ ليلى» فقلتها فذهب عنى. وقال : رواه الطبرانى وفيه عمرو بن الحصين العقيلى وهو متروك. وذكره مالك فى الموطأ كتاب النداء للصلاة فقال : وحدثنى عن مالك أنهم بلغهم أن أبا الدرداء كان يقوم من جوف الليل فيقول : نامت العيون وغارت النجوم وأنت الحى القيوم . فذكره هكذا من قول أبى الدرداء . وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على من وصله ، ولا أسنده ابن عبد البر مع تتبعه لذلك... إلخ . الفتوحات الربانية ١٧٧/٣ .

(١٧) اللهم رب السماوات السبع :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٣) من حديث بريدة قال : شكا خالد بن الوليد المخزومى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق ، فقال النبى ﷺ : «إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السماوات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعًا أن يفرط على أحد منهم أو أن

يبغى ، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك لا إله إلا أنت» . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بالقوى ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث ، ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ مرسلا من غير هذا الوجه .

(١٨) التفسير الكبير لفخر الدين الرازى ، دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان ، طبعة جديدة ملوّنة ، المجلد التاسع ص ٩٩.

(١٩) عجبًا لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم فى الزهد (٢٩٩٩) ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(٢٠) والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم :

رواه البخارى فى بدء الوحى (٤) وفى الحوالة (٢٢٩٨) وفى المناقب (٣٩٠٦) وفى التفسير (٤٩٥٤) ومسلم فى الإيمان (١٦٠) من حديث عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة .. الحديث . وفيه : فقال لخديجة وأخبرها الخبر : «لقد خشيت على نفسى»، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ... الحديث .

(٢١) تفسير القاسمى المجلد الخامس ، ص ٤٦٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى مطبعة دار إحياء التراث العربى بيروت ، لبنان.

(٢٢) تفسير القاسمى المجلد الخامس ص ٤٦٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، مطبعة دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان ، وهناك بقية الأدلة .

(٢٣) رجح ذلك الرأى د . محمد سيد طنطاوى فى تفسير الآية .

(٢٤) من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم فى الزكاة (١٠١٤) والترمذى فى الزكاة (٦٦١) والنسائى فى الزكاة (٢٥٢٥) وابن ماجة فى الزكاة (١٨٤٢) والدارمى فى الزكاة (١٦٧٥) وأحمد فى مسنده (٨١٨١، ٨٧٣٨ ، ٩١٤٢ ، ٩٢٨١ ، ٩٧٣٨ ، ١٠٥٦٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» ، ورواه أحمد فى مسنده (٢٥٦٠٤) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد» .

(٢٥) من رد عن عرض أخيه :

رواه الترمذى فى البر (١٩٣١) وأحمد فى مسنده (٢٦٩٨٨) من حديث أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٢٦) تفسير القاسمى المجلد الخامس ص ٤٦٩ مطابع دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .

(٢٧) فى ظلال القرآن ٢١ / ٥٤ طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(٢٨) والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم :

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٧٦) من حديث أبى طلحة أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : «يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا» ؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ، فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ، قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا وحسرة وندمًا . ورواه البخارى فى الجنائز (١٣٧٠) وفى المغازى (٤٠٢٦) من حديث ابن عمر قال : اطلع النبى ﷺ على أهل القليب فقال : «وجدتم ما وعد ربكم حقا» ؟ فقيل له : تدعو أمواتا ، فقال : «ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون» . ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٣) من حديث أنس : كنت مع عمر ح وحدثنا شيبان بن فروخ واللفظ له ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال وكنت رجلا حديد البصر فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيرى ، قال : فجعلت أقول لعمر: أما تراه ، فجعل لا يراه قال عمر : سأراه وأنا مستلق على فراشى ، ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال : إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله قال : فقال عمر : فوالذى بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ قال : فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليه فقال : «يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًا فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقًا»؟ قال عمر : يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها ؟ قال : «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئًا» . ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٥) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال : «يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا»؟ فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ قال : «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» ، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر .

(٢٩) السلام عليكم دار قوم مؤمنين :

رواه مسلم فى الجنائز (٩٧٤) والنسائى فى الجنائز (٢٠٣٩) وأحمد فى مسنده (٢٣٩٠٤) من حديث عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد». ولم يقل قتيبة قوله : وأتاكم .

(٣٠) انظر تفسير ابن كثير ، وتفسير الآلوسى ، وتفسير الطبرى ، وتفسير القاسمى ، والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، والتفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلى .

(٣١) تفسير القاسمى .

(٣٢) انظر تفسير القرآن للشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٨ - ٦٦٠ هـ) ، اختصار النكت للماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ) تحقيق د . عبدالله بن إبراهيم الوهيبى طبع ونشر المحقق ، السعودية ، الإحساء ، ص ب ١٧٣٠ هاتف ٥٨٢٠٤٤١ . قال المحقق : راجع فتح البارى (٢/ ٤٤٠ - العيدين ، ٩ / ٢٠٢ - النكاح ، ١٠/ ٥١ - الأشربة) . وصحيح مسلم (٢/ ٦٠٧ - صلاة العيدين - ٤) والمحلى لابن حزم (٥/ ٩٢) . اهـ .

وقد ذكر علماؤنا أن الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ويمكن أن يقاس عليه الغناء فالحسن منه والقليل منه فى أيام الأعياد والزواج ، والأناشيد عند الأعمال الشاقة حسن ولهو مباح ، وما كان فيه ميوعة أو تخنث أو إغراء بالمحرم فحرام .

(٣٣) دخل أبو بكر وعندى جاريتان من جوارى الأنصار :

رواه البخارى فى الجمعة (٩٥٢) وفى المناقب (٣٩٣١) ، ومسلم فى المناقب (٨٩٢) والنسائى فى العيدين (١٥٩٣) وابن ماجة فى النكاح (١٨٩٨) وأحمد فى مسنده (٢٣٥٢٩ ، ٢٤١٦١ ، ٢٤٤٣١) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : دخل أبو بكر وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث ، قالت : وليستا بمغنيتين فقال أبو بكر : أمزامير الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ، وذلك فى يوم عيد فقال رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر ، إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا» .

(٣٤) أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم :

رواه ابن ماجة فى النكاح (١٩٠٠) وأحمد فى مسنده (١٤٧٧٨) من حديث ابن عباس قال : أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول الله ﷺ فقال : «أهديتم الفتاة»؟ قالوا : نعم ، قال : «أرسلتم معها من يغنى»؟ قالت : لا ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم» .

(٣٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب الحادى والأربعون ص ٨٢ – ٨٣ ، وبهامشه ما يأتى:

فى السنن الكبرى للبيهقى ج ٧ ص ٢٨٩ أن عمرة بنت عبدالرحمن قالت : كانت النساء إذا تزوجت المرأة أو الرجل خرج جوارى الأنصار يغنين ويلعبن فمروا فى مجلس فيه رسول الله وهن يغنين ويقلن :

أهدى لها زوجها أكبشًا	يبحبحن فى المربد
وزوجها فى النادى	يعلم ما فى غد

فقال : «سبحان الله ، لا يعلم ما فى غد إلا الله ، لا تقولوا هكذا، وقولوا : أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم» .

قال البيهقى : هذا مرسل جيد . هامش جمع الجوامع ص ٢٣٣٨ العدد ١٩ من الجزء الثانى تفسير القرآن العظيم إسماعيل ابن كثير تحقيق سامى بن محمد السلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع السعودية . الرياض ج ٦ ص ٣٣٢ .

(٣٦) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى البرسوى ، دار إحياء التراث العربى بيروت – لبنان مجلد ٧ ص ٧١ .

(٣٧) تفسير ابن كثير تحقيق سامى بن محمد السلامة ، دار طيبة السعودية الرياض ٣٣٣/٦ .

(٣٨) أينا لم يظلم :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٢) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠ ، ٣٤٢٨ ، ٣٤٢٩) وفى التفسير (٤٦٢٩ ، ٤٧٧٦) وفى استتابة المرتدين (٦٩١٨ ، ٦٩٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٢٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٦٧) وأحمد فى مسنده (٣٥٧٨ ، ٤٢٢٨) من حديث عبد الله قال : لما نزلت : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم...﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ : أينا لم يظلم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ .

(٣٩) أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٧٧) ومسلم فى الإيمان (٨٦) ، من حديث عبد الله بن مسعود قال : سألت النبى ﷺ: أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك» ، قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تزانى حليلة جارك» .

(٤٠) جامع البيان فى تأويل آى القرآن تأليف أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ٧٠/٢١ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٦٨م .

(٤١) إذا سمعتم صياح الديكة :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٣٠٣) ومسلم فى الذكر (٢٧٢٩) وأبو داود فى الأدب (٥١٠٢) والترمذى فى الدعوات (٣٤٥٩) وأحمد فى مسنده (٨٠٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكا ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطانًا» .

(٤٢) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد فى مسنده (٨٥٩٥) من حديث أبى هريرة .

(٤٣) إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة :

رواه الترمذى فى البر (٢٠١٨) من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلي وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : «المتكبرون» . وقال الترمذى : حديث حسن غريب. ورواه أحمد فى مسنده (١٧٢٧٨) من حديث أبى ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحبكم إلى وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني فى الآخرة مساويكم أخلاقًا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» . ورواه أحمد فى مسنده (٨٦٠٤) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بشراركم» فقال: «هم الثرثارون المتشدقون ، ألا أنبئكم بخياركم أحاسنكم أخلاقًا» .

(٤٤) يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار :

رواه مسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٧) وأحمد فى مسنده (١٢٦٩٩) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ فى النار صبغة ، ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط» .

(٤٥) مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٢٧ ، ٤٦٩٧ ، ٤٧٧٨) وفى التوحيد (٧٣٧٩) وأحمد فى مسنده (٤٧٥٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما فى غد إلا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» .

(٤٦) أى سورة السجدة المجاورة لسورة لقمان .

(٤٧) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢١/٩٢ .

(٤٨) عقد مؤتمر علمى عالمى فى الولايات المتحدة الأمريكية حوالى سنة ١٩٩٥ م ، وذكر أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، أما عمر وجود الإنسان فى هذا الكون فمدته حوالى سبعة بلايين سنة ، أى أن المدة التى قضاها الكون ليتحول من كرة ملتهبة ، إلى دنيا صالحة للحياة ، فيها سماء وأرض وهواء ، هى ستة بلايين سنة ، ونحن لا نحكم هذه المعلومات فى تفسير الآية ، وإنما نستأنس بها بجوار فهمنا للآية ، وقد تحدثت عن هذا الموضوع فيما سبق من التفسير .

(٤٩) قال الفخر الرازى :

وهذا مثل ما يقول القائل لغيره :

إن يومًا ولدت فيه ... كان يوما مباركا

وقد يجوز أن يكون قد ولد ليلا ، ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته . ا هـ .

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى مجلد ٩ ص ١٣٦ - ١٣٩ وانظر تفسير المراغى ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى .

(٥٠) فى ظلال القرآن ٢١/١٠١ مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(٥١) تفسير القرطبى المجلد ٦ ص ٥٣٢٧ دار الغد العربى القاهرة .

(٥٢) تفسير القاسمى ، محمد جمال الدين القاسمى المتوفى ١٣٢٢ هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان المجلد الخامس ص ٤٨٦ .

(٥٣) فى غزوة تبوك .

(٥٤) لقد سألتنى عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه :

رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦١٦) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٣) وأحمد فى مسنده (٢١٥١١) من حديث معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار ، قال : «لقد سألتنى عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» ، ثم قال : «ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل» ، قال : ثم تلا : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ حتى بلغ ﴿يعملون﴾ ثم قال : «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه»؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد» ، ثم قال : «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ قلت : بلى يا نبى الله ، فأخذ بلسانه وقال : «كف عليك هذا» ، فقلت : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : «ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥٥) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٤) ، وفى التفسير (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، وفى التوحيد (٧٤٩٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤) والترمذى فى التفسير (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) ، وابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٨) ، وأحمد (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١) ، والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٥٦) انظر تفسير القرطبى مجلد ٦ ص ٥٣٣٨ ففيه طائفة من الأحاديث كما تجد ذلك فى تفسير ابن كثير ، والتفسير المنير ، وتفسير المراغى وغيرها .

(٥٧) ما أدنى أهل الجنة منزلة :

رواه مسلم فى الإيمان (١٨٩) والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٩٨) من حديث المغيرة بن شعبة يرفعه قال : سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول: رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب ، قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصداقه فى كتاب الله عز وجل: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ الآية .

(٥٨) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

تقدم تخريجه ، انظر هامش رقم (٥٥) .

(٥٩) تفسير القرطبى المجلد ٦ ص ٥٣٣٨ مطابع دار الغد العربى .

(٦٠) تفسير القرطبى مجلد ٦ / ٥٣٣٩ .

(٦١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى المجلد ٩ ص ١٩٢ ، دار إحياء التراث العربى بيروت ، لبنان .

(٦٢) لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة :

رواه البخارى فى المغازى (٤١١٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ يوم الأحزاب : «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة» ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم: بل نصلى لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحدا منهم .

(٦٣) فى ظلال القرآن ١١٩/٢١ مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(٦٤) تفسير القرطبى المجلد ٦ ص ٥٣٥٢ ، دار الغد العربى العباسية القاهرة .

(٦٥) إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا : يا رسول الله كيف انشراح صدره ؟ قال : «إذا دخل النور

القلب انشرح وانفسح» . قلنا : يا رسول الله فما علامة ذلك ؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه الحاكم فى المستدرك من حديث ابن مسعود .

(٦٦) صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى ، المجلد الثانى ص ٥١٢ دار القرآن الكريم بيروت .

(٦٧) أنت أخونا ومولانا :

رواه البخارى فى الصلح (٢٧٠٠) وفى المغازى (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب قال : اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقالوا : لا نقر بها فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ، لكن أنت محمد بن عبد الله ، قال : «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله» .. الحديث وفيه : وقال لعلى : «أنت منى وأنا منك» وقال لجعفر : «أشبهت خلقى وخلقى»، وقال لزيد : «أنت أخونا ومولانا» .

٦٨) ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد :

رواه البخارى فى التفسير (٤٧٨٢) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٠٩) وفى المناقب (٣٨١٤) وأحمد فى مسنده (٥٤٥٥) من حديث عبد الله بن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

٦٩) ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٠٨) ومسلم فى الإيمان (٦١) وأحمد فى مسنده (٢٠٩٥٤) من حديث أبى ذر أنه سمع النبى ﷺ يقول: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر ، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم فليتبوأ مقعده من النار».

(٧٠) قد فعلت :

رواه مسلم فى الإيمان (١٢٦) من حديث ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية : ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ قال : دخل قلوبهم منها شيء فقال النبى ﷺ : «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا». قال : فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله تعالى : ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال : قد فعلت ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال : قد فعلت ﴿واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا﴾ قال : قد فعلت .

(٧١) إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب :

رواه البخارى فى الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٧١٦) وأبو داود فى الأقضية (٣٥٧٤) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣١٤) وأحمد فى مسنده (١٧٣٢٠) من حديث عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» .

(٧٢) إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان :

رواه ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٣) من حديث أبى ذر الغفارى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . ورواه ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . قال البوصيرى فى الزوائد : إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع.

والظاهر أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن نمير فى الطريق الثانى وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان يدلس . قال المناوى فى فيض القدير : (عن ابن عباس) قال الزيلعى : سنده ضعيف ورواه الطبرانى باللفظ المذكور وقال الهيثمى : وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح وقال ابن حجر : أخرجه الفضل التميمى فى فوائده بإسناد ابن ماجة بلفظ رفع بدل وضع ورجاله ثقات إلا أنه أعل بعلة غير قادحة فإنه من رواية الوليد عن الأوزاعى عن عطاء عن ابن عباس وقد رواه بشر بن بكر عن الأوزاعى فزاد عبيد بن عمير بن عطاء وابن عباس وأخرجه الحاكم والدارقطنى . انتهى . وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث ثوبان عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تجاوز عن أمتى ثلاثة الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» . وقال : رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو ضعيف . قال المناوى فى فيض القدير : (ثوبان) رمز المصنف لصحته وهو غير صحيح فقد تعقبه الهيثمى بأن فيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو ضعيف ا هـ . وقصارى أمر الحديث أن النووى ذكر فى الطلاق من الروضة أنه حسن ولم يسلم له ذلك بل اعترض باختلاف فيه وتباين الروايات ويقول ابن أبى حاتم فى العلل عن أبيه هذه أحاديث منكرة كأنها موضوعة وذكر عبد الله بن أحمد فى العلل أن أباه أنكره ونقل الخلال عن أحمد من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف الكتاب والسنة وقال ابن نصر : هذا الحديث ليس له سند يحتج بمثله ا هـ . وقد خفى هذا الحديث على الإمام ابن الهمام فقال : هذا الحديث يذكره الفقهاء بهذا اللفظ ولا يوجد فى شيء من كتب الحديث . وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال مثله مثل حديث قبله عن النبى ﷺ : «وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف

وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث عمر عن النبى ﷺ قال مثله . قلت مثل حديث قبله عن النبى ﷺ : «وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وغيره وفيه كلام لا يضر ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٧٣) إن الله عز وجل بعث محمدًا ﷺ بالحق :

رواه أحمد فى مسنده (٣٣٣) من حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : إن الله عز وجل بعث محمدًا ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب فكان مما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ثم قال : قد كنا نقرأ : ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أو إن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم ، ثم إن رسول الله ﷺ قال : «لا تطرونى كما أطرى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا : عبده ورسوله» وربما قال معمر : كما أطرت النصارى ابن مريم .

(٧٤) الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب :

رواه البخارى فى المناقب (٣٨٥٠) من حديث ابن عباس قال : خلال من خلال الجاهلية الطعن فى الأنساب والنياحة ونسى الثالثة قال سفيان : ويقولون إنها الاستسقاء بالأنواء . ورواه مسلم فى الجنائز (٩٣٤) وابن ماجة فى الجنائز (١٥٨١) وأحمد فى مسنده (٢٢٣٩٦) من حديث أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال : «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة» وقال : «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» .

(٧٥) التفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلى ٢١/٢٤٢ .

(٧٦) ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا :

رواه البخارى فى الحوالة (٢٢٩٧) وفى الاستقراض (٢٣٩٩) وفى التفسير (٤٧٨١) وفى النفقات (٥٣٧١) وفى الفرائض (٦٧٣١، ٦٧٤٥) ومسلم فى الفرائض (١٦١٩) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به

فى الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ومن ترك دينًا أو ضياعًا فليأتنى فأنا مولاه» .

(٧٧) أخرجه الشيخان ، وانظر تفسير القرطبى مجلد ٦ ص ٥٣٦٠ .

(٧٨) تفسير القرطبى مجلد ٦ ص ٥٣٦٢ مطبعة دار الغد العربى القاهرة .

(٧٩) حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات :

رواه البخارى فى فضائل أصحاب النبى ﷺ (٣٨٠٤) وفى المغازى (٤١٢١) ومسلم فى الجهاد (١٧٦٨ ، ١٧٦٩) .

(٨٠) أخرجه البخارى باب علامات النبوة فى الإسلام حديث رقم ١٧٠٣ .

(٨١) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

(٨٢) يشير إلى قوله تعالى : ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (آل عمران : ١٢٢) .

(٨٣) الأعيار جمع عير وهو الحمار ، العوارك : النساء الحيَّض .

(٨٤) انظر تفسير ابن كثير .

(٨٥) تفسير القرطبى مجلد ٦ ص ٥٣٩٣ طبعة دار الغد العربى العباسية القاهرة .

(٨٦) لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٠٦) وفى التفسير (٤٧٨٣) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٣) من حديث أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه ، قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ إلى آخر الآية وقال : إن أخته وهى تسمى الربيع كسرت ثنية امرأة فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص فقال أنس : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا نكسر ثنيتها فرضوا بالأرش وتركوا القصاص ، فقال رسول الله ﷺ : «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» .

(٨٧) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وقارن بالتفسير المنير أ . د وهبة الزحيلى ، وتفسير ابن كثير.

(٨٨) لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٦٢) .

(٨٩) تفسير ابن كثير ، وزاد المسير ، والتسهيل فى علوم التنزيل .

(٩٠) إنما الطلاق لمن أخذ بالساق :

رواه ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٨١) من حديث ابن عباس قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : يا رسول الله إن سيدى زوجنى أمته وهو يريد أن يفرق بينى وبينها ، قال : فصعد رسول الله ﷺ المنبر فقال : «يا أيها الناس ما بال أحدكم يزوج عبده أمته ثم يريد أن يفرق بينهما إنما الطلاق لمن أخذ بالساق» .

(٩١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى مجلد ٩ ص ١٦٦ .

(٩٢) تفسير القرطبى مجلد ٦ ص ٥٤١٢ ، دار الغد العربى – القاهرة .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله تعالى

وبها تم الجزء (الحادى والعشرون)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (الحادى والعشرون)

ويليه الجزء (الثانى والعشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثانى والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



آداب بيت النبوة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

يقنت : يطع ويخضع .

نؤتها أجرها مرتين : نضاعف لها أجر عملها الصالح ، حتى يكون ضعف عمل امرأة أخرى من غير نساء النبى.

رزقا كريما : فى الجنة .

لستن كأحد من النساء: لستن كجماعة من النساء فى الفضل ، فمقامكن أرفع وأفضل ، بشرط تقواكن لله .

إن اتقيتن : بل أنتن أشرف وأفضل بشرط تقواكن لله .

فلا تخضعن بالقول : فلا تجئن بالقول خاضعا لينا .

مرض : مرض النفاق ، أو مرض الشهوة .

قولا معروفا : قولا معروفا بالجد .

وقرن فى بيوتكن : اقررن فى بيوتكن ولا تخرجن منها إلا لحاجة ، وهو من القرار فى المكان بمعنى الثبوت فيه ، وفتح القاف فى (قَرْنَ) قراءة حفص ، وقرأ الجمهور بكسرها (وقِرن) وهو من الوقار .

ولا تبرجن : ولا تتزين وتخرجن متبخترات ، تبدين من محاسنكن ما يجب ستره .

الرجس : الذنب والدنس والرذائل .

آيات الله : القرآن الجامع لكونه آيات الله .

الحكمة : السنة .

لطيفا : اللطف من الله : الرفق والتوفيق والعصمة .

خبيرا : عالمًا بدقائق الأمور .

التفسير :

٣١ - وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .

هذه الآية والتى قبلها ، واللائى بعدها ، آداب من الله تعالى لنساء النبى ﷺ .

والمعنى :

ومن يطع منكن الله ورسوله فى قنوت وخشوع وإخبات ، وتستمر على العمل الصالح من صلاة وزكاة، وطاعة لرسول الله والتزام ما يرضيه ، وتجنب مطالبته بما ليس عنده ، هذه يضاعف الله لها الثواب مرتين، وأعد الله لها رزقًا كريمًا منه سبحانه فى الجنة ، أو فى الدنيا والآخرة ، فكما ضاعف الله العذاب لمن عصت منهن ، ضاعف سبحانه وتعالى الثواب لمن أطاعت منهن ، رفعًا لمنزلتهن ، وإكرامًا لهن .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن الربيع بن أنس ، فى حاصل معنى هذه الآية والتى قبلها قال : من عصت منكن فإن العذاب يكون عليها ضعف سائر نساء المؤمنين ، ومن عملت صالحًا منكن ، فإن أجرها يكون ضعف سائر نساء المسلمين . وهذا يستدعى أنه إذا أثيب سائر نساء المسلمين على الحسنة بعشر أمثالها ، أثبن على الحسنة بعشرين مثلاً ، وإن زيد للنساء على العشر شيء زيد لهن ضعفه . ا هـ .

والله تعالى يضاعف لمن يشاء ، بحسب نية العبد وظروفه ، ولا حرج على فضل الله فى العطاء والجزاء ، فهو سبحانه واسع الكرم والعلم ، والله واسع عليم .

٣٢ - يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا .

لقد فضل الله زوجات الرسول ﷺ ، فجعلهن أمهات المؤمنين ، ورفع الله منزلتهن ، وضاعف لهن الثواب إن أطعن ، وضاعف لهن العقاب إن عصين .

ومعنى الآيـة :

يا زوجات النبى أمهات المؤمنين ، إنكن لستن كجماعات النساء ، إنَّ شرفكنَّ أعظم ، ومقامكن أسمى ، ما دمتن فى طاعة لله ، والتزام أمره واجتناب نواهيه ، والتمسك بالتقوى ، فالْزمْن التقوى ، فإنها مصدر الشرف والعـز .

فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا .

ينبغى أن يكون كلامكن جزلاً ، ونطقكن فصلا ، بدون لين فى القول ولا تكسر ، ولا ريبة ولا تخنُّث ، حتى لا يطمع فى الفاحشة من كان فى قلبه نفاق ، أو رغبة فى الفسوق ، أو الإكثار من محادثة النساء .

وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا .

ليكن كلامكن بجد وحزم ، وقوة واستقامة ، تقطع الطريق على كل فاجر أو فاسق ، وليس هذا الوصف خاصًّا بزوجات الرسول ﷺ ، بل نساء الأمة تبع فيه لزوجات الرسول ﷺ ، فالمرأة حين تخاطب زوجها تميل إلى اللين والخضوع ، وترخيم الصوت وترقيقه ، وحين تخاطب الأجانب تميل إلى الجد والحزم والقوة ، حتى لا يطمع فيها من فى قلبه شهوة ، ورغبة فى الفجور ، وهذا النهى لا يعنى أن أزواج النبى ﷺ على حال من السوء تقتضى المنع والكفّ ، وإنما المراد رسم المثل الأعلى والطريق الأسمى لهن وللنساء المسلمات .

كما قال تعالى فى مطلع السورة : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ... فإذا نودى الرسول ﷺ بذلك فمن باب أولى عامة المسلمين ، وكذلك إذا أمرت زوجات الرسول ﷺ بالجد فى القول ، والبعد عن الريبة ، وإطماع الرجال ، فذلك من باب التوجيه الأسمى من الله رب العالمين .

قال تعالى : وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ . (الزمر : ٦٥) .

لكن الخطاب هنا للرسول ﷺ ، والمراد أمَّته ، أو كل من يتأتى منه الخطاب ، أو للتهييج على لزوم التوحيد والبعد عن الشرك .

٣٣ - وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا .

أى : الْزمْنَ القرار فى بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا بسبب مشروع ، مثل : إقامة الصلاة فى المسجد ، أو حضور العلم ، أو زيارة الوالدين ، أو المشاركة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو المشاركة فى

كل ما أمر به الله ، وحثت عليه الشريعة ، مثل شهود الجمع والجماعات ، وشهود نعم الله تعالى فى البر والبحر ، والنباتات والزراعة ، ما دام ذلك يتم فى تمسك بالمظهر الحسن ، والاحتشام فى الملبس ، وعدم إظهار المفاتن التى تحرك الشهوة فى الرجال ، وقد كانت المرأة فى الجاهلية ترسل خمارها على ظهرها وتبدى أقراطها ورقبتها ، وزينتها ودلالها ، بما يثير الإعجاب فى نفوس الرجال ، فقال القرآن :

وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ...

أى : لا تبدين محاسنكن التى أمر الله بسترها ، مثل كشف الرقبة أو الصدر أو الظهر ، أو التبختر والتكسر من المرأة فى مشيتها وصوتها لفتنة الرجال .

وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ ...

حافظن على إقامة الصلاة تامة الأركان ، فى خشوع وخضوع ، لأن الصلاة وسيلة إلى طهارة النفس، والبعد عن الرذائل ، وهى وسيلة للتحلى بالفضائل .

وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ...

أخرجن الزكاة ، ففيها حق للفقير ، حتى لا يحس أنه ضائع ولا جائع ، وفيها حق لله تعالى الذى أعطانا المال ، وفيها حق للمجتمع الذى نعيش فيه ، ويربح منه التاجر ، ويكسب منه العامل ، والزكاة وسيلة من وسائل تماسك المجتمع وقوته .

وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ...

وذلك يشمل كل طاعة لله ورسوله ، فى التزام هدى الإسلام وأوامره ، وتجنب نواهيه .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا .

إنما أراد الله سبحانه بتلك الأوامر والتوجيهات تطهير أمهات المؤمنين من المعاصى والذنوب ، وتعمير قلوبهن بنور الإيمان ، وبذلك تكون الطاعة وسيلة عملية إلى تزكية النفس وطهارتها ، وعلوّ منزلتها ، وأهل البيت : كل من لازم النبى محمدًا ﷺ ، من الأزواج والأقارب ، وتوجيه الأوامر لهم لأنهم قدوة .

روى الإمام أحمد ، والترمذى ، عن أنس بن مالك قال : إن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة رضى الله عنها ، ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : «الصلاة يا أهل البيت : إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» [1].

وأهل البيت النبوى : هم نساؤه ﷺ ، وقرابته منهم العباس ، وأعمامه ، وبنو أعمامه منهم .

وقال الفخر الرازى فى تفسير الآية :

والأولى أن يقال : هم أولاده ، وأزواجه ، والحسن ، والحسين ، وعلى منهم لأنه كان من أهل بيته ، بسبب معاشرته بنت النبى ﷺ ، وملازمته للنبى ﷺ .

وقال القرطبى : والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم[٢] .

٣٤ – وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا .

تذكرن أنكن فى بيت النبوة ، حيث يهبط الوحى ، ويعانى رسول الله ﷺ أماكن من برحاء الوحى ، وهذه قدوة عملية للسُنة العملية والقولية ، فتذكرن ذلك ، ويلغنه للمسلمين ، حتى يعم ذلك الخير للمسلمين أجمعين ، وهى حكمة إلهية عليا ، إذ جعل زوجاته وسيلة لإبلاغ المسلمات والمسلمين أحكام الشريعة وما نزل من الوحى ، فهو سبحانه لطيف بعباده خبير بأعمالهم .

قال ابن العربى : فى هذه الآية مسألة بديعة ، وهى أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علّمه من الدين ، فكان إذا قرأه على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض ، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه ، أن يخرج إلى الناس ، فيقول لهم : نزل كذا ، ولا كان كذا ، ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال[٣] .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

المسلمين : الداخلين فى الإسلام ، والإسلام هو : الانقياد والخضوع لأمر الله .

المؤمنين : المصدقين بأركان الإيمان ، والإيمان هو : التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهى .

القانتين : الخاضعين لله ، المداومين على الطاعة ، والقنوت هو : الطاعة فى سكون .

الخاشعين : المتواضعين لله بقلوبهم وأعضائهم ، والخضوع هو : السكون والطمأنينة .

والحافظين فروجهم : عن الحرام .

والذاكرين الله : بقلوبهم وألسنتهم .

مغفرة : غفرانًا يمحو ذنوبهم .

وأجرا عظيما : ثوابًا جزيلاً على طاعتهم ، وهو نعيم الآخرة .

سبب النزول :

أخرج الإمام أحمد ، والنسائى ، وابن جرير ، عن عبدالرحمن بن شيبة قال : سمعت أم سلمة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ تقول : قلت للنبى ﷺ : ما لنا لا نُذْكر فى القرآن كما يُذْكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه ذات يوم ، إلا ونداؤه على المنبر : «يا أيها الناس ، إن الله تعالى يقول : إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ....»[٤] .

التفسير :

٣٥ – إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ ... الآية .

الآية – كما ترى – وسام على صدر كل مسلم ومسلمة ، ملتزم وملتزمة بأحكام الإسلام وصفاته ، وفيها رفع لشأن المرأة ، وتمجيد لصفاتها الحسنة ، حيث قرن الرجال والنساء فى عشر صفات ، كلها تعبر عن السلوك الحسن ، والصفات الكريمة .

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ ...

الذين دخلوا فى الإسلام ، والإسلام يشمل الالتزام بالأركان والآداب والتشريعات التى شرعها الله فى كتابه الكريم .

وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ...

الذين استقر الإيمان فى قلوبهم ، بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فالإسلام يعنى الانقياد الظاهرى لأحكام الله ، والإيمان يعنى التصديق الباطنى واليقين الداخلى .

وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ ...

والقنوت هو دوام العمل الصالح ، والطاعة فى سكون ، كما قال تعالى : أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ... (الزمر : ٩) .

وقال عز وجل : يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ . (آل عمران : ٤٣) .

ويلاحظ التدرج بين هذه الصفات ، فالإسلام : إسلام المظهر من النطق بالشهادتين ، والصلاة والصيام ، والزكاة والحج ، والإيمان : التصديق الباطنى والإذعان القلبى لله ، ثم ينشأ عن مجموعهما القنوت والإخبات واستمرار الطاعة فى خشوع ويقين .

وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ ...

والصدق فى القول والعمل منزلة سامية تأتى بعد القنوت ، فإن الصدق رأس الفضائل ، ودليل إلى البر والجنة .

وفى الحديث الصحيح عند أحمد ، والبخارى فى الأدب ، ومسلم ، والترمذى ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا» [٥] .

لذا كان بعض الصحابة رضى الله عنهم ، لم تجرب عليه كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام .

وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ ...

وقد ذكر الصبر فى القرآن سبعين مرة ، والصبر فى كتاب الله تعالى على ثلاث درجات : صبر على الطاعات وله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن المعاصى وله ستمائة درجة ، وصبر على المصائب عن الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة .

فالصبر أنواع : منه صبر على أداء الطاعات ، مثل غض البصر وأداء الصلاة فى أوقاتها وفى خشوعها وخضوعها ، وأداء الصيام والزكاة والحج ، وله ثلاثمائة درجة .

والصبر عن المعصية : أى البعد عن الزنا والربا والقتل ، واليمين الغموس والسحر، والابتعاد عن كل ما يغضب الله ، أى ألا يراك حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك ، وله ستمائة درجة .

وقمة الصبر : الصبر على المصائب عند الصدمة الأولى ، والرضا بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، وتحمل المكاره والنوائب ، والابتلاء فى المال والنفس ، وثوابه تسعمائة درجة ، وفى الحديث: «الصبر جزاؤه الجنة» .

وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ...

والمتواضعين بقلوبهم والمتواضعات ، فإذا فعلوا الحسنات تواضعوا وتطامنوا ، رجاء أن يقبلها الله ، أى : لا ينالهم العجب ولا التطاول والتكبر ، بل هم فى إحسان ومراقبة لله ، وفى الحديث الصحيح : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٦) . والخشوع صفة تجعل القلب والجوارح فى حالة انقياد تام لله تعالى ومراقبته ، واستشعار لجلاله وهيبته .

وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ...

المخرجين زكاة أموالهم ، والمتصدقين بأموالهم تطوعًا ورحمة بعباد الله ، والمتصدقات بأموالهن رجاء ثواب الله .

وفى الحديث الذى ثبت فى الصحيحين أن رسول ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل ذكر الله تعالى خاليًا ففاضت عيناه ، ورجلان تحابًا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله رب العالمين» (٧) .

وموضع الشاهد هنا هو من يخرج الصدقة خفية ، لا يعلم بها أحد إلا الله تعالى .

وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ...

أى : يصومون رمضان ، ويصومون تطوعا ، قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل فى قوله تعالى : وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ .

والصوم ركن من أركان الإسلام ، وفريضة من فرائضه ، وهو وسيلة إلى التزكى والتطهر ، والتقرب إلى الله تعالى وتقواه ومراقبته ، وهو علاج لثورة الشهوة ، روى البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء» (٨) .

ومعنى وجاء : قاطع لثوران الشهوة .

وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ ...

أى : الملتزمين بالعفة والملتزمات ، المحافظين على الاستقامة ، والبعد عن الزنا ، وعن كشف العور ، قال تعالى : وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . (المؤمنون : ٥ – ٧) .

وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ...

أى : المداومين على ذكر الله وتذكره والمداومات على ذلك ، وذكر الله يشمل تذكره بالقلب وذكره باللسان ، وعبادته بالجوارح بنية صادقة ، وقد أمرنا بالذكر الكثير لتأكيد الإيمان فى القلب ، والوصول إلى محبة الله تعالى ومرضاته ، وفى الحديث القدسى : «أنا جليس من ذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه» .

وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) .

وقد ختمت هذه الصفات بالذكر لأنه قمة العمل الصالح ، فأكثر الصائمين أجرًا ، أكثرهم لله ذكرًا ، وكذلك المصلون والمزكون والمتصدقون والحجاج ، أكثرهم فضلاً أكثرهم لله ذكرا ، حتى ذهب الذاكرون لله بكل خير ، كما ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد .

ثم قال تعالى :

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

أى : هيأ الله للمتصفين بهذه الصفات مغفرة لذنوبهم ، وثوابًا عظيمًا فى الآخرة وهو الجنة ، وأنعم بها من أجر عظيم وثواب جليل .

ونلاحظ أن ذكر الله تعالى يشمل ذكره عقب الصلوات ، وعند المضاجع ، وعند الانتباه من النوم .

قال مجاهد : لا يكون العبد ذاكرًا لله تعالى ذكرا كثيرا ، حتى يذكره قائمًا وجالسًا ومضطجعًا .

★ ★ ★

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

وما كان لمؤمن : وما صح ولا استقام .

الخيرة : حق الاختيار فيما حكم الله فيه ورسوله بالجواز أو المنع .

ضلَّ ضلالا مبينا : أخطأ طريق الفلاح خطأً واضحًا .

أنعم الله عليه : بالإسلام .

وأنعمت عليه : بالعتق ، وهو زيد بن حارثة .

واتق الله : فى أمر زينب زوجتك فلا تحاول طلاقها .

وتخفى فى نفسك : أمر تزوجها الذى شرعه الله ، حذرًا من قالة الناس .

وطرا : حاجة ، كناية عن أنه طلقها .

حرج : ضيق .

فى أزواج أدعيائهم : فى أزواج من دعوهم أبناءهم وهم غرباء .

وكان أمر الله مفعولا : وكان حكمه وقضاؤه نافذا .

فى الذين خلوا من قبل : فى الرسل السابقين .

قدرا مقدورا : قضاء مقضيا ، وحكما مفعولا .

حسيبا : كافيا للمخاوف أو محاسبا .

خاتم النبيين : آخرهم فلم يجئ نبى بعده .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات لإبطال بعض عادات الجاهلية ، وهى احتقار العبيد والفقراء ، والتباهى بالأحساب والأنساب ، وقد أراد القرآن أن يبين أن الإسلام والإيمان وطاعة الرحمان ، هى مصدر العزة والمجد ، فقد خطب النبى ﷺ زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وهى قرشية ذات حسب ونسب ، لزيد بن حارثة مولاه، وكان رقيقًا ، وقد حضر أبوه ليشتريه من النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : «إن اختارك فخذه بدون ثمن ، وإن اختارنى فسيبقى معى» ، فاختار زيد البقاء مع النبى ﷺ ، وعيَّره عمّه قائلاً : كيف تختار الرق على الحرية ، فقال زيد : لقد رأيت من هذا الرجل كل عطف وخير وبركة ، ولا أوثر أحدًا على بقائى مع رسول الله ﷺ ، ولو كان أبى ، فعندئذ ذهب النبى ﷺ بزيد إلى المسجد ، وقال : «اشهدوا أيها الناس ، إن زيد بن حارثة ابنى ويرثنى» ، فكان بعد ذلك يدعى زيد بن محمد ، فلما أبطل الله التبنى ، بقوله سبحانه : ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ... (الأحزاب : ٥) . قال زيد : أنا زيد بن حارثة .

ثم شرع الله زواجه من امرأة قرشية شريفة ، ليبين الحق سبحانه أن الإيمان الصادق له اعتباره فى الزواج ، وتم هذا الزواج ، وشاء الله ألا يستمر ، لأن زينب بنت جحش كانت تفتخر على زيد بأنها قرشية أصيلة لم يجر عليها الرق ، وأن زيدًا كان رقيقًا ، ورغب زيد فى طلاقها لتعاليها عليه ، ولأن فيها حدّة ، وكان النبى ﷺ يطلب من زيد التريث ، وإمساك زينب ، وعدم المسارعة فى طلاقها ، وكان الله قد أعلم رسوله ﷺ ، أنه سيتزوج زينب بعد أن يطلقها زيد بن حارثة ، ومع هذا كان يخشى تعجيل هذا الزواج ، خوفًا من كلام الناس ، وقولهم : إن محمدًا تزوج حليلة متبناه ، فَلَام الله نبيه على ذلك ، وبين له أن الخشية تكون من الله ، لا من كلام الناس ، وكانت فى الآيات دروس عديدة ، منها ما يأتى :

– تقدير الناس حسب أعمالهم .

– إطاعة أمر الله وأمر رسوله طاعة مطلقة وعلى كل حال .

– لا خشية من كلام الناس ما دام الإنسان ممتثلا أمر الله .

– لا ينبغى لمؤمن ولا لمؤمنة تقديم الهوى الشخصى على أوامر الله ورسوله .

– إبطال أحكام التبنى التى كانت فى الجاهلية .

– تقرير نبوة الرسول ﷺ ، وأنه خاتم الأنبياء فلا نبى بعده .

- جواز عتاب الله لرسوله .

- ذكر فضل الله على زيد ، حيث ذكر اسمه فى القرآن ، وسيظل يُقرأ إلى يوم الدين .

- ذكر فضل الله على زينب ، حيث زوجها الله من علياء السماء ، وكان السفير فى ذلك جبريل .

التفسير :

٣٦ - وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا .

أى : ما صح ولا استقام لرجل ولا لامرأة من المؤمنين ، إذا قضى الله ورسوله أمرًا ، أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ، بل يجب عليهم طاعة أمر الله ، وطاعة أمر رسوله ﷺ ، فإنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، ومن يعص الله ورسوله فقد بعد عن طريق الحق بعدًا بينًا واضحًا .

وكان النبى ﷺ قد خطب زينب بنت جحش ، لتتزوج زيد بن حارثة مولاه ، وقالت : أنا أشرف منه نسبًا ، وآزرها أخوها فى امتناعها ، فلما أنزل الله على رسوله هذه الآية ، قالت زينب : يا رسول الله ، هل رضيته لى زوجًا ؟ قال : «نعم» ، فقالت زينب : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسى .

٣٧ - وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ...

روى عن على زين العابدين بن الحسين ، أن النبى ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدًا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها بتزويج الله إياها له ، فلما اشتكى زيد للنبى ﷺ خُلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له النبى ﷺ على جهة الأدب والوصية : اتق الله فى قولك ، وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن زيدًا سيفارقها ، وأنه ﷺ سيتزوجها ، وخشى رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس ، فى أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله على هذا القدر ، من أنه خشى الناس فى شىء قد أباحه الله له ، بأن قال : أَمْسِكْ . مع علمه أنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية فى كل حال[٩] .

قال القرطبى :

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل فى تأويل الآية ، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ، كالزهرى والقاضى أبى بكر بن العلاء القشيرى ، والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم ، والمراد بقوله : وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ . إنما هو إرجاف المنافقين ، بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء ، وتزوج بزوجة ابنه ، فأما ما روى أن النبى ﷺ هوى زينب امرأة زيد - وربما أطلق بعض المجَّان لفظ عشق - فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبى ﷺ عن مثل هذا ، أو مستخف بحرمته.

قال الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول :

قال على بن الحسين : إنه إنما عتب الله عليه ، فى أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ... وأخذتك خشية الناس ، أن يقولوا : تزوج محمد امرأة ابنه ، والله أحق أن تخشاه .

قال بعض العلماء : ليس هذا من النبى ﷺ خطيئة ، ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ، ولا بالاستغفار منه ، وقد يكون الشىء ليس بخطيئة ، إلا أن غيره أحسن منه ، وأخفى ذلك فى نفسه خشية أن يفتتن الناس[١٠] .

وقال الخفاجى :

واضح أن الله تعالى لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى ، أوحى إلى نبيه محمد ﷺ أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد ، فلم يبادر له ﷺ مخافة طعن الأعداء فعوتب عليه . ا هـ .

من صحيح البخارى

صح من حديث البخارى ، والترمذى أن زينب - رضى الله عنها - كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سماوات .

تفسير الآية

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ...

واذكر أيها النبى الكريم ، حين تقول لزيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه بالإسلام والهداية ، وأنعمت عليه بالعتق والتقريب منك ، حين جاء يشتكى من زينب ، ويذكر أنها تستعلى عليه ، فقلت له :

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ...، فلا تطلقها ، وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ... فيما تقوله عنها .

وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ... أنك مأمور بتزوجها ، مع أن الله سيبديه ويظهره علنا ، وتخاف من تعيير الناس ونقدهم واعتراضهم ، النابع من منطق الجاهلية .

وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... وقد أراد منك الزواج من زينب بعد طلاقها ، وانقضاء عدتها ، هدمًا وقضاء على الأحكام التى جعلت الدَّعى كابن الصلب .

فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا .

لما قضى زيد حاجته منها ، وملَّها وطلَّقها ، وانتهت عدتها ، جعلناها لك زوجة بأمرنا ، ليرتفع الحرج والضيق من بين المؤمنين ، إذا أرادوا الزواج بمطلقات أدعيائهم ، وهم الذين تبنوهم فى الجاهلية ، ثم أبطل الإسلام حكم التبنى ، وألغى جميع آثاره ، وصفَّى كل نتائجه ، وكان قضاء الله وقدره نافذًا وكائنًا لا محالة .

قال محمد بن عبد الله بن جحش : تفاخرت زينب وعائشة رضى الله عنهما ، فقالت زينب : أنا التى نزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى من السماء ، فاعترفت لها زينب .

وذكر القرطبى ، وابن جرير ، عن الشعبى قال : كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبى ﷺ : إنى لأدلّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدلّ بهن : أن جدّى وجدك واحد ، وأن الله أنكحك إياى من السماء ، وأن السفير فى ذلك جبريل .

٣٨ - مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا .

أى : ما صح ولا استقام أن يكون على محمد ﷺ نبى الله ورسوله ، من ضيق أو عيب فيما أحل الله له ، وأمره به من زواج زينب ، وهذا حكم الله تعالى فى الأنبياء من قبله ، لم يكن ليأمرهم بشىء ، وعليهم فى ذلك حرج أو ضيق ، وكان أمر الله الذى يقدره كائنًا لا محالة ، وواقعًا لا محيد عنه ، فما شاء كان.وما لم يشأ لم يكن .

وهذا رد على المنافقين الذين عابوا على رسول الله ﷺ زواجه من امرأة زيد ، ورد على اليهود الذين عابوه من كثرة الزوجات ، فقد كان لداود وسليمان عليهما السلام عدد كثير من النساء .

٣٩ - ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا .

هؤلاء الأنبياء والرسل هم الذين يبلغون رسالات السماء ، ويخشون الله وحده دون سواه ،

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا . فهو سبحانه المحاسب والمجازى والمكافئ ، وأنعم وأكرم به على عطاياه ومكافآته ، وقد كان محمد ﷺ سيد الناس فى هذا المقام ، وفى كل مقام ، فإنه قام بتبليغ رسالات الله إلى أهل المشارق والمغارب ، وإلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله به كلمته ودينه وشرعه ، على جميع الأديان والشرائع ، حيث بعثه الله إلى جميع الخلق ، عربهم وعجمهم ، قال تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (الأعراف : ١٥٨) . ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بذلك بعده أصحابه، رضى الله عنهم حيث بلَّغوا عنه كما أمرهم به ، فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ،

وحضره وسفره ، وسرّه وعلانيته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم ، إلى زماننا هذا ، فبنورهم يهتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون[١١] .

وفى هذه الآية إشارة إلى أنه ﷺ ، ليس عليه بأس من لائمة الناس ، فى أمر قضاء الله ، لنسخ عادة التبنى .

٤٠ - مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا .

تأتى هذه الآية ردًا على المنافقين الذين قالوا : إن محمدًا ينهانا عن زواج امرأة الابن ، وقد تزوج امرأة ابنه ، فأفاد القرآن أن محمدًا لم يكن أبًا نسبيًا لزيد ، إنما رباه ورعاه وادَّعاه ، فلما أبطل الله التبنى صار يدعى زيد بن حارثة ، فما كان محمد أبًا لزيد ، ولكن هو رسول الله ، يبلغ رسالات الله ، ويصل بين وحى السماء ، وتعليم الناس شرائع الله تعالى ، وقد ختم الله به النبيين فلا نبى بعده ، ومن أجل ذلك اشتملت شريعة الإسلام على مقومات حياتها ، وخلودها وبقائها ، حيث نص القرآن الكريم على ثوابت الشريعة ، ووضحت السنة القرآن ، ورسمت للناس معالم الحياة وتطبيقاتها العملية ، وكان عمل الصحابة وسلوكهم وقضاؤهم ، وفتاواهم وفقههم ، مصدرًا تشريعيًا من مصادر التشريع ، وكذلك اجتهاد التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، فالاجتهاد أصل من أصول التشريع الإسلامى ، ويبقى لهذه الشريعة جدتها ونضارتها وخلودها إلى يوم الدين ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .
وقد وردت الأحاديث الصحيحة فى البخارى ومسلم وكتب السنن ، تؤيد أن رسالة النبى ﷺ رسالة خاتمة للرسل ، فلا نبى بعده ، وكل من ادعى الرسالة أو النبوة بعده ، افتضح أمره ، وعرف الناس كذبه ، لقوله تعالى : وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ . بفتح التاء عند حفص ، وفى قراءة الجمهور : وَخَاتِمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ . بكسر التاء ، أى : أن الله ختم به الرسالات ، وقال ﷺ : «أنا العاقب فلا نبى بعدى» ، وقال ﷺ : «أنا خاتم الرسل» . صلوات الله وسلامه عليه .

من تفسير القرطبى

١ - اعلم أن محمدًا ﷺ ، لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له فى الحقيقة ، ولم يقصد بهذه الآية أن النبى ﷺ لم يكن له ولد ، فقد ولد له ذكور : إبراهيم ، والقاسم ، والطيب ، والمطهر ، ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً ، وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرين له .

٢ - قال ﷺ : «ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»[١٢] . اهـ .

وقد حفلت كتب التفسير كالقرطبى وابن كثير والتفسير المنير وغيرها بإيراد طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ، تدل دلالة قاطعة على أن محمدًا ﷺ خاتم الرسل .

وجاء فى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ما يأتى :

وقد أفادت هذه الآية أنه لا نبى بعده ﷺ بإجماع المسلمين خلفًا عن سلف ، ولصراحة الآية لم يستطع المارقون أن يدعوا النبوة ، بل ادعى بعضهم الرسالة كالبهاء ، وهذا إفك وكفر مبين ، فإنه إذا كان لا نبى بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ولا عكس ، وقد وردت الأحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ بأنه لا نبى بعده . أخرج البخارى ، ومسلم بسنديهما عن النبى ﷺ قال : «إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى ، ولم يبق من النبوة إلاَّ الرؤيا الصالحة»[١٣] ، وقال ﷺ : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»[١٤]. ولهذا قال ﷺ : «ليس يبقى بعدى من النبوة إلاَّ الرؤيا الصالحة»[١٥] . وقد روى الإمام مسلم بسنده ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلاَّ موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة» . قال رسول الله ﷺ : «فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء»[١٦] ونحوه عن أبى هريرة ، غير أنه قال : «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» ، وروى الإمام أحمد بسنده ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى» ، قال أنس : فشق ذلك على الناس ، قال : فقال ﷺ : «ولكن المبشرات» ، قالوا : يا رسول الله، وما المبشرات ؟ قال : «رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزءٌ من أجزاء النبوة»[١٧] .

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

ذكرًا كثيرًا : فى أغلب الأوقات ، ويشمل مختلف أنواع التقديس والتمجيد والتهليل والتحميد .

بكرة وأصيلا : أول النهار وآخره ، ويشمل صلاتى الفجر والعصر .

يصلى عليكم : بالرحمة والرعاية والتوفيق .

وملائكته : بالاستغفار .

من الظلمات : من الكفر والمعصية .

إلى النور : إلى الإيمان والطاعة .

يوم يلقونه : عند الموت أو البعث أو دخول الجنة .

سلام : إخبار بالسلامة من كل مكروه .

أجرا كريما : أجرًا عظيمًا ، هو الجنة .

التفسير :

٤١ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا .

تحريض للمؤمنين والمؤمنات على ذكر الله تعالى ، بألسنتهم وقلوبهم ، ويشمل ذلك كل عبادة تصل صاحبها بالله ، فى قنوت وخشوع ، كالصلاة وتلاوة القرآن والجهاد ، وشرح أحكام الشريعة ، ورعاية الأيتام ، والقيام بأحكام الدين وحدوده .

وعن قتادة : قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٤٢ - وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

ونزهوه عما لا يليق به من الشريك والولد ، بحيث يستقر التوحيد فى قلوبكم ، وتمتلئ به مشاعركم ، وتتحقق خشية الله الجليل ، وتنزيهه عن كل نقص ، والاعتراف له بكل كمال ، كالحمد والشكر والتوحيد ، والسمع والبصر ، والرحمة والعطاء ، وتنزيهه تعالى عن الظلم والجور ، وعن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى .

بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

فى الصباح وقبل الغروب .

وقال الزمخشرى : أى فى كافة الأوقات ، وإنما ذُكر هذان الوقتان ، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار . اهـ .

والزمخشرى يشير بذلك إلى حديث صحيح رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة العصر وفى صلاة الفجر ، اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» [١٨] . (الإسراء : ٧٨) .

فهناك حفظة على كل إنسان ، وهم : عشرة من الملائكة بالنهار ، وعشرة بالليل ، وفى صلاة الفجر تتلاقى ملائكة الليل وملائكة النهار ، ثم تصعد الملائكة التى باتت بالليل مع المؤمنين ، فيسألهم ربّهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا تركناهم وهم يصلون صلاة الفجرُ ، وأتيناهم وهم يصلون صلاة العصر ، فاغفر لهم يوم الدين ، وفى صلاة العصر تصعد ملائكة النهار ، فيسألهم ربهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا تركناهم وهم يصلّون صلاة العصر ، وأتيناهم وهم يصلون صلاة الفجر ، فاغفر لهم يوم الدين .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ . (غافر : ٧) .

قال المفسرون : والتسبيح نوع من الذكر ، وإفراده من بين الأذكار ، لكونه عمدة فى ذكر الله تعالى ، فما لم ينزه الله تعالى عما لا يليق به ، لا يتحقق ذكر الله تعالى .

٤٣ - ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

الله تعالى يشملكم برحمته وعنايته وفضله وهدايته ، والملائكة تستغفر لكم وتسأل الله لكم المغفرة ودخول الجنة والنجاة من النار ، وبرحمة الله ، واستغفار الملائكة ، يخرجكم الله من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية ، ورحمة الله واسعة ، فيشمل بها المؤمنين والمؤمنات .

قال ابن عباس : الصلاة من الله تعالى رحمة وبركة ، وصلاة الملائكة استغفار ، وصلاة المؤمنين دعاء .

وقال ابن كثير : هذا تهييج إلى الذكر ، أى أنه تعالى يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله تعالى : ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ...﴾ (البقرة : ١٥٢) .

٤٤ - ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ .

تحية المؤمنين عند خروج روحهم من الدنيا ، أن الله تعالى يسلم عليهم ، ويبشرهم بالجنة ، جزاء طاعتهم له فى الدنيا ، وقيل : السلام عند البعث ، وقيل : السلام من الله عليهم عند دخولهم الجنة ، والآية تتسع لكل ذلك ، فالله تعالى يلقى المؤمنين بالسلام عند الموت ، وعند البعث ، وعند دخول الجنة ، وقد أعد لهم فى الجنة نعيمًا كبيرا .

قال تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . (يونس : ١٠) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ . (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾

المفردات :

شاهدا : على من أُرسلت إليهم .

ومبشرا : من صدقك وأطاعك بالجنة .

وداعيا إلى الله : إلى الإقرار به وتوحيده وطاعته .

بإذنه : بتيسيره ومعونته .

نكحتم : عقدتم .

تمسوهن : تجامعوهن .

فمتعوهن : فأعطوهن المتعة .

وسرحوهن : خلوا سبيلهن من غير إضرار ولا إيذاء ، إذ ليس لكم عليهن عدة .

التفسير :

٤٥ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

نداء للرسول الأمين ببيان صفاته وأعماله ومآثره ، بعد أن سبق الحديث عن زيد بن حارثة ، وزواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش ، لإبطال عادة التبنى ، وإباحة زواج الأب بزوجة الابن الدَّعى ، مما يدل على أن هذه العادة كانت راسخة فى المجتمع العربى ، واحتاج إبطالها إلى جهد بالغ ، ثم بينت هذه الآية وما

بعدها أن الرسول محمدًا ﷺ رسول من عند الله ، أرسله الله تعالى شاهدًا على الناس بما عمله وبما أداه ، مبشرا للمؤمنين بالجنة والنعيم الدائم ، محذرًا للكافرين ومنذرًا لهم بالعذاب إذا لم يتوبوا .

٤٦ – وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا .

أى : إن الرسول محمدًا ﷺ داع إلى دين الله وطاعته ، وهو فى ذلك مكلف بأمر الله وإذنه أن يبلغ الدعوة ، ويتحمل تبعات هذا التبليغ ، وهو يضىء للناس طريقهم إلى الإسلام والإيمان ، كما يرشد السراج الأبصار إلى الطريق الواضح ، فإن رسالة الإسلام ، ودعوة نبى الإسلام ، تضىء البصائر وترشدها إلى الهداية والإيمان .

ومقتضى تشبيه النبى ﷺ بالسراج ، يفيد أن دينه يكون ظاهرًا واضح الحجة والبرهان ، لا تعقيد فيه ولا التواء ، ولا خفايا فيه ولا أستار ، وإنما شُبِّه بالسراج لا بالشمس التى هى أشد إضاءة من السراج ، لأن ضوء الشمس يبهر العين ، وأمّا ضوء السراج فترتاح له الأعين ، ووصف السراج بالإنارة ، لأن بعض السُرج لا يضىء لضعفه ودقة فتيله .

٤٧ – وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا .

أعلن البشارة للمؤمنين بالله ورسوله ، بأن الله تعالى قد أعدّ لهم منحة عظيمة ، وفضلاً كبيرًا ، وهو الجنة ونعيمها .

أخرج ابن جرير بسنده قال : لما نزل قوله تعالى : لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ... (الفتح : ٢) . قال رجال من المؤمنين : هنيئًا لك يا رسول الله ، قد علمنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ... (الفتح : ٥) .

وأنزل فى سورة الأحزاب : وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا .

٤٨ – وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً .

هذه الآية تأكيد لما ورد فى أول السورة ، حيث أمره الله تعالى قائلاً : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . (الأحزاب : ١) .

ومعنى الآية :

داوم أيها الرسول على ما أنت عليه ، من عدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وعدم الإلانة معهم ، أو اللقاء بهم فى منتصف الطريق ، والآية تيئيس للكافرين والمنافقين منه ﷺ ، من باب : «إياك أعنى واسمعى

يا جارة» ، والرسول مستمر فى تبليغ رسالته ، مهتم بالمؤمنين وتربيتهم ، معرض عن الكافرين والمنافقين ، تارك للرد عليهم ، تارك لإيذاء الكافرين والمنافقين ، متوكل على الله وحده فهو سبحانه الوكيل والكفيل والنصير .

٤٩ – ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ .

يا أيها الذين آمنوا ، إذا عقدتم عقد النكاح على امرأة مؤمنة ، ثم تمّ الطلاق قبل الدخول بها ، فليس عليها عدّة ، لأن العدة لتعرُّف براءة الرحم ، أو للحداد على الزوج ، وهذه لم يدخل عليها زوجها ، ولم يخل بها خلوة شرعية ، لكن ينبغى تطييب خاطرها ، وكسوتها بملابس مناسبة لحال الزوج ، حسب يساره أو إعساره ، وينبغى أن يتم الطلاق بالمعروف ، بدون نزاع أو مخاصمة ، بل يتم مع مكارمة وعطاء وتسامح ، فهذا هو (السراح الجميل) أى : الطلاق الكريم ، وقيل : السراح الجميل ألا يطالبوهن بما آتوهن .

فى أعقاب التفسير

جاء فى التفسير المنير ٢٢/ ٥٠ – ٥٤ ، عدة أسماء للنبى ﷺ ، رغبت أن أنقلها هنا ، حبًا لرسول الله ﷺ ، وتيمنا بأسمائه المباركة ، وعشقًا لذاته الشريفة ﷺ .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الأحكام التالية :

أولاً : وصف النبى ﷺ بسبع صفات أو أسماء ، فهو الشاهد على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ، وهو المبشر للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ، وهو المنذر للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد ، وهو الداعى إلى الله بتبليغ التوحيد والأخذ به ومكافحة الكفرة ، وهو نور كالسراج الوضاء بشرعه الذى أرسله الله به ، وهو الذى بشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى ، وهو ذو شرع مستقل مطالب بألا يطيع الكافرين فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداهنة فى الدين والممالأة ، لكنه مأمور أيضًا أن يدع أذاهم مجازاة على إيذائهم إياه ، فلا يعاقبهم ، وإنما يصفح عن زللهم ، معتمدًا على الله وحده بنصر دينه وحفظه وتأييده وعصمته من الناس .

روى ابن أبى حاتم ، والطبرانى ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ . دعا رسول الله ﷺ عليًا ومعاذًا فقال : «انطلقا ، فبشّرا ولا تنفرا ، ويسّرا ولا تعسّرا ، فإنه قد نزل على الليلة آية : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ . – بالجنة – ﴿وَنَذِيرًا﴾ . – من النار – ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ . – شهادة أن لا إله إلا الله – ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ . – بأمره – ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ . بالقرآن» .

ثانيًا : قال القرطبى[١٩] : هذه الآية فيها تأنيس للنبى ﷺ وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم ، وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء ، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها فى الكتاب والسنة والكتب المتقدمة ، وقد سماه الله فى كتابه محمدًا وأحمد .

وقال ﷺ فيما روى عنه الثقات العدول عند الطبرانى عن جابر : «لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب» . وفى صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم : وقد سماه الله رؤوفًا رحيمًا . وفيه أيضًا عن أبى موسى الأشعرى قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء ، فيقول : «أنا محمد ، وأحمد ، والمقفى (أى أنه آخر الأنبياء) ، والحاشر ، ونبى التوبة ، ونبى الرحمة» .

وذكر القاضى ابن العربى فى أحكامه (٣/ ١٥٣٤) بمناسبة هذه الآية سبعة وستين اسمًا للنبى ﷺ هى :

الرسول ، المرسل ، النبى ، الأمى ، الشهيد ، المصدق ، النور ، المسلم ، البشير ، المبشر ، النذير ، المنذر ، المبين ، الأمين[٢٠] ، العبد ، الداعى ، السراج ، المنير ، الإمام ، الذُّكْر ، المذكر ، الهادى ، المهاجر ، العامل ، المبارك ، الرحمة ، الآمر ، الناهى ، الطيب ، الكريم ، المحلِّل ، المحرِّم ، الواضع ، الرافع ، المخبر ، خاتم النبيين ، ثانى اثنين ، منصور ، أذن خير ، مصطفى ، أمين ، مأمون ، قاسم ، نقيب ، مزمل ، مدثر ، العلى ، الحكيم ، المؤمن ، المصدق[٢١] ، الرؤوف ، الرحيم ، الصاحب ، الشفيع ، المشفع ، المتوكل ، محمد ، أحمد ، الماحى ، الحاشر ، المقفى ، العاقب ، نبى التوبة ، نبى الرحمة ، نبى الملحمة ، عبد الله ، نبى الحرمين . ذكر ذلك أهل ما وراء النهر .

فالرسول : الذى تتابع خبره عن الله ، وهو المرسل من ربه ، والمرسل غيره لتبليغ الشرائع إلى الناس مشافهة ، والنبىء مهموز من النبأ وهو الخبر ، وغير مهموز من النَّبْوَة : وهو المرتفع من الأرض ، فهو مخبر عن الله ، رفيع القدر عنده ، والأمى : الذى لا يقرأ ولا يكتب ، والشهيد لشهادته على الخلق فى الدنيا والآخرة ، والمصدق بجميع الأنبياء قبله ، وصدق ربه بقوله ، وصدق قوله بفعله ، والمنور الذى نور الله به الأفئدة بالإيمان والعلم ، وبدد ظلمات الكفر والجهل ، والمسلم : خير المسلمين وأولهم ، والبشير : الذى أخبر الخلق بثوابهم إن أطاعوا وبعقابهم إن عصوا ، والنذير والمنذر : المخبر عما يُخاف ويُحذر ، والمبين : الذى أبان عن ربه الوحى والدين وأظهر الآيات والمعجزات ، والأمين : الذى حفظ ما أوحى إليه وما وظف به ، والعبد : الذى ذل لله خلقًا وعبادة ، والداعى الخلق إلى الحق وترك الضلال ، والسراج : النور الذى يبصر به الخلق الرشد ، والمنير : المنور ، والإمام : المقتدى به المرجوع إلى قوله وفعله ، والذكر : الشريف فى نفسه ، المشرف غيره ، والمذكر : الذى يخلق الله على يديه الذكر ، أى تذكر الله ، والهادى : الذى أبان النجدين ، أى طريقى

الخير والشر ، والمهاجر : لأنه هجر ما نهى الله عنه ، وهجر أهله ووطنه ، والعامل : لأنه قام بطاعة ربه ، ووافق فعله قوله واعتقاده ، والمبارك : الذى جعل الله فى حاله زيادة الثواب ، وفى حال أصحابه فضائل الأعمال ، وفى أمته زيادة العدد على جميع الأمم ، والرحمة : الذى رحم الله به العالمين فى الدنيا من العذاب الشامل ، وفى الآخرة بتعجيل الحساب ، والآمر والناهى : المبلغ الأمر والنهى ، والطيب : فلا أطيب منه ، لسلامته عن خبث القلب وخبث القول وخبث الفعل ، والكريم : الجواد على التمام والكمال ، والمحلل والمحرم : مبين الحلال والحرام ، والواضع والرافع : الذى وضع الله به قومًا ورفع به آخرين ، والمخبر : النبىء ، وخاتم النبيين : آخرهم ، وثانى اثنين : أحد اثنين والآخر أبو بكر فى غار جبل ثور ، والمنصور : المعان من قبل الله بالعزة والظهور على الأعداء ، وأذن خير : لا يعى من الأصوات إلا خيرًا ولا يسمع إلا الأحسن ، والمصطفى : المخبر عنه بأنه صفوة الخلق ، والأمين كما تقدم : المؤتمن على المعانى ، والمأمون : الذى لا يخاف من جهته شر ، وقاسم : يقسم الزكوات والأخماس وسائر الأموال بين الناس ، ونقيب : يتولى الأمور ، ويحفظ الأخبار ، وقد وصف نفسه للأنصار بذلك فقال : أنا نقيبكم ، والمزمِّل : المتلفف بثيابه ، والمدثر : المتغشى بثيابه ، والعلى : الرفيع القدر والمكان ، الشريف الشأن ، والحكيم : العامل بما علم ، والمؤمن : المصدق لربه اعتقادًا وفعلاً ، والرؤوف الرحيم : لما أعطاه الله من الشفقة على الناس ، والصاحب : الذى كان مع أتباعه حسن المعاملة ، عظيم الوفاء ، والشفيع المشفع : الراغب إلى الله فى أمر الخلق بتعجيل الحساب ، وإسقاط العذاب وتخفيفه ، والمتوكل : الملقى مقاليد الأمور إلى الله علمًا وعملاً ، والمقفى : العابد ، ونبى التوبة : لأنه تاب الله على أمته بالقول والاعتقاد ، دون تكليف بقتل أو إصر ، ونبى الرحمة : المشفق على الناس ، ونبى الملحمة : المبعوث بحرب الأعداء والنصر عليهم .

ثالثًا : يرى مجاهد أن الأمر بالعفو والصفح عن الكافرين فى قوله تعالى : وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ... منسوخ بآية السيف .

رابعًا : فى آية : إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ... أحكام كثيرة منها :

١ - المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك ، فإن دخل بها فعليها العدة إجماعًا .

والمشهور عند الفقهاء أن العدة ليست خالص حق العبد ، وإنما يتعلق بها حق الله وحق العبد معًا ، لأن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضًا ، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلق ، لأن الشرع أثبتها . والعدة شرعًا : المدة التى تنتظر فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها من الحمل ، أو للتعبد ، أو للتفجع على زوج مات .

٢ - إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اتفق العلماء على أن المراد بالنكاح هنا العقد ، ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد . والنكاح فى الأصل حقيقة فى الوطء ، ولكن من أدب القرآن الكناية عن الوطء أو الجماع بألفاظ : الملامسة والمماسة والقربان والتغشى والإتيان . وسمى العقد نكاحًا من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثمًا ، لأنها سبب فى اقتراف الإثم .

٣ - إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها ، وهذه الآية مخصصة لقوله تعالى : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ... (البقرة : ٢٢٨) . ولقوله تعالى : ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ ... (الطلاق : ٤) .

٤ - قوله تعالى : ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ . خرج مخرج الغالب من حال المؤمنين أنهم لا يتزوجون إلا بمؤمنات ، ولكن لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى إباحة الزواج بالاتفاق[٣٢] . ا هـ .

★ ★ ★

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا (٥٢)﴾

المفردات :

أجـــــورهـــــن : مهورهن .

وما ملكت يمينك : وما كان من الإماء ، بسبب السبى والغنيمة فى الحرب ، كصفية ، وجويرية .

أفاء الله عليك : غنمته من الكفار بتيسير الله لك .

يستنكحها : يتزوجها .

ما فرضنا عليهم فى أزواجهم : أى على المؤمنين فى أزواجهم من الأحكام ، مثل : العقد ، والمهر ، والنفقة على الزوج ، وألا يتم الزواج إلا بولى وشهود .

وما ملكت أيمانهم : من الرقيق بشراء أو غيره ، وأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها ، كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية ، وأن تستبرئ بحيضة قبل الوطء .

ترجى : تؤخر ، من الإرجاء وهو التأخير .

تؤوى : تضمّ وتضاجع .

ومن ابتغيت ممن عزلت : ومن طلبته ممن نحّيته وأبعدته .

فلا جناح عليك : فلا إثم عليك ، فى طلبها وضمّها إليك .

أن تقر أعينهن : تبرد سرورًا .

من بعد : من بعد التسع اللائى فى عصمتك .

ولا أن تبدل بهن : ولا أن تستبدل بهن أزواجًا ، ببعضهنّ أو بكلهنّ .

تمهيد :

تتحدث هذه الآيات ، وآيات ستأتى بعدها ، عن تنظيم بيت رسول الله ﷺ ، وقد كلف بأعباء الرسالة ، ودعوة القبائل إلى الإسلام ، وبذل جهودًا مضنية فى الدعوة إلى الله تعالى ، فى مكة والمدينة ، وشاء الله أن يجعل من بيت النبوة صفحة معروضة للأجيال ، فضمنها هذا القرآن الباقى ، المتلوّ فى كل زمان ومكان .

التفسير :

٥٠ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

أحللنا لك أيها الرسول أربعة أصناف من النساء :

أولاً : الزوجات اللاتى دفعت مهورهن - ولو كنّ فوق الأربع - مما هو محرم على غيره ﷺ ، وكان فى عصمة النبى ﷺ ، فى هذا الوقت تسع نساء تزوج بكل منهن لمعنى خاص : عائشة بنت أبى بكر وزيره

وصاحبه ، وحفصة بنت عمر وزيره وصاحبه ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة ، من المهاجرات اللواتى فقدن أزواجهن ، وأراد النبى ﷺ تكريمهن ، ولم يكنَّ ذوات جمال ولا شباب ، وزينب بنت جحش لتحليل زوجة الابن الدعىَ ، ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وكانتا من السبى ، فأعتقهما رسول الله ﷺ ، وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى ، تعويضًا لهما ، وقد أسلمتا بعد ما نزل بأهلهما من الشدة .

ثانيًا : ما ملك النبى ﷺ من سبايا الجهاد كصفية بنت حيى بن أخطب ، فقد اصطفاها من سبى خيبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدَّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، وقد أهديت له مارية القبطية من المقوقس عظيم القبط بمصر ، فتسرَّى بها ، وهى أم ابنه إبراهيم .

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ... أى مما رده الله عليك من غنائم الكفار .

ثالثًا : القرشيات من بنات عمك وبنات عماتك ، والزهريات من بنات خالك وبنات خالاتك من بنى زهرة ، وقد كان عند النبى ﷺ ست من القرشيات ، ولم يكن عنده زهرية .

وهذا المنهج وسط كما يقول ابن كثير فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان بينها وبين الرجل سبعة أجداد ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاء الإسلام وسطا فأباح القرابة غير القريبة ، كبنت العم وبنت الخال ، وحرَّم القرابة القريبة كبنت الأخ والأخت .

واشترط القرآن فى زواج بنت العم أو الخال للرسول ﷺ ، أن تكون من المهاجرات من مكة إلى المدينة فأمَّا من لم تهاجر فلا تحل له .

رابعًا : المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها للنبى ﷺ ، إذا قبل النبى هبتها ، وأراد أن يتزوجها ، فإنها تحل له ، خاصة به من دون المؤمنين ، أما المؤمنون فلابد من المهر والولى والشهود .

وقد رغبت زوجات كثيرات فى هبة أنفسهن للنبى ﷺ .

وقد قال ابن عباس : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ، أى أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحًا له ومخصوصًا به ، لأنه مردود إلى مشيئته .

وقد أخرج البخارى ، ومسلم ، وأحمد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك ، فقامت قيامًا طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : «هل عندك من شىء تصدقها إياه» ؟ ، فقال : ما عندى إلا إزارى هذا ، فقال

ﷺ : «إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئًا» ، فقال : لا أجد شيئا ، فقال : «التمس ولو خاتمًا من حديد» فالتمس فلم يجد شيئا ، فقال له النبى ﷺ : «هل معك من القرآن شىء» ؟ فقال : نعم ، سورة كذا وسورة كذا ، فقال له النبى ﷺ : «زوجتكها بما معك من القرآن»[٢٣] .

قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ...

أى : قد علمنا ما أوجبنا على المسلمين من نفقة ، ومهر ، وشهود فى العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحنا لهم من ملك اليمين ، وأمَّا أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيرًا لك .

لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ...

أى : لئلا تكون عليك مشقة أو ضيق فيما اقتضته الحكمة والعناية بك .

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

عظيم المغفرة ، واسع الرحمة ، فهو سبحانه يغفر ما يعسر التحرز منه ، ويرحم فيما يوسع فى مواقع الحرج .

٥١ - تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا .

تأتى هذه الآية فى استمرار التيسير على رسول الله ﷺ ، حيث خصَّه الله ببعض الخصائص تمييزًا له ، ورعاية لجنابه ، ولما يقوم به من أمر الدعوة الإسلامية ، وتأليف القبائل ، ورعاية شئون نسائه التسع ، فأباح سبحانه له أن يطلق من يشاء منهن ، وأن يبقى معه من يشاء منهن ، والإرجاء : التأخير والإبعاد ، ومع هذا فلم يطلق النبى ﷺ أيًا من زوجاته .

وقيل : المعنى : وضعنا عنك التسوية بينهن فى المبيت ، فلك أن تبعد وتؤخر من تشاء منهن فى المبيت معها ، وتؤوى وتقرب من تشاء منهن فى المبيت معها ، وإذا أبعدت واحدة منهن عن المبيت معها ، ثم رغبت فيها بعد عزلها وإبعادها ، فلا جناح عليك ولا إثم ولا حرج فى ذلك ، ومع هذا التيسير الإلهى من الله عز وجل ، فقد كان ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل .

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ، فيعدل ، ثم يقول : «اللَّهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك»[٢٤] .

وقال بعض المفسرين : الإرجاء والإيواء لإطلاقهما فى الآية ، يتناولان ما فى التفسيرين من التخيير فى القسم ، والطلاق .

وأفاد صاحب الكشاف أن الآية متضمنة قسمة جامعة لما هو الفرض ، لأنه ﷺ إمّا أن يطلق ، وإما أن يمسك ، وإذا أمسك ضاجع أو ترك ، وقسم أو لم يقسم ، وإذا طلّق وعزل ، فإما أن يخلى المعزولة ، لا يبتغيها أو يبتغيها . ا هـ .

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ...

هذا التخيير لك أيها الرسول من شأنه أن يقرّ عين أزواجك ، ويرضيهن ويذهب الحزن عنهن ، لأنهن إذا علمن أن الله لم يفرض عليك العدل فى القسمة بينهن ، وأباح لك تطليق بعضهن ، وإيواء بعضهن ، ثم تفضلت أنت بالعدل فى القسمة بينهن ، والإبقاء عليهن وعدم تطليق بعضهن ، فرحن بنصيبهن منك ، لأنه تفضل منك وكرم وعطية .

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ...

من الرغبة فى المخالطة ، والميل إلى بعض الزوجات دون بعض ، وإنما خير الله رسوله ، تيسيرًا عليه وتخفيفًا ، لما له من مهام متعددة ، لا يقدر عليها عظماء الرجال ، ولو كانوا فى القوة والتحمل كالجبال .

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا . بذات الصدور ، مطلعا يعلم السر وما هو أخفى من السر . **حَلِيمًا** . ذا حلم على عباده ، فيعفو ويغفر .

٥٢ – لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا .

تأتى هذه الآية تكريمًا لنسائه التسع ، حيث اخترن رسول الله ، ورفضن زينة الدنيا ، فعوضهن الله أن جعلهن أمهات المؤمنين ، وحرم على النبى الزواج بغيرهن ، كما حرم عليه تطليقهن كلهن ، أو تطليق بعضهن ، ليتزوج بدلاً منهن أخريات ، حتى ولو أعجبه جمالهن .

لكن يحل للنبى أن يضم إليه من يشاء بملك اليمين ، وقد تسرى بمارية القبطية ، بعد أن أهداها المقوقس إليه ، مع بغلة تسمى الدُّلدُل ، وهى أول بغلة تدخل أرض الحجاز ، وكان الله مطلعًا ورقيبًا ، لكل ما فى الكون ، لا تخفى عليه خافية .

وهذا التفسير للآية رأى جمهور علماء المسلمين ، وذهب بعض المفسرين إلى أن الله أحلَّ للرسول ﷺ أربعة أصناف من النساء ، ذكرن فيما سبق ، وهن :

١ – زوجاته اللاتى دفع مهورهن .

٢ – ما ملكت يمينه بسبب الفيء أو الشراء أو الهبة .

٣ – بنات عمه وعماته وبنات خاله وخالاته اللاتى هاجرن من مكة إلى المدينة .

٤ – من وهبت نفسها للنبى من المؤمنات .

ثم قال الله له : **لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ** ...

أى : لا يحل لك الزواج من غير هذه الأصناف الأربعة ، المذكورة فى الآية السابقة ، ولو أعجبك حسنهن ، لكن يباح لك التسرِّى بما ملكت يمينك .

قال ابن كثير : والنساء التسع اللاتى حرَّم الله تعالى على نبيه ﷺ ، الزيادة عليهن ، والاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث .

ملحق بتفسير الآيات

١ – يرغب الإسلام فى العدل بين الزوجات ، ويوجب القسم لهن ، ولا يسقط حق الزوجة بمرضها ولا حيضها ، ويلزم الزوج المقام عندها فى يومها وليلتها ، وعليه أن يعدل بينهن فى مرضه كما يفعل فى صحته ، إلا أن يشتد المرض ، فيستأذن منهن فى البقاء عند إحداهن .

روى أبو داود ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[٢٥] .

٢ – كان النبى ﷺ يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بين زوجاته ، تطييبًا لقلوبهن ، وكان فى مرضه الذى توفى فيه ، يطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة .

روى البخارى فى صحيحه ، عن عائشة قالت : أول ما اشتكى رسول الله ﷺ فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرَّض فى بيت عائشة فأذنَّ له[٢٦] .

٣ – يفيد قوله تعالى : **وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ** ... جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن ، عن المغيرة بن شعبة أنه أراد أن يتزوج امرأة ، فقال له النبى ﷺ : «انظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما»[٢٧] .

ومعنى يؤدم : يؤلف ويوفق وتستديم العشرة .

٤ - كان زواج النبى ﷺ بتسع نساء لحكم سامية ، تتلخص فى أن المصاهرة من أقوى عوامل التناصر والتآلف ، ونشر دعوة الإسلام ، وكان المؤمنون يرون أعظم الشرف فى مصاهرة النبى ﷺ وقربهم منه ، كما أن تشريعات الإسلام الخاصة بالنساء تحتاج معرفتها إلى نسوة يبلغن الأحكام إلى المسلمات ، فكانت أزواج النبى ﷺ يقمن بهذه المهمة .

★ ★ ★

آداب دخول البيت النبوى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات :

غير ناظرين إناه : غير منتظرين إدراكه ونضجه ، وأنى هو مصدر أنى يأنى : أى أدرك ، وحان نضجه .

فإذا طعمتم : أكلتم .

مستأنسين لحديث : مستمعين لحديث أهل البيت ، أو لبعضكم بعضا .

إن ذلكم : المكث أو اللبث .

فيستحيى منكم : من إخراجكم .

متـــــاع : المتاع : هو كل ما ينتفع به ، كالطعام والثياب وأثاث البيت وغيره .

من وراء حجاب : وهو الساتر ، لأنه يمنع من المشاهدة .

أطهـــر : أزكى وأنفى للريبة وسوء الظن .

إن تبدوا شيئا : إن تظهروا أمرًا من الأمور ، أو تستروه فى أنفسكم .

لا جنـــاح : لا إثم .

ولا نسائهن : النساء المؤمنات .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات الكريمات لبيان أدب بيت النبوة ، فقد روى عن ابن عباس : أن أناسًا من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ ، فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون .

وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء .

وعند أكثر المفسرين أن سبب نزول هذه الآيات ، ما وقع يوم أن تزوج النبى ﷺ زينب بنت جحش .

روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والنسائى ، والبيهقى فى سننه وغيرهم من طرق ، عن أنس قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم إلى طعام فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ...»[٢٨] الآية .

التفسير :

٥٣ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ...

إذا دعاكم الرسول ﷺ إلى طعام ، فلا تأتوا قبل الميعاد المتعارف عليه ، أو قبل معرفة أن الطعام قد تمّ نضجه وإعداده ، حيث يكون أصحاب البيت فى انشغال بالطعام ، وفى ثياب البذلة والمهنة ، وحضوركم مبكرين يجعل أصحاب البيت ينشغلون بكم ، ويتكلفون الحديث من أجلكم ، ومعنى : غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ... غير منتظرين إدراكه ونضجه .

قال ابن كثير :

حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية ، وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ، فإذا دعى المؤمن إلى طعام لبَّى الدعوة ، وليحذر الحضور قبل الميعاد ، كما يحذر الجلوس بعد الميعاد ، حيث يشغل صاحب المنزل ، إلا لحاجة ماسة .

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إذا دعا أحدكم أخاه فليجبه ، عرسًا كان أو غيره»[٢٩] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «لو دعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض»[٣٠] .

وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ ...

أى : إذا قدمت لكم الدعوة ، فلبُّوا الدعوة ، وادخلوا البيت .

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ...

فإذا أكلتم الطعام ، فاخرجوا من البيت ، ولا تمكثوا فيه ، لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة .

قال أبو حيان : نهوا أن يطيلوا الجلوس ، يستأنس بعضهم ببعض ، لحديث يحدثه به .

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ...

إن ذلك المكث فى المنزل بعد الطعام يؤذى النبى ﷺ ، حيث يمنعه من تصريف مصالحه ، والعناية بشئونه ، وهو مسئول عن أسرته ، وعن شئون المسلمين ، وكان ﷺ لشدة حيائه يستحيى أن يأمرهم بالانصراف ، لخلقه الرفيع وقلبه الرحيم .

وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ...

والله جل وعلا لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه لكم .

قال القرطبى : هذا أدب أدَّب الله به الثقلاء .

وقال الثعلبى : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم .

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ...

وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات فاطلبوها من وراء ساتر .

وقد نزلت هذه الآية فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربى عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى ، فأنزل الله : وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ... (البقرة : ١٢٥) . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر ، فلو احتجبن ، فأنزل الله آية الحجاب : وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ... وقلت لأزواج النبىّ ﷺ لما تمالأن عليه : عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ... (التحريم : ٥) . فنزلت كذلك .

ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ...

أى : هذا الذى شرعته لكم من الدخول بالإذن والخروج عقب الطعام دون الاستئناس بالحديث ، وطلب الأشياء من وراء حجاب ، أطهر وأطيب للنفوس ، وأبعد عن الريبة والتهمة ، وأكثر طمأنينة للقلوب ، من الهواجس والوساوس الشيطانية .

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ...

لقد أمر الله المؤمنين بتوقير الرسول وتعظيمه ومناصرته ، ونهى المسلمين عن إيذاء النبى ﷺ ، وإزعاجه وإقلاق راحته ، ومثال ذلك ما ورد النهى عنه فى سورة الحجرات ، من التقدم عليه أو رفع الصوت عليه أو مناداته من وراء الحجرات ، وهنا أدب الله المسلمين ، بعدم دخول بيت النبى إلا بالإذن ، وعند نضوج الطعام ، إذا كانت الدعوة إلى طعام ، وعدم إطالة المكث بعد الأكل ، وإذا طلبوا شيئا من زوجاته طلبوه من وراء حجاب ، وبين أن مثل هذه الأمور مما يؤذى رسول الله ، وما ينبغى لمؤمن أن يؤذى الرسول أى إيذاء ، كما ينبغى للمؤمنين توقير زوجاته فهن أمهات المؤمنين ، فينبغى احترامهن احترام الأم ، ولا يحل لمؤمن أن يتزوج زوجة من زوجات النبى ﷺ ، سواء كان ذلك فى حياته أو بعد وفاته .

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا .

أى : إيذاء الرسول بأى نوع من أنواع الإيذاء ، أو زواج زوجاته من بعده ، كان فى حكم الله تعالى من الكبائر المحرمات التى لا ذنب أعظم منها .

٥٤ - إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا .

إن تظهروا أمرًا من الأمور ، أو تخفوه فى صدوركم عن الناس ، فإن الله تعالى كامل العلم بكل شىء ، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، فراقبوه وأطيعوه ، وأخلصوا له ضمائركم وقلوبكم .

قيل فى سبب نزول هذه الآية : إن رجلا من المسلمين قال - لما نزلت آية الحجاب - : أنُنْهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة ، فأنزل الله هذه الآية ، ليعلم الناس برقابة الله ، ووجوب البعد عن إيذاء الرسول .

قال أبو السعود : وفى هذا التعميم مزيد تهويل ، وتشديد ومبالغة فى التوبيخ والوعيد .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : **يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ** . (غافر : ١٩) .

٥٥ - لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا .

تأتى هذه الآية للتيسير على زوجات النبى ﷺ ، فى عدم الحجاب عن أقاربهن ، لأن الفتنة مأمونة ، فقد أمرت الآية السابقة المؤمنين ، إذا كان لهم طلب من زوجات النبى ﷺ أن يسألوهن قضاء هذا الطلب من وراء حجاب ، وهذا أمر عام ، لكن فى هذه الآية بين أنه لا حرج أن تظهر أمهات المؤمنين فى ملابسهن العادية أمام الآباء أو الأبناء أو الإخوة ، أو الصديقات المخلصات المتصفات بالأخلاق الكريمة ، سواء أكن مسلمات أم كتابيات ، أو العبيد الموثوق بهم ، ثم دعاهن إلى تقوى الله ، والحرص على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله مطلع على كل ما يصدر عنهن ، وهو سبحانه على كل شىء شهيد ، وهو المجازى على كل عمل بحسبه .

وهذه الآية أباحت لزوجات الرسول ﷺ مقابلة القرابة القريبة من الرجال ، لأنهم مسئولون عن رعاية النساء وحمايتهن ، وهم : الآباء ، والأبناء ، والإخوة ، وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات ، والصديقات المخلصات ، والعبيد الذين لا أرب لهم فى المرأة ، ونلاحظ أن آية سورة النور قد أمرت نساء المؤمنين بغض البصر ، وستر الجسم ، وأباحت إبداء التزين أمام الزوج أو الأقارب الأقربين ، لأنهم حماة المرأة والمدافعون عنها .

قال تعالى : **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** . (النور : ٣١) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

تمهيد :

تأتى هذه الآيات وفاءً لحق رسول الله ﷺ ، الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فاعترافا له بالفضل، رأينا أن الله عز وجل يصلِّى عليه وتصلِّى عليه الملائكة ، وإنه لجلال ما بعده جلال ، وعناية ما بعدها عناية ، أن يتفضل الله جل جلاله بالرحمة والعناية ، والمعونة لرسول الله ، وأن تدعو وتستغفر الملائكة للرسول ، ثم يدعو الله المؤمنين أن يصلوا على النبى وأن يسلموا عليه ، وتأتى الأحاديث النبوية الشريفة فتبين فضل الصلاة على النبى ، فالله يضاعف الأجر والثواب لمن يصلى على النبى محمد ﷺ ، والله تعالى يصلى على من يصلى على رسوله ، وإنه لفضل عظيم وشرف للنبى ﷺ ولأمته ، سجَّله الله فى القرآن الكريم .

التفسير :

٥٦ - إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا .

الصلاة من الله هى أن رحمته سبقت غضبه ، وصلاة الله على النبى تعنى الثناء عليه فى الملأ الأعلى ، وشموله برحمة الله وبركته وتوفيقه وعنايته ، وصلاة الملائكة عليه معناها : الاستغفار ، والدعاء له بعلو المنزلة والتوفيق .

وصلاة المؤمنين : الدعاء له بعلو المنزلة ، ونيل الشفاعة والوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة يوم القيامة.

وقد روى البخارى عن أبى العالية قال : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء[٣١] .

معنى الآية :

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا .

أى : إن الله يصلِّى على نبيه بالرحمة والرضوان ، والملائكة تدعو له بالمغفرة ورفعة الشأن ، لذا

فأنتم أيها المؤمنون بالله ورسوله قولوا : اللهم صل وسلم على محمد ، أى : ادعوا له بالرحمة ، ومزيد الشرف والدرجة العليا .

قال القرطبى :

هذه الآية شرَّف الله بها رسوله عليه السلام ، حياتهَ وموته ، وذِكْر منزلته ...، والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره .

ثم أورد القرطبى خمس مسائل تتعلق بهذه الآية ، حول صفة الصلاة على النبى ﷺ ، وفضل الصلاة على النبى ﷺ ، وحكم الصلاة على النبى ﷺ فى التشهد الأخير من الصلاة .

وقد وردت صيغ بالصلاة على النبى ﷺ منها صحيح ومنها سقيم .

قال ابن العربى : ينبغى أن نعتمد على الصحيح دون الضعيف . اهـ .

روى الشيخان وأحمد وغيرهم عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، أمَّا السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : «قل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد»[٣٢] .

وأما التسليم فهو بأن يقولوا : السلام عليك يا رسول الله ، ومعنى السلام عليك ، الدعاء لك بالسلامة من الآفات والنقائص .

وروى مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من صلى علىّ واحدة ، صلَّى الله عليه بها عشرا»[٣٣] .

ويسن الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ فى يوم الجمعة ، وعند زيارة قبره ﷺ ، وبعد النداء للصلاة ، وفى صلاة الجنازة .

روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن أوس بن أوس الثقفى رضى الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : «من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قُبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علىّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ» ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ - يعنى وقد بليت - قال : «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[٣٤] .

وروى مسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ، فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها

عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلّت له الشفاعة»(٣٥) .

أربع مسائل

المسألة الأولى :

صلاة الجنازة أربع تكبيرات .

التكبيرة الأولى : يقرأ بعدها الفاتحة .

التكبيرة الثانية : يصلى على النبى ﷺ بالصيغة الإبراهيمية وهى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد .

التكبيرة الثالثة . بعدها الدعاء للميت .

التكبيرة الرابعة : بعدها التسليم .

المسألة الثانية :

إذا سمع المسلم الأذان ، فليقل مثل ما يقول المؤذن ، ثم يصلى ويسلم على رسول الله ﷺ ، ثم يقول : «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدًا ﷺ الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد ، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم» .

المسألة الثالثة :

قال جمهور العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ، لأن هذا قد صار شعارًا للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم .

قال عمر بن عبد العزيز : اجعلوا صلاتكم على النبيين ، ودعاءكم للمسلمين عامة ، ودعوا ما سوى ذلك(٣٦) .

المسألة الرابعة :

قال النووى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، ولا يقتصر على أحدهما ، فلا يقل : صلى الله عليه فقط ، ولا عليه السلام فقط ، بل يقول : (صلى الله عليه وسلم) أو (صلى الله عليه وسلم تسليما) ، لقوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا .

ومن أدب الدعاء أن تبدأه بالصلاة على النبى ﷺ ، ثم تدعو ، ثم تختمه بالصلاة على النبى ﷺ ، فإن الله يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما .

٥٧ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ .

الذين يؤذون الله بنسبة الولد أو الشريك له ، أو مخالفة أمره ، أو بسبِّ الدهر ، والله تعالى هو الدهر يقلب ليله ونهاره ، كما جاء فى الصحيح ، أو يؤذون رسول الله ﷺ ، بسب أو شتم أو انتقاص ، أو تعرض له أو لآل بيته ، أو أمَّته أو سنته أو دينه ، أو قولهم عن الرسول ﷺ إنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو مجنون ، هؤلاء لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، أى : طردهم من رحمته فى الدنيا والآخرة ، وهيَّأ لهم عذابًا مؤلمًا ، مُذلاً مهينًا محقرًا فى نار جهنم .

روى الإمام أحمد ، عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فى الذين طعنوا على النبى ﷺ فى تزويجه صفية بنت حيى بن أخطب .

٥٨ - ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ .

كان المنافقون يؤذون المؤمنين ، ويشيعون عنهم قالة السوء ، وقد أشاع المنافقون عن عائشة حديث الإفك ، وأشاعوا عن بعض الصحابة مثل عمر وعلىٍّ تُهمًا بدون حق ، والآية عامة فى كل من يؤذى المؤمنين والمؤمنات ، فى كل زمان ومكان .

والمعنى :

والذين ينسبون للمؤمنين والمؤمنات ما يتأذون به من الأقوال والأفعال ، بغير جناية يستحقون بها الأذية شرعًا ، أو يعيرون المؤمن بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شىء يثقل عليه سمعه ، أو يغتابون المؤمنين والمؤمنات ، ويشيعون عنهم قالة السوء ، بدون حق ، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ . فقد ارتكبوا كذبًا وذنبًا واضحًا واتهامًا بغير حق .

روى مسلم ، عن أبى هريرة : أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : «ذكرك أخاك بما يكره» ، قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن كان فيه غير ما تقول فقد بهتّه»[٣٧] .

والبهت والبهتان هو افتراء الكذب على الناس ، لأنه يبهت صاحبه أى يحيره .

روى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية ففزع منها ، وقال لأبى بن كعب : والله إنى لأضربهم وأنهرهم ، فقال له أُبىّ : يا أمير المؤمنين ، لست ممن يؤذون المؤمنين والمؤمنات ، إنما أنت معلم ومقوم .

أمّا الإيذاء بحق ، مثل إقامة حد الزنا ، وحد السرقة ، وحد القذف ، والقصاص ، وقتال المرتدين ، فغير محرّم ، بل هو واجب ، لإقامة معالم الدين ، قال ﷺ فى الحديث المتواتر الذى رواه أصحاب الكتب الستة عن أبى هريرة : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[٣٨] .

وقد فهم أبو بكر من هذا الحديث أن الزكاة حق المال ، فقاتل مانعى الزكاة ، وقال : والله لو منعونى عناقا كانوا يعطونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، وحاجه فى ذلك عمر ، فقال أبو بكر : إلا بحقها ، والزكاة حق الأموال ، فشرح الله صدر عمر لما انشرح له صدر أبى بكر .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات :

جلابيبهن : الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب واسع يغطى جميع الجسم ، كالملاءة والملحفة والعباءة ، يتخذنه إذا خرجن لداعية من الدواعى .

أدنى : أقرب .

أن يعرفن : أن يتميزن عن الإماء والقينات ، اللاتى هنَّ موضع التعرض للإيذاء من أهل الريبة .

فلا يؤذين : أى : فلا يؤذين من أهل الريبة ، بالتعرض لهن بالكلمات الجارحة .

التفسير :

٥٩ - **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .**

تفيد كتب التفسير وأسباب النزول أن المسلمات فى المدينة كن يخرجن لقضاء حاجتهن فى الفضاء ، أو بين النخيل بعيدًا عن البيوت ، قبل اتخاذ الكنف فى البيوت ، وكان الفسَّاق يتبعون النساء ، فإذا صرخت المرأة من غزلهن ومتابعتهن ، علموا أنها حرة فتركوها ، وشكت النساء إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية .

المعنى :

أيها الرسول قل لزوجاتك أمهات المؤمنين ، وبناتك الطاهرات ، ونساء المؤمنين ، يسدلن عليهن جلابيبهن إذا خرجن لقضاء حاجة ، حتى يعرفهن الرجال ، فلا يطمع فيهن الفساق ، ولا تؤذى إحداهن بكلمة جارحة ، أو مراودة على الزنا .

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

فيغفر ما سلف منهن من التفريط فى لبس الجلباب ، الساتر للجسم كله ، حيث كانت النساء فى الجاهلية وصدر الإسلام ، يخرجن لقضاء حاجتهن غير محتشمات ، فأمر الله النساء بالاحتشام ، وإسدال الثوب الخارجى الذى يستر الجسم ، فيعلم الناس أن هذه امرأة حرة ملتزمة ، فيبتعدون عن إيذائها بكلمة تجرح حياءها ، أو مراودتها عن نفسها .

تعليق :

الآن نشتكى كثيرًا من حوادث اختطاف البنات واغتصابهن ، حتى شددت مصر العقوبة على الاغتصاب ، وجعلت عقوبته الإعدام ، وتنادى الغيورون على الدين بوجوب التستر والاحتشام ، وقدم الناس دعوة للآباء والأمهات بمراقبة زى بناتهن ، ليكون مناسبًا ساترًا للجسم ، وأقول لكل مسلمة : عودى إلى دينك وتراثك وقرآنك ، وتمسكى بالزى الإسلامى ، الذى يدعو إلى ستر جميع جسم المرأة ، ما عدا الوجه والكفين ، وهذا التستر يضمن لك التصون والعفاف ، ويحميك من النظرات الجائعة ، والعيون الآثمة ، والكلمات الجارحة ، ويضمن لك ثواب الله ورضوانه ، وسعادة الدنيا والآخرة .

أمَّا صيحات الأزياء ، واستعراض الأزياء العارية ، فليس وراءها إلا إرضاء الشيطان ، وإغضاب الرحمان ، وإذا كسبت المرأة الشارع والمعجبين ، وخسرت الزوج والأسرة والذرِّية ، فما أشد ضياعها ، إن سوق الزواج أصبحت راكدة ، ونسبة الطلاق زادت على ٣٣٪ ، وهى أعلى من ذلك بين الشباب ، ومن الخير أن نلتزم بأحكام الإسلام وآدابه فى التربية ، وفى الزى ، وفى المنزل ، وفى العمل ، وفى المجتمع ، وبذلك نحافظ على بناتنا ، ونحافظ على شبابنا ، وعلى مجتمعنا ، وعلى أمتنا والله ولى التوفيق .

فى أعقاب الآية

١ – فى الطبقات الكبرى لابن سعد ، أن أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية ، استنبط من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن ، وإن لم يفعله السلف ، لأن فيه تمييزا لهم ، حتى يعرفوا فيعمل بأقوالهم .

٢ – فسر عدد من المفسرين إدناء الجلباب ، بأنه دعوة إلى لزوم تغطية وجه المرأة .

وأورد ذلك الطبرى ، وابن الجوزى ، وابن كثير ، وأبو حيان ، وأبو السعود ، والجصاص الرازى ، ورأوا تغطية الوجوه والأبدان والشعور عن الأجانب ، أو عند الخروج لحاجة .

٣ – الأستاذ عبدالحليم أبو شقة قدم كتابًا من عدة أجزاء عن «معالم شخصية المرأة المسلمة» اعتمد فيه على القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وقرر مشروعية سفور وجه المرأة ، وظهور يديها ، ومشروعية مشاركتها فى الحياة الاجتماعية بحضور الرجال ، مع رعاية الضوابط الشرعية .

٤ – الأدلة الشرعية فى القرآن والسنّة ، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، وأصول الفقه ، توضح أن جسم المرأة عورة ، ما عدا وجهها وكفيها ، وعند بعض الفقهاء : وقدميها ، ونحن نبارك ذلك امتدادًا لقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ... (الحج : ٧٨) .

وندعو المسلمين إلى الالتزام بروح الدين وهديه ، بعيدًا عن تيارين :

الأول : التشدد والتزمت .

الثانى : الإباحية والخروج على أوامر الله .

أما الطريق الثالث الذى ندعو إليه فهو التوسط والاعتدال ، والاقتداء بروح القرآن ، وروح السنة المطهرة ، وأقوال الفقهاء ، وروح الإسلام العامة ، وهى الوسطية المعتدلة ، التى تراعى أوامر الشرع من جهة ، ومصالح العباد المشروعة من جهة أخرى .

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ... (البقرة : ١٤٣) .

وقال ﷺ : «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا»[٣٩] .

وقال الله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ... (البقرة : ١٨٥) .

★ ★ ★

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

المنافقون : الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر .

مرض : ضعف إيمان ، أو فسوق وعصيان .

المرجفون : مروِّجو الأخبار الكاذبة ، ليبعثوا الرجفة والزلزلة فى قلوب المؤمنين بأكاذيبهم .

لنغرينك بهم : لنحرضنك ونسلطنَّك عليهم .

ملعونين : مطرودين من رحمة الله .

ثقفوا : وجدوا .

أخذوا : أسروا .

سنة الله : سنَّ الله ذلك فى الأمم الماضية ، وهو أن يُقتل المنافقون الذين نافقوا الأنبياء ، وسعوا فى وهنهم بالإرجاف ونحوه .

التفسير :

٦٠ – لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا .

كان المنافقون يشيعون الأراجيف عن المسلمين ، فيقولون مثلا إن السريَّة الفلانية هُزمت، أو قتل عدد منها، يبغون من وراء ذلك بثَّ الذُّعر والخوف فى نفوس المؤمنين ؛ فهددهم الله بالقتل والنفى واللعن والطرد.

ومعنى الآية :

أقسم لئِن استمر المنافقون فى إيذاء المؤمنين ، واستمرَّ رواد الزنا فى تتبع المؤمنات ، واستمرَّ أهل الإرجاف فى إشاعة الأخبار الكاذبة عن المؤمنين ، وإشاعة الهزيمة عنهم ؛ لنسلطنك عليهم يا محمد ، فتعاقبهم بالعقاب الرادع ، ثم لا يقيمون معك فى المدينة إلا وقتا قليلا ريثما يتمّ إخراجهم ، وطردهم أو قتلهم ، وقد أفاد بعض المفسرين أن الآية تشير إلى ثلاث طوائف :

ٱلْمُنَـٰفِقُونَ . الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام .

وَٱلَّـذِينَ فِى قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ . أى : شهوة الزنا .

وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ . الذين يتبعون المرأة حتى يغلبوها على عفتها ، ويغتصبوها عنوة .

وهؤلاء الطوائف يستحقون العقوبة الرادعة ، مثل قتل الزناة الذين يغتصبون المرأة ، فيكون قتلهم من باب السياسة الشرعية ، رعاية لحق المجتمع فى الأمن والالتزام [٤٠] .

وذهب أغلب المفسرين إلى أن الآية تشير إلى فئة واحدة تتصف بثلاث صفات هى : النفاق ، والغش والخديعة ، والإرجاف فى المدينة ، وهو إشاعة السوء عن المؤمنين .

والآية تهديد للمنافقين وأضرابهم من اليهود ، بأن الله سيمكن رسوله من طردهم وإخراجهم عقوبة لسوء فعالهم .

٦١- مَّلْعُونِينَ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا .

مُبغضين مطرودين من رحمة الله أينما وجدوا ؛ لأنهم ينشرون الفتن ، فأينما وجدتهم أخذتهم وعاقبتهم ، فقتِّلتهم تقتيلاً ، جزاء خيانتهم وزجرًا وتشريعًا لمن خلفهم .

٦٢- سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا .

شريعة الله العادلة التى شرعها وبينها وجعلها سمة باقية ، وسنَّة متبعة فى السابقين ، وهى مكافأة العاملين المصلحين ، ومعاقبة المنافقين المفسدين .

فقد أنفذ الله سنته وعدالته فى المكذبين المفسدين من الأمم السابقة ، كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وأصحاب مدْين وفرعون وملئه ، واليهود عندما بغوا وأفسدوا سلط الله عليهم من ينتقم منهم .

وهكذا استمرت عناية الله بعباده ، أن يسلط بطشه على الظالمين ، وأن يعاقب المفسدين ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ . (البقرة : ٢٠٥) .

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا .

فهو سبحانه عادل فى حكمه ، فعّال لما يريد ، وكما أنزل بطشه بالمنافقين المكذبين فيما سبق ، فسيفعل ذلك باللاحقين ، قال تعالى : أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . (المرسلات : ١٦-١٩) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج ١٢-٢٢).

★ ★ ★

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾

المفردات :

الناس : أهل مكة المشركون .

عن الساعة : عن القيامة ، استهزاءً وتعنتا ، أو امتحانا .

قريبا : ربما توجد فى زمن قريب ، وفيه تهديد للمستعجلين .

لعن الكافرين : طردهم وأبعدهم عن رحمته .

سعيرا : نارًا شديدة الاتقاد والاشتعال والاستعار .

وليا : معينًا .

نصيرا : ناصرًا يخلصهم من النار .

تقلب وجوههم : تدار من جهة إلى أخرى ، كاللحم يشوى بالنار .

سادتنا : ملوكنا وقادتنا ، الذين لقّنوهم الكفر .

وكبراءنا : علماءنا .

فأضلونا السبيلا : أضلونا طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر .

ضعفين : مثلين .

العنهم لعنا : عذبهم وأبعدهم بلعن هو أشد اللّعن وأعظمه .

كـــــــبيرا : أى : عدده ، أو عظيما .

التفسير :

٦٣- يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا .

أى : يسألونك عن وقت قيامها ، وكان المشركون فى مكة يسألون عن الساعة على سبيل الهزء والسخرية ، وكان اليهود يسألون عنها امتحانا وتعنتا ، لأنهم يعلمون من التوراة أن الله قد أخفاها ، فلم يطلع عليها ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلاً ، حتى يجتهد الناس فى دينهم وتقواهم ، وطاعتهم لله خشية قيام الساعة التى لا وقت لها ، فربَّما نزل الموت بالإنسان فجأة ، إثر حادثة أو نازلة ، ومن مات فقد قامت قيامته، وهذا يجعله فى حالة ترقب وانتظار وتوقع .

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ...

فلا يعلم وقت مجيئها إلا الله سبحانه وتعالى ، وفى آيات كثيرة يفيد القرآن أن الله أخفاها لحكمة إلهية عليا ، حتى يجتهد العباد ، ويجازَى النَّاسُ على اجتهادهم عن عدالة ، كما أخفى الله الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ، وأخفى ساعة الإجابة فى ساعات يوم الجمعة ، وأخفى أولياءه فى خلقه ، وأخفى ليلة القدر فى شهر رمضان ، أو فى العشر الأواخر من رمضان ، وأخفى اسمه الأعظم فى أسمائه الحسنى ، كل ذلك ليظل المؤمن مراعيا لحرمة الصلوات جميعا ، وحرمة شهر رمضان ، أو العشر الأواخر كلها ويواظب على الاجتهاد فى يوم الجمعة وليلته ، ويذكر أسماء الله الحسنى كلَّها .

وبعض الناس يدَّعى أن لعدد تسعة عشر أهمية كبرى ، ويدَّعى أن قيام الساعة سنة ١٩٩٩ م ، وكلها ترهات وأكاذيب لا حقائق لها ، وقد سبق أن ادعى كُهَّان ومنجمون وفلكيون موعد قيام الساعة ، وظهر كذبهم وتخبطهم ، ثم هربوا من مُلاحقة الناس لهم ، والساعة غيب لا يعلمه إلا الله .

قال تعالى : **يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا** . (النازعات : ٤٢-٤٦) .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا .

أى : إنها مع استئثار الله بعلمها ، فإنها مرجوة المجىء عن قريب ، فليعمل لها كل إنسان ، فمتاع الدنيا قليل مهما طال أمدها ، **وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا** . (النساء : ٧٧) .

وفى الصحيحين : أن جبريل سأل النبى ﷺ عن الساعة ؟ فقال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأنبئك عن علاماتها : أن تلد الأمة ربتها ، وأن يتطاول رعاة الإبل البُهم فى البنيان ، وأن يصبح الحفاة العالة سادة الأمم» [١] .

والموت أقرب إلى الإنسان من شراك نعله .

قال الشاعر :

كل امرئ مصبّح فى بيته والموت أدنى من شراك نعله

وقال تعالى : ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . (ق : ١٩) .

٦٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ .

إن الله طرد الكافرين من رحمته، فقد كفروا بالله تعالى، وجحدوا نعمه، فعاقبهم الله تعالى بالطرد من رحمته ، وإبعادهم عنها ، وأعد لهم فى الآخرة نارًا تتسعّر وتتلظى حتى يدخلوها ، ويصلوا سعيرها ونارها.

قال تعالى : ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَـٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (الليل : ١٤-١٦) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ... (النساء : ١١٦) .

٦٥- ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

ماكثين فى جهنم ، خالدين فيها خلودًا أبديا ، لا ينفك عنهم العذاب ، ولا يخفف عنهم ، ولا يجدون من يواليهم ويكون لهم مغيثا ومعينًا ينقذهم مما هم فيه ، ولا من ينصرهم ويخلصهم منه ، والمقصود أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب .

٦٦- ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا﴾ .

اذكر يوم تتقلب وجوههم فى النار ، كما يشوى اللحم فيتعرض للنار من جميع جوانبه ؛ حتى لا تبقى صفحة لم تصل إليها النار .

وقد ذكر الوجه – مع أن جسمهم كلّه يتعرض للنار – لأن الوجه أغلى ما فى الجسم ، فإذا تعرض الوجه للنار كان أشد وأنكى وأظهر للعذاب .

قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ... (الزمر : ٢٤) .

وذلك أن الوجه إذا تعرض للألم فى الدنيا دافع عنه الإنسان بيده أو بجسمه ، لكن يوم القيامة يتعرض الوجه للعذاب ، ويتقلب ويتلوَّن من لون إلى لون ، أو من حالة إلى حالة ، ثم يندم الكافر فى وقت لا ينفع فيه الندم ، على حد قول الشاعر :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ويتمنى الكافر حين يعذب أنه أطاع الله وآمن به ، وأطاع رسوله ، ودخل فى دينه ، وصدَّق برسالته .

قال القرطبى :

وهذا التقليب : تغيير ألوانهم بلفح النار ، فتسود مرة ، وتخضرُّ أخرى . ا هـ .

وحين يشتد العذاب عليهم ، وتبدَّل جلودهم ؛ يتمنون أنهم ما كفروا ، وهى أمنية ضائعة ، فقد فات الأوان ، إنما هى الحسرة على ما كان ، ثم تنطلق من ألسنتهم النقمة على سادتهم وكبرائهم الذين أضلوهم.

٦٧- وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ .

وقال الكفار وهم يعذبون فى جهنم : يا ربنا لم نكن مجرمين أُصلاء ، ولا أئمة فى الكفر والضلال ، بل كنَّا ضعفاء تابعين ، سرنا وراء الملوك والحكام والعلماء وأطعناهم ، فمالوا بنا عن طريق الحق والهدى، وساروا بنا فى طريق الضلال والكفران ، يريدون أن يتملَّصوا من المسئولية والتبعة، وأن يلقوا الذنب والإثم على القادة والكبار، ولكن هيهات، فقد أعطى الله كل إنسان العقل والإرادة والاختيار، وجعل عليه مسئولية شخصية .

قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . (المدثر : ٣٨) .

٦٨- رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا .

أى : أعط لهؤلاء الرؤساء والقادة والأئمة فى الكفر ضعفى عذابنا ؛ فضِعفٌ لكفرهم ، وضِعفٌ لإضلال الناس وغوايتهم ، وأبعدهم يا ربنا من رحمتك بعدًا عظيمًا سحيقًا لا أمل فى رحمة بعده ، وهم بهذا إنما ينفسون عما فى أنفسهم من غيظ وغضب ، والسعيد من شمله الله برحمته ، والشقى من لعنه وطرده من رحمته.

روى البخارى ، ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : «قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلاَّ أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم» [٤٢] .

وذكر ابن كثير أن هذه الآية تقرأ : (لعنا كبيرًا) ، وتقرأ : (لعنا كثيرًا) ، وهما بمعنى واحد .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

التفسير :

٦٩- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا .

هذه تربية للمؤمنين نحو نبيهم ، أن يحترموه ويعزروه ويوقروه ، وألا ينسبوا إليه ما لا يليق ، كقول بعض المنافقين : إن محمدا تزوج مطلقة ابنه ، وشغبوا عليه فى ذلك ، بحثا عن أىّ نقطة ينفذون منها إلى إنقاصه ﷺ .

وفى الصحيح : أن بعض الأعراب قال للنبى ﷺ ، وهو يوزع الغنائم : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، اعدل ، فتمعّر وجه النبى ﷺ ، وقال للأعرابى : «ويحك ، فمن يعدل إن لم أعدل» ، ثم قال ﷺ : «يرحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[٤٣] .

وقد أفاد القرآن الكريم أن بنى إسرائيل كثر عنتهم ، فقالوا لموسى :

أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ... (النساء : ١٥٣) .

وقالوا : ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ... (الأعراف : ١٣٨) .

وقالوا : فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ . (المائدة : ٢٤) .

وأفادت كتب الصحيح ، مما رواه الإمام البخارى ، والترمذى ، أن بنى إسرائيل اتهموا موسى بأن فى جلده برصا ، أو به أدرة ، أى : كبيرَ الخصية ، وأنه لذلك يستتر بعيدا عنهم عند الاستحمام ، وأن موسى اغتسل يوما ووضع ثوبه على حجر ، فطار الحجر بثوبه ، فسار موسى وراء الحجر ، يقول : ثوبى حجر .. ثوبىَ حجر ، فرآه جمع من بنى إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله[٤٤] .

وقد أفاد الفخر الرازى وغيره من المفسرين أن بنى إسرائيل أشاعوا عن موسى النقائص : فنسبوا إليه السحر والجنون ، ولطخوه بالزنا ، وأشاعوا عنه أنه قتل أخاه هارون ، وكان هارون قد مات فدفنه فى سيناء وعاد وحيدا .

وقد أظهر الله براءة موسى من كل هذه التهم والأكاذيب ، وقد حباه الله بالفضل حين رعاه وصنعه على عينه ، ونجاه من اليمّ ، ومن فرعون وملئه ، وأعطاه الرسالة ، وناداه من جانب الطور الأيمن ، وجعل له سلطانًا ، وحفظه من أذى فرعون ، وجعله الله من أولى العزم من الرسل ، ورفع منزلته وأعطاه التوراة ، وجعله وجيها ذا وجاهة وشرف وسيرة حسنة .

ومقصود الآية نهى المسلمين عن إيذاء الرسول ﷺ ، فالله تعالى مدح رسوله وبوأه المنازل العالية ، والابتعاد عن التشبه بقوم موسى الذين آذوه ، وقد برأه الله من التهم التى نسبت إليه ، وكان موسى وجيها عالى القدر والمنزلة عند الله تعالى .

قال تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا . (مريم : ٥١-٥٣) .

٧٠- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا .

يا أيها الذين آمنوا راقبوا الله بطاعته واجتناب معصيته ، والتزام الصواب من القول ، ويدخل فيه تلاوة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهداية الضال ، وقول الحق وإن كان مرًّا ، والبعد عن السب والقذف ومقالة السوء ، وتطهير اللسان من كل فحش وبذاءة .

٧١- يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا .

أى : إذا اتقيتم وقلتم قولا صوابا صادقا كان الجزاء من الله تعالى أن يصلح أعمالكم ، بأن يمنحكم التوفيق والهداية ، وإخلاص النيَّة ويوفقكم للأعمال الصالحة .

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... يسترها ويمنحكم المغفرة والتوبة والمسامحة ، وتكفير السيئات وتطهيركم من الذنوب .

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا .

أى : من أطاع الله والرسول فى أداء الواجبات وترك المنهيات ، وتنفيذ أوامر الشرع ، والاقتداء بالرسول الأمين فى قوله وعمله وهديه وسلوكه وآدابه ، فقد نال خيرا كبيرا بحسن السلوك فى الدنيا، وسعادة القلب ، وراحة الضمير والتوفيق فى حياته وسلوكه ، وفاز فوزًا عظيما فى الآخرة بدخول الجنة والتمتع برضوان الله رب العالمين .

★ ★ ★

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات :

عرضنا الأمانة : طلبنا القيام بحق الأمانة ، وهى الثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية .

الأمانة : التكاليف الشرعية كالصلوات .

أبين : امتنعن .

أشفقن : خفن .

وحملها الإنسان : والتزم الإنسان القيام بها .

ظلوما : كثير الظلم .

جهولا : كثير الجهل .

التفسير :

٧٢- إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا .

خلق الله الكون بقدرته ، ورفع السماء وبسط الأرض ، وأرسى الجبال ، وسخر الهواء والفضاء ، وسير الشمس والقمر والليل والنهار ، وجعل الظلمات والنور .

وهذا الكون خاضع لله خضوع القهر والغلبة ، فالسماء مرفوعة ، والأرض مبسوطة ، والجبال راسية والبحار جارية ، والليل مظلم ، والنهار مضيء ، والشمس مسخرة ، والقمر منير ، وكلٌّ فى فلك يسبحون ، ولا يملك أن يغير مساره ، أو يتمرد على وظيفته .

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (يس : ٤٠) .

وقال تعالى : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .
(فصلت : ١١)

أى : أظهرت السماء والأرض من الخضوع والامتثال لأمر الله ما لو نطق لسان حالهما لقال : أَتَيْنَا طَآئِعِينَ. فهذا الكون مسخر للطاعة الآلية، لا يملك غير الطاعة والالتزام، بدون تفكير أو امتناع عن أداء وظيفته.

أما الإنسان فقد خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله خليفة فى الأرض ، ومنحه الله العقل والإرادة والاختيار ، أى أنه يملك أن يطيع الله ، ويملك المعصية والكفر ، وترك الطاعات واقتراف المحرَّمات.

قال القفال وغيره :

العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى : أن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها ، لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكاليف أمر حقّه أن تعجز السماوات والأرض والجبال عن حمله .

وقد كُلف الإنسان بحمل الأمانة فقبل الالتزام بأدائها ، حيث أعده الله لذلك بما زوَّده من ملكات وغرائز وطبائع ، وما غرس فيه من قدرات . ا هـ .

إن الكون كله خاضع لله تعالى خضوعًا تاما ، وامتثالاً عمليا بدون عقل أو تفكير أو إرادة ، أما الإنسان فقد أعطاه الله العقل والإرادة والاختيار وتحمل المسئولية .

وحين عرض الله تحمل الأمانة على الكون أبى أن يتحملها ، فلم يكن مهيأ لذلك ، كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، أى أن قدرات البعير كانت دون تحمّل هذا الحِمل .

أما الإنسان فقد تحمل الأمانة ، وهى قبوله أن يثاب إذا أطاع ، وأن يعاقب إذا عصى ، وقد التزم بأداء الأمانة قلة قليلة .

وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

وقد فرَّط معظم أفراد بنى آدم فى أداء حق الأمانة ، حيث كان معظم أفراد الإنسان (ظَلُومًا) تاركا للأمانة (جَهُولًا) بقيمة أداء الأمانة حيث يكون ذلك سببا فى سعادته فى الدنيا والآخرة .

أى : أن من أفراد الإنسان من يختار المعصية والإفساد والشر ، ويستحق النار وجهنم عن جدارة ، وفى الحديث القدسى أن الله تعالى قال للجنة والنار : «ولكل واحدة منكما علىَّ ملؤها» .

٧٣- لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

فالله منح الإنسان العقل والإرادة ، وأرسل له الرسل وأنزل الكتب ، لتتم إقامة الحجة ، ولتتضح أمامه طرق الهداية والغواية .

قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

وقال عز شأنه: رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. (النساء : ١٦٥)

ولما كان الله قد زوَّد الإنسان بالعقل ، والقدرة على تحمل الأمانة ، وكرَّم الله الإنسان بالعقل ، وسخر له الكون ، فمن الطبيعى أن يطيع الله ، ويلتزم بأوامره بعض أفراده .

قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

وأن يعصى كثير من أفراد الإنسان لوجود الظلم والجهل والغرور فى تركيبهم ، وقصورهم عن التعالى والتسامى ، كما قال سبحانه : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . (الشمس : ٧ – ١٠).

كان كل ذلك مؤديًا إلى استحقاق العصاة للعذاب ، واستحقاق المؤمنين الطائعين للتوبة والمغفرة والرحمة.

جاء فى ظلال القرآن :

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا .

فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة ، وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ، ويهتدى بنفسه ، ويعمل بنفسه ، ويصل بنفسه .. هذا كان ليتحمل عاقبة اختياره ، وليكون جزاؤه من عمله ، وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، وليمدّ الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركّب فيهم من نقص وضعف ، وما يقف فى طريقهم من حواجز وموانع ، وما يشدهم من جواذب وأثقال ، فذلك فضل الله وعونه ، وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده [٤٥] . وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا .

★ ★ ★

خـاتمـة

اشتملت سورة الأحزاب على كثير من الشئون الزوجية ، ومن المناسب أن نذكر نبذة عن أمرين كثر الخوض فيهما من بعض المغرضين ، ومن نابتة الإسلام الذين تعلموا فى مدارسهم ، وسمعوا كلام المبشِّرين، وليتهم فكّروا وتأملوا قبل أن يتكلموا .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادًا

الأول : تعدد زوجاته ﷺ .

الثانى : إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

أسباب تعدد زوجاته ﷺ

مقدمة :

تزوج النبى ﷺ خديجة بنت خويلد وعمره خمس وعشرون سنة ، ومكث معها خمسًا وعشرين سنة ، وماتت وعمره الشريف خمسون سنة ، ولم يتزوج عليها فى حياتها ، وظل وفيا لذكراها ، وكانت تدافع عنه وتسانده فى تبليغ الرسالة ، وسمّى العام الذى ماتت فيه عام الحزن ، وكان عمر خديجة عندما تزوج بها النبى ﷺ أربعين سنة ، وعندما ماتت كان عمرها خمسًا وستين سنة ، وقد أنجب منها القاسم ، وعبد الله الذى كان يلقب بالطيب والطاهر ، ورزق منها فاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم .

أسـباب عـامة

الرسول ﷺ مكلف بتبليغ رسالته للرجال والنساء ، وزوجاته كنَّ يبلغن الشريعة وأمور النساء إلى النساء ، ثم إن الرسول ﷺ مكلف بالبلاغ للرسالة ، فكان إذا بلّغ زوجاته قد أدى هذا البلاغ ، وهن يبلغن المسلمين والمسلمات .

وكانت القبائل تتشرف بإصهار الرسول ﷺ إليها ، وتسارع فى نصرة الإسلام لذلك ، وكان معظم زوجاته من قريش ، قبيلة الخلافة والرئاسة للعرب .

أسـباب خـاصة

١ – تزوج عائشة بنت أبى بكر وزيره ، وكانت فقيهة أديبة شاعرة عالمة ، وقد استدركت على الصحابة كثيرا من أحكام الفقه والحديث وعلوم الدين .

٢ – تزوج حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذى توفى مجروحًا فى غزوة بدر ، وكان فى زواجها إكرام لأبيها عمر بن الخطاب .

٣ – سودة بنت زمعة بنت عبد شمس القرشية ، توفى عنها زوجها السكران بن عمر بن عبد شمس (ابن عمها) بعد الرجوع من الحبشة ، ولم يُرو أن سودة كانت جميلة أو غنية ، إنما كانت من المهاجرات المؤمنات ، وقد مات زوجها ، فتزوجها النبى ﷺ ليعولها ويكرمها .

٤ – زينب بنت جحش الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، ربيت بعينه ورعايته وخطبها لمولاه زيد بن حارثة ، ولم ينجح هذا الزواج لحكمة إلهية ، فأمر الله النبى ﷺ بزواجها ، ليبطل عادة مستحكمة فى العرب ، وهى اعتبار الابن المتبنى كالابن الصلبى ، فى أنه لا يجوز أن يتزوج الأب زوجة ابنه الدعىّ .

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ . (الأحزاب : ٣٧) .

٥ – أم سلمة ، وهى هند بنت أبى أمية المخزومية ، مات زوجها فى غزوة أحد ، وترك لها أولادًا صغارًا ، فتزوجها النبى ﷺ لكفالتها ورعاية أطفالها ، وهى صاحبة المشورة الحسنة فى صلح الحديبية .

٦ – جويرية بنت الحارث الهلالية ، وأبوها سيّد بنى المصطلق ، وقد وقعت فى الأسر ، ففك النبى أسرها وتزوجها ، فكانت أيمن امرأة على قومها ؛ فقد أعتق المسلمون أسرى بنى المصطلق ، وقالوا : لا نسترق أصهار النبى ﷺ .

٧ – صفية بنت حيى بن أخطب الإسرائيلية ، وقد وقعت فى الأسر فاصطفاها النبى ﷺ وأعتقها وتزوجها، على عادة الملوك إذا غلبوا على قوم أن يتزوجوا بنت ملكهم تقربا إليهم وتألفا لهم .

٨ – أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، أسلمت بمكة وهاجرت إلي الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش ؛ فتنصَّر زوجها هناك وفارقها ، فأرسل النبى ﷺ إلي النجاشى فخطبها له، وأصدقها النجاشى أربعمائة دينار مهرًا نيابة عن النبى ﷺ .

والخلاصة : أنه ﷺ راعى المصلحة العامة فى زواجه ، وراعى كفالة الأيتام ، وتعويض الأرملة عن موت زوجها شهيدًا ، وردّ الجميل لوزيريه أبى بكر وعمر ، وتعويض بنى المصطلق عن هزيمتهم بزواج بنت سيدهم ، ومكافأة اليهود من بنى النضير بزواج صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، إلى غير ذلك من الأهداف السامية .

كما تسرَّى النبى ﷺ بمارية القبطية التى أهداها له المقوقس عظيم القبط بمصر فى جملة هدايا ، فأسلمت ودخل بها ﷺ ، وولدت له إبراهيم ؛ فأعتقت [٤٦] .

تعدد الزوجات عند المسلمين

فى صدر الإسلام كثرت الغزوات والفتوح ، وأباح الله تعدد الزوجات كطريق مشروع إلى إحصان الرجل والمرأة على السواء ، فالرجل أكثر تعرضا لمخاطر الحروب ، ويترتب على ذلك توافر أعداد من النساء ليس لهن من يكفلهن أو يحصنهن ، فالتعدد وسيلة لإشباع حاجة المرأة .

وقد تمرض الزوجة مرضا يمنعها من أداء وظائفها ، ويريد زوجها أن يعف نفسه عن الحرام ، وأن يرعى زوجته الأولى فى نفس الوقت .

وقد تكون الزوجة عقيما لا تلد ، وتشتد حاجة الزوج إلى الولد ، مع الوفاء لزوجته العقيم .

وقد تقوى طبيعة الرجل الجنسية ، وتشتد حاجته إلى زوجة أخرى ، وقد تغلب العاطفة والحب قلب الرجل المتزوج ، ويجد فى نفسه القدرة على الزواج مرة ثانية حفاظا على دينه وعرضه .

وقد اشترط الإسلام شروطا واجبة منها : القدرة على النفقة ، والقدرة على العطاء بكلٍّ أنواعه لكل زوجة ، والقدرة على العدل ، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل وجب أن يقتصر على زوجة واحدة .

وفى الحديث الشريف : «من كانت له زوجتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيّه مائل» [٤٧] .

وقد تحدثت فى توسع عن هذا الموضوع فى كتاب «المرأة فى الإسلام» الباب الخامس: تعدد الزوجات، وذكرت أن علماء الدين الإسلامى فى موضوع تعدد الزوجات ، فريقان :

الفريق الأول : يرى أن التعدد غير مرتبط بالضرورة ، بل هو جائز أصلا من غير ضرورة .

الفريق الثانى : يرى أن التعدد وجد فى القرآن عندما يكون الإنسان وصيًا على يتيمات ، وفيهن من تصلح للزواج ، وهو مضطر للدخول عليهن ، ولا يقبل أن يكون فاتنا أو مفتونا ؛ فأبيح له التعدد كخروج من مأزق عدم العدل فى اليتامى ، وإذا خاف من عدم العدل بين الزوجات وجب الاقتصار على زوجة واحدة .

وهكذا يصبح التعدد فى الإسلام للضرورات التى تبيح المحظورات ، ولكنها تقدر بقدرها .

ويرى الإمام محمد عبده أن التعدد فى صدر الإسلام كانت له محاسنه ، حيث النفوس سليمة، والتربية الإسلامية لها آثارها الطيبة فى النفوس ، لكن التعدد الآن له أضرار متعددة ، ولا نستطيع تربية الأمة تربية إسلامية حسنة مع انتشار تعدد الزوجات .

ويرى الإمام محمد عبده، والسيد رشيد رضا، والشيخ محمد المدنى عميد كلية الشريعة بالأزهر سابقًا، أنه ليس فى دين الله ما يمنع من أن يعهد بإباحة التعدد إلى جهة حكومية ، أو شرعية ، أو أهلية تكون مهمتها التأكد من أن هناك دواعى حقيقية للتعدد ، وأن هناك ضمانات للعدل وعدم الجور ، ومهمة هذه الهيئة الاطمئنان على تنفيذ ما شرطه القرآن الكريم من شروط لإباحة التعدد ، وأنَّ طالب التعدد أهل للالتزام بالضوابط التى وضعها الإسلام لذلك [٤٨] .

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ . (النساء : ٣) .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الأحزاب

١ – الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين .

٢ – إبطال العادة الجاهلية ، وهى إعطاء المتبنى حكم الابن ، وبيان أن الدِّين منه براء .

٣ – إرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة .

٤ – ذكر النعمة التى أنعم الله بها عليهم فى وقعة الخندق ، من تيسير النصر بعد أن اشتد الخطب .

٥ – تخيير نساء النبى ﷺ بين شيئين : الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا ، والبقاء معه إذا أردن الله ورسوله والدار الآخرة .

٦ – التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إن ارتكبن الفواحش ، ونهيهن عن الخضوع ، وأمرهن بالقرار فى البيوت، ومدارسة القرآن والسنّة ، ونهيهن عن التبرج .

٧ – قصة زينب بنت جحش ، وزيد مولى رسول الله ﷺ .

٨ – ما أحل الله لنبيه من النساء ، وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .

٩ – النهى عن إيذاء المؤمنين للنبى ﷺ ، إذا دخلوا بيته لطعام ونحوه .

١٠– الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب .

١١– أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .

١٢– تهديد المنافقين وضعاف الإيمان ، والمرجفين فى المدينة .

١٣– سؤال المشركين عن الساعة متى هى .

١٤– النهى عن إيذاء النبى ، حتى لا يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .

١٥– ما هى الأمانة ؟ وما معنى عرضها وتحملها ؟

★ ★ ★


تفسير سورة سبأ

أهــداف ســورة سبــأ

سورة سبأ سورة مكية ، نزلت بعد سورة لقمان . وقد نزلت سورة سبأ فى الفترة ما بين السنتين الحادية عشرة والثانية عشرة من حياة الرسول بمكة بعد البعثة ، فقد جاء الوحى إلى النبى وعمره أربعون سنة ، ثم مكث فى مكة ثلاثة عشر عاما ، وفى المدينة عشرة أعوام ، ومات وعمره ثلاث وستون سنة .

وكانت سورة سبأ ضمن مجموعة السور التى نزلت فى السنوات الأخيرة من حياة المسلمين بمكة .

وعدد آيات سورة سبأ ٥٤ آية ، وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سبأ ، وهى مدينة من المدن القديمة فى اليمن ، وكانت عاصمة دولة قديمة بها ، وقد خربت عند انهيار سد مأرب بسبب سيل العرم .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ من رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَربٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ . (سبأ : ١٥-١٧) .

موضوعات الســورة

موضوعات سورة سبأ هى موضوعات العقيدة الرئيسية : توحيد الله ، والإيمان بالوحى ، والاعتقاد بالبعث ، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية ، وبيان أن الإيمان والعمل الصالح - لا الأموال ولا الأولاد - هما قوام الحكم والجزاء عند الله ، وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله ، وما من شفاعة عنده إلا بإذنه .

والتركيز الأكبر فى السورة على قضية البعث والجزاء ، وعلى إحاطة علم الله وشموله ، ودقته ولطفه، وتتركز الإشارة فى السورة إلى هاتين القضيتين بطرق متنوعة ، وأساليب شتى ، وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية .

فعن قضية البعث تقول السورة : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ... (سبأ : ٣) .

ويرد قرب ختام السورة : قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ . (سبأ : ٤٨) .

وقد عرض الفيروزبادى مقصود السورة فقال :

بيان حكمة التوحيد ، وبرهان نبوة الرسول ﷺ ، ومعجزات داود وسليمان ووفاتهما ، وهلاك سبأ ، وشؤم الكفران ، وعدم الشكر ، وإلزام الحجة على عباد الأصنام ، ومناظرة أهل الضلالة ، وذكر معاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعد المُنفقين والمتصدقين بالإخلاف ، والعودة إلى إلزام الحجة على منكرى النبوة ، وتمنى الكفار فى وقت الوفاة الرجوع إلى الدنيا . اهـ .

ونلاحظ أن هذه القضايا التى تعالجها السورة ، قد عالجتها السور المكية فى مواضع شتى ، ولكنها تعرض فى كل سورة مصحوبة بمؤثرات متنوعة جديدة على القلب فى كل مرة ، ومجال عرضها فى سورة سبأ يأتى مصحوبا بمؤثرات عدة ، ممثلة فى رقعة السماوات والأرض الفسيحة ، وفى عالم الغيب المجهول المرهوب ، وفى ساحة الحشر الهائلة العظيمة ، وفى أعماق النفس المطوية اللطيفة ، وفى صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة ، وفى مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة وغريبة ، وفى كل منها مؤثر موحٍ للقلب البشرى، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهى تفتح العيون على هذا الكون الهائل ، وعلى صحائفه وما فيها من آيات الله، وعلى مجال علمه اللطيف الشامل ، الدقيق الهائل .

وتستمر السورة فى مناقشة المكذبين وإلزامهم بالحجة وإيقافهم أمام فطرتهم ، وأمام منطق قلوبهم بعيدًا عن الغواشى والمؤثرات المصطنعة [٤٩] .

قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ . (سبأ : ٤٦) .

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشرى فى مجالات متنوعة ، وتواجهه بالحقائق والأدلة والحجج ، حتى تنتهى بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة .

فصول السورة

يجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى جولات قصيرة متلاحقة متماسكة ، يمكن تقسيمها إلى ستة فصول :

١ – الألوهية وإثبات البعث :

تحدثت الآيات التسع الأولى من السورة عن عظمة الخالق المالك لما فى السماوات والأرض ، المحمود فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، وقررت شمول علمه الدقيق لما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من

السماء وما يعرج فيها ، ثم تطرقت للحديث عن إنكار الكافرين لمجىء الساعة ، وردت عليهم بتأكيد إتيانها ، لتتم إثابة المؤمنين ، وعقوبة الكافرين ، وليستيقن العلماء والمؤمنون أن القرآن حق وصدق ، وهداية إلى صراط العزيز الحميد ، ثم تحدثت عن عجب الكفار من قضية البعث واستبعادهم لوقوعه ، بعد أن يموتوا ويمزقوا كل ممزق ، وأجابت عن ذلك بأنه لا وجه لاستبعادهم ، وهم يرون من كمال قدرة الله ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، وهددت المكذبين بخسف الأرض من تحتهم ، أو إسقاط السماء كسفا عليهم .

٢ – داود وسليمان :

تتناول الآيات من (١٠ – ١٤) طرفا من قصة داود وسليمان وتذكر نعمة الله عليهما وفضله ، فقد أعطى داود النبوة والزبور والصوت الحسن ، وإذا سبح اللهَ سبحت معه الجبال والطير ، وألان الله له الحديد ، وأوحى إليه أن يعمل دروعا سابغات للحرب ، كما حثه الله على العمل الصالح ، فإنه سبحانه بصير خبير.

وقد سخر الله لسليمان الريح ، ذهابها شهر ورجوعها شهر ، تحمل بساطه هو وخاصته إلى حيث يشاء، وقد ذلل الله له الجن تعمل له أنواع المصنوعات ، فلما انقضى أجله مات واقفًا متكئًا على عصاه ، وما دل الجن على موته إلا أرضة قرضت عصاه فسقط ، فانطلقوا بعد أن كانوا مسجونين .

٣ – قصة سبأ :

ضرب الله مثلا للشاكرين بداود وسليمان ، وقليل من الناس من يدرك فضل الله عليه ، وعظيم نعمائه التى لا تعد ولا تحصى ، ثم ضرب الله مثلا للبطر وجحود النعمة بمملكة سبأ ، وقد سبق أن وُصفت فى سورة النمل بالعظمة والقوة ، فلما آمنت بلقيس وكفر من جاء بعدها وأعرضوا عن شكر الله أصابهم الدمار .

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن ، وكانوا فى أرض مخصبة لا تزال منها بقية إلى اليوم ، وقد ارتقوا فى سلم الحضارة ، حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق ، فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادى بينهما سدًا به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا المياه بكميات عظيمة وراء السد وتحكموا فيها وفق حاجتهم ، فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم ، وقد عرف باسم : سد مأرب .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال ، رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ولكنهم لم يشكروا نعمة الله ولم يذكروا آلاءه ، فسلبهم هذا الرخاء ، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه – وهى الحجارة – لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت الجنان واحترقت ، وتبدلت تلك الجنان الفيحاء صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة ، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ ... أى : بنعمة الله ، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ . (سبأ : ١٧) .

وقد استغرقت قصة سبأ الآيات من (١٥ – ٢١).

٤ – الشرك والتوحيد :

المتأمل فى الآيات من (٢٢ – ٢٧) فى سورة سبأ يجد ظاهرة متميزة، حيث تكرر قول : قُلْ ، فى أول هذه الآيات ، كما تضمنت عددًا من الأسئلة والحقائق ، فى أسلوب رائع قوى .

لقد بدأت الآيات بتحدى المشركين أن يدعوا الذين يزعمون أنهم آلهة من دون الله ، وهم لا يملكون نفعًا ولا ضرا ، ولا يملكون شفاعة عند الله – ولو كانوا من الملائكة – فالملائكة يتلقون أمر الله بالخشوع الراجف ولا يتحدثون حتي يزول عنهم الفزع والارتجاف العميق ، ويسألهم الله عمن يرزقهم من السماوات والأرض، والله مالك السماوات والأرض وهو الذى يرزقهم بلا شريك ، ثم يفوض أمر النبى وأمرهم إلى الله ، وهو الذى يفصل فيما هم فيه مختلفون ، ويختم هذا الفصل بالتحدى كما بدأه ، أن يروه الذين يلحقونهم بالله شركاء ، كَلاَّ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (سبأ : ٢٧) .

وهكذا تطوف الآيات بالقلب البشرى فى مجال الوجود كله : حاضره وغيبه ، سمائه وأرضه، دنياه وآخرته ، وتقف به أمام رزقه وكسبه وحسابه وجزائه ، كل ذلك فى فواصل قوية ، وضربات متلاحقة وآيات تبدأ كل آية منها بفعل الأمر: قُلْ ، وكل قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع بالبرهان فى قوة وسلطان .

وفى أعقاب هذه الآيات بيان لرسالة الرسول، وأنها عامة للناس أجمعين : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (سبأ : ٢٨) .

٥ – مشاهد القيامة والجزاء :

يستغرق الفصل الخامس فى السورة الآيات من (٢٩ – ٤٢) ، ويبدأ بسؤال يوجهه الكفار للنبى عن يوم القيامة ، استبعادًا لوقوعه ، والجواب أن ميعاده لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد اعتز الكفار بالأموال والأولاد ، وقالوا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السابقة عليه .

وهنا يعرض القرآن موقف الظالمين أمام ربهم، حيث يتحاورون فيراجع بعضهم بعضًا ، كل منهم يحاول أن يلقى التبعة على أخيه، فيقول الضعفاء للسادة والكبراء : لقد تصديتم لنا بالإغراء ، والمكر بنا ليلا ونهارا، حتى أفسدتم علينا رأينا ، وجعلتمونا نكفر بالله ، ونجعل له نظراء من الآلهة الخيالية ، ويحتج الكبراء ويقولون : أنحن منعناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين إذ أخذتم الكفر عنا بالتقليد .

وعض الجميع بنان الندم حين رأوا العذاب ، والأغلال فى أعناقهم ، ثم نرى المترفين يقاومون كل إصلاح ، ويكذبون كل رسالة : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ . (سبأ : ٣٤).

وقد احتج المترفون بكثرة أموالهم وأولادهم ، واعتقدوا أن فضلهم فى الدنيا سيمنعهم من العذاب فى الآخرة ، وهنا يضع القرآن موازين الحق والعدل ، ويقرر القيم الحقيقية التى يكون عليها الجزاء والحساب ، وهى قيم الإيمان والعمل الصالح ، لا الأموال والأولاد .

وفى مشاهد القيامة يتضح أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، يملكون لهم فى الآخرة شيئا .

كما توضح الآيات أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله، وليسا دليلا على رضا أو غضب، ولا على قرب أو بعد ، إنما ذلك ابتلاء واختبار .

٦ – الدعوة إلى التأمل والتفكر :

فى الآيات الأخيرة من السورة من (٤٣ – ٥٤) ، حديث عن عناد الكافرين وجحودهم من غير برهان ولا دليل ، وتنبيه من القرآن بما وقع لأمثالهم ، وعرض لمصارع الغابرين الذين أخذهم النكير فى الدنيا ، وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى .

ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة ، كأنما هى مطارق متوالية ، يدعوهم فى أول إيقاع منها إلى أن يقوموا لله متجردين ، ثم يتفكروا غير متأثرين بالحواجز التى تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفى الإيقاع الثانى يدعوهم إلى التفكير فى حقيقة البواعث التى تجعل الرسول ﷺ يلاحقهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو يطلب على ذلك أجرا ، فما لهم يتشككون فى دعوته ويعرضون ؟

وتوالت الآيات تبدأ بلفظ : قُلْ ... وكل منها يهز القلب هزا ، فمحمد لم يسألهم أجرا بل أجره على الله ، ومحمد ﷺ مؤيد بالحق ، والحق غالب والباطل مغلوب .

ثم تلطف فى وعظهم فذكر أن محمدًا ﷺ إن ضل فضلاله إنما يعود عليه وحده ، وإن اهتدى فبهدى الله له ، ثم بين سوء حالهم إذا فزعوا يوم القيامة إلى ربهم ، فلا يكون لهم فوت منه ولا مهرب ، وذكر أنهم يؤمنون به فى ذلك الوقت فلا ينفعهم إيمانهم ، وتختم السورة بمشهد هؤلاء الكفار ، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان فى غير موعده ، والإفلات من العذاب والنجاة من أهوال القيامة ، كما فُعل بأشياعهم من كفرة الأمم التى قبلهم ، إنهم كانوا فى شك موقع فى الارتياب .

وهكذا تختم السورة بمشهد يثبت قضية البعث والجزاء، وهى القضية التى ظهرت خلال السورة من بدايتها، قال تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ . (سبأ : ٥٤) .

* * *

سورة سبأ

سورة مكية ، وعدد آياتها ٥٤ آية ، وسميت بهذا الاسم لورود قصة سبأ بها .

أهم مقاصد سورة سبأ :

١ – تمجيد الله والثناء عليه ، وتخصيصه بالحمد فى الآخرة .

٢ – إثبات أمر قيام الساعة .

٣ – قصة داود أو جانب منها .

٤ – قصة سليمان أو جانب منها .

٥ – قصة سبأ وعاقبة كفرهم .

٦ – مشاهد القيامة .

٧ – عاقبة المترفين والكافرين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

المفردات :

الحمد لله : الحمد هو الثناء على الله بما هو أهله ، أو الثناء على الله بجميل صفاته وأفعاله .

الحكيم : الذى أحكم أمر الدارين ودبَّره بمقتضى الحكمة .

الخبير : الذى يعلم بواطن الأمور .

يلج فى الأرض : يدخل فيها ، كالماء ينفذ فى موضع وينبع فى آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات .

وما يخرج منها : كالزروع والنباتات والحيوان والفلزات وماء العيون .

وما ينزل من السماء : من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق ، والأرزاق والملائكة والكتب والمقادير .

ومـا يـعـرج فـيـهـا : يصعد فيها من أعمال العباد ، والأبخرة والأدخنة والملائكة، وغير ذلك .

تمهيد :

تبدأ السورة بالحمد لله ، ضمن خمس سور فى القرآن الكريم بدأت بالحمد لله ، وهى :

١ – الفاتحة : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

٢ – الأنعام : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ...

٣ – الكهف : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا .

٤ – سبأ : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ .

٥ – فاطر : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

التفسير :

١ – ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ .

الشكر والثناء على الله تعالى خالق الكون ، بديع السماوات والأرض ، وله ما فيهما خلقًا وإيجادًا وعناية ورعاية ، له ما فى السماوات من الملائكة والأبراج والشموس والأقمار والنجوم وغير ذلك ، وله ما فى الأرض من الإنسان والحيوان والنباتات والبحار وغير ذلك ، وله الحمد فى الدنيا حيث خلق ورزق ويسّر ونظّم وأبدع، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، وله الحمد فى الآخرة حيث يتم الحساب والميزان والصراط ، وتوزيع الكتب ، ومكافأة العاملين المخلصين ، ومعاقبة الكافرين المفسدين ، فمكافأة العاملين نعمة ، ومعاقبة الظالمين نعمة ، لتحقيق العدل وحسن الجزاء : مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦)

وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ . الذى أتقن كل شىء صنعا ، وأحسن كل كائن خلقًا وإبداعًا .

ٱلْخَبِيرُ . المطلع على بواطن الأمور ، المحيط بكل شىء علمًا .

٢ – يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ .

إن علم الله تعالى يمتد ليشمل كل شىء فى هذا الكون ، لا يشغله شأن عن شأن ، فيشمل علمه ما يدخل فى الأرض من حبة أو دودة ، أو حشرة أو هامة ، أو زاحفة تلج فى أقطارها المترامية ، أو قطرة ماء أو ذرة

غاز ، أو إشعاع كهرباء يندس فى أرجاء الأرض الفسيحة ، أو غير ذلك مما لا حصر له ولا عدد ، تراه عين الله التى لا تنام .

قال تعالى : وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

ويعلم ما يخرج من الأرض من نبات ، ونبع ماء وثمار وأشجار ، وبراكين تتفجر ، وزلازل ، ومعادن وبترول ، وغير ذلك مما يكون حياة ورزقًا ، أو عذابًا وعقوبة، ويعلم سبحانه ما ينزل من السماء، من الأرزاق والأمطار والشهب والرحمات ، والكتب والوحى والضوء والحرارة والأشعة ، والملائكة والإلهام والخيرات للمتقين ، والعذاب والنكال للمكذبين .

ويعلم سبحانه ما يعرج فى السماوات من دعوات صالحات ، وملائكة وأبخرة وصواريخ ، وموجات لاسلكية ، وأضواء منعكسة من الأرض ، إلى غير ذلك مما يعلمه علام الغيوب ، وهو الكامل الرحمة بعباده ، واسع المغفرة ، وعلم الله تعالى ممتد يحيط بالمخلوقات كلها ، وبالأكوان كلها فى كل مكان ، وفى كل زمان، وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر ، وما له من حركات وسكنات ، تحت عين الله التى لا تغفل ولا تنام .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

لا تأتينا الساعة : أى : القيامة .

بلى : حرف جواب يأتى بعد النفى للإثبات .

يعزب : يبعد أو يغيب .

مثقال ذرة : وزن ذرة : أصغر نملة أو هباءة .

ولا أصغر من ذلك : أصغر من الذرة ولا أكبر منها .

كتاب مبين : اللوح المحفوظ .

معاجزين : مغالبين لنا ، ظانين عجزنا عنهم .

عذاب من رجز أليم : من أقبح العذاب وأسوئه .

الذين أوتوا العلم : علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه .

هو الحق : القرآن هو الحق الموحى به من الله تعالى .

العزيز : ذو العزة .

الحميد : المحمود .

التفسير :

٣- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ.

أنكر كفار مكة قيام الساعة ، وقالوا : ما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، فليس هناك بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء .

قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ...

أى : قل لهم يا محمد : سيقع ما تنكرونه ، وأقسم على ذلك بالله الذى يعلم كل شىء ، ولا يغيب عنه علم أصغر نملة أو هباءة كائنة فى السماوات ولا فى الأرض ، فقد أحاط علمه بكل شىء كبيرا كان أو صغيرا، ومن باب أولى أن يحيط علمه بكل إنسان ، ويجميع أجزاء جسمه بعد موته ، فقد أحاط سبحانه بكل شىء علما ، ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا سجّل فى اللوح المحفوظ عند علام الغيوب .

لطيفة أولى :

كان العالم يعتقد أن الذرة هى أصغر شىء ، فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وما هو أكبر وذلك منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام .

لطيفة ثانية :

هذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع الميعاد والبعث .

الأولى فى سورة يونس :

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ . (يونس : ٥٣) .

والثانية فى هذه الآية :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ... (سبأ : ٣) .

والثالثة فى سورة التغابن :

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . (التغابن : ٧).

٤- لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

أى : سيكون البعث ليكون بعده الجزاء الحسن للمؤمنين .

والمعنى : ليكافئ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنة ، ولهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم طيب واسع فى دار النعيم .

٥ - وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ .

والذين كفروا وقاوموا دعوة الإسلام ، وقالوا عنها إنها سحر أو شعر أو كهانة ، ظانين أنهم يستطيعون إبطالها وصرف الناس عنها ، أو : مُعَٰجِزِينَ ، ظانين أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، أو نعجز عن إيصال العذاب لهم [٥٠] ، يقال : عاجز فلان فلانًا وأعجزه ، إذا غالبه وسبقه .

وفى القرآن الكريم : لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . (النور : ٥٧).

وقال تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . (العنكبوت : ٤).

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ .

هؤلاء لهم عذاب شديد فى نار جهنم هو أسوأ العذاب وأشدّه ، وهو مؤلم شديد الألم .

٦- وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ .

ليشاهد الذين أوتوا علم التوراة أو الإنجيل من أهل الكتاب ، أن القرآن الذى أنزله الله عليك هو الحق حيث صدّق الرسل والكتب السابقة ، وأرشد إلى ما فيها من حق ، وإلى ما طرأ عليها من تحريف ، وهذا الذى

أنزل إليك من ربك هو الوحى ، وهو القرآن الذى يهدى إلى الطريق القويم ، وإلى صراط الله العزيز الغالب ، المحمود فى الأرض وفى السماء .

ويمكن أن يطلق الذين أوتوا العلم على الصحابة والتابعين ، الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله ، وتلقوا علوم الإسلام ، كما يمكن أن تشمل أهل الكتاب ، وعلماء المسلمين ؛ أى : الذين أوتوا العلم فى أى زمان وفى أى مكان ، ومن أى جيل ومن أى قبيل ، يرون أن القرآن الكريم كتاب حق وصدق ، فى تشريعاته وأخباره ، وآدابه وهدايته .

وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ .

ويرشد إلى الناموس الذى يهيمن على أقدار هذا الكون ، ويصحح منهج التفكير ، ويرشد إلى إقامته على أسس سليمة ، ويعدّ الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية ، ويعد الجماعة لرعاية الأفراد وللتناسق مع الآخرين ، فصراط الله هداية للحق ، وسلوك سليم نظيف ، وتعاون مع الآخرين ، واسترشاد بهدى السماء لتقويم المسيرة ونفع العباد والبلاد .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

هل ندلكم على رجل : محمد ﷺ .

إذا مزقتم كل ممزق : قطعتم قطعا صغيرة ، أى : تمزيقا شديدا .

إنكم لفى خلق جديد: تبعثون خلقا جديدا لم ينقص منكم شىء .

أفـــــــــترى: الافتراء هو اختلاق الكذب ، أى : أكذب واختلق ؟

أم بـــه جـــنـــة : جنون يوهمه ذلك ، ويجعله يتخيل البعث .

فى العذاب : فى الآخرة .

والضلال البعيد : الضلال البعيد عن الصواب فى الدنيا ، أى : ليس بمحمد افتراء أو جنون ، ولكنْ بالكفار بُعدٌ عن الحق فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة .

نخسف بهم الأرض : نغيبهم فى بطنها .

كسفا : قطعا ، جمع كسفة .

منيب : راجع وتائب إلى الله تعالى .

التفسير :

٧- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .

وقال الذين كفروا من قريش : هل نخبركم بأمر عجيب لا يصدق ، وأمر غريب غير مألوف يقوله محمد، حيث يدَّعى أن الناس إذا ماتوا وتقطعت أجسامهم وعظامهم ، وتفتتت وصارت أجزاء كثيرة يصعب جمعها، ويستحيل عودة الحياة إليها - يدَّعى محمد أنها تعود مرة أخرى للبعث والحساب .

٨- أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ...

إن حال محمد لا يخلو من أمرين : إما أن يكون قد اختلق هذا القول على الله كذبا وزورا دون أن ينزل عليه وحى ، أو أن يكون محمد به مرض الجنون الذى جعله لا يعقل ما يقول ، ويتوهم البعث ويتخيله .

بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ .

أى : ليس محمد بكاذب ، ولا بمجنون ، لكن كفار مكة قد ضلوا عن الحق ضلالاً بعيدا ، واستحقوا العذاب الشديد فى الآخرة .

ويجوز أن يكون المعنى : إن الكفار فى بعدهم عن الله فى قلق نفسى ، واضطراب وعدم استقرار ، فهم فى عذاب دنيوى ، وعذاب أخروى ، وهم فى ضلال شديد ، لعدم اهتدائهم بهدى الله ، ولعدم اتباعهم لرسول الله .

٩- أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...

يلفت القرآن الكريم نظرهم إلى آثار القدرة الإلهية التى رفعت السماء بدون أعمدة ، وزينتها بالنجوم، وخلقت الفضاء والهواء ، والأنهار والبحار ، والأرض والجبال ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والإنسان والحيوان والنبات ، وأمسكت بزمام هذا الكون تحفظه وترعاه ، وتمده بمقومات الحياة والتكامل .

فهلا نظروا نظر اعتبار إلى ما بين أيديهم من أخبار الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود ، الذين كذبوا فأُهلكوا أو إلى ما بين أيديهم من السماء التى فوقهم ، والأرض التى تحتهم ، وهم محاطون من كل جانب بنعم الله التى تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، وعن أيمانهم وشمائلهم ، فضلا عن أنهم جميعا لا يستطيعون أن يخرجوا من أقطار السماوات والأرض ، فالله قاهر لهم ، وهم جميعا فى قبضته ، إن شاء خسف بهم الأرض ، بالزلازل والبراكين كما فعل بقارون .

قال تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ... (القصص : ٨١) .

أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...

أو نسقط عليهم عذابا من السماء، أو جزءا من الشهب أو الصواعق أو النوازل التى أهلكت أصحاب الأيكة.

قال تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء : ١٨٩) .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ...

إن هذه القدرة العالية التى تسيطر على هذا الكون ، وبيدها حفظ هذا النظام ، وتقليب الليل والنهار ، وإرسال العذاب من السماء أو الأرض ، فيها أبلغ الأدلة وأصدق الآيات الهادية إلى الإيمان .

لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . رجاع إلى الله ، وإلى الإيمان به ، والاهتداء إلى شرائعه ، والإيمان برسله وباليوم الآخر.

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

فضلا : نبوة وملكا .

أوبى معه : رجعى معه بالتسبيح .

والطير : والطير تسبح أيضا .

ألنا له الحديد : جعلناه له فى اللين كالعجينة يعجنها من غير نار ولا مطرقة .

أن اعمل سابغات : دروعًا طويلة تستر المقاتل ، وتقيه ضرب السيف .

وقدر : أحكم أو اقتصد .

السرد : نسج الدروع ، أى : اجعل المسامير مقدرة على قدر الحلق ، فلا يكوْن غليظا ولا دقيقا .

ولسليمان الريح : وسخرنا لسليمان الريح .

غدوها شهر : جريها بالغداة مسيرة شهر .

ورواحها شهر : وجريها بالعشى كذلك .

وأسلنا له عين القطر: أجرينا معدن النّحاس سائلا كما ينبع الماء من العين .

يزغ : يعدل ويخالف ما أمرناه به .

من محاريب : جمع محراب ، قيل : المساجد ، وقيل : المقصورة تكون إلى جوار المسجد للتعبد فيها

تماثيل : جمع تمثال وهى الصور ، قيل : إن التصوير كان مباحًا فى شرع سليمان ، ثم نسخ ذلك فى شرع نبينا محمد ﷺ .

وجفان : جمع جفنة ، وهى ما يوضع فيها الطعام ، من أعظم القصاع وأكبرها ، ويليها فى الصغر القصعة ، ويليها المئكلة ، ويليها الصحفة .

كالجواب : كالحياض الكبار التى يجبى فيها الماء للإبل ، والجواب جمع جابية .

قُدور : جمع قدر ، وهى ما يطبخ فيه من فخار ونحوه ، على شكل مخصوص .

راسيات : ثابتات على الأثافى ، لا تنزل عنها لعظمها .

فلما قضينا عليه الموت : حكمنا عليه بأن مات .

دابة الأرض : الأرضة .

منسأته : عصاه ، لأنه ينسأ بها ، أى : يطرد ويزجر

خر : سقط .

يعلمون الغيب : كما زعموا لعلموا بموته .

العذاب المهين : الأعمال الشاقة التى كلفوا بها ، لظنهم حياته .

تمهيد :

تعدد الآيات أنعم الله تعالى على داود وسليمان ، حيث أنْعَم الله على داود بالنبوة والملك والجنود ، والزبور والصوت الحسن ، وعلَّمه صناعة الدروع الحربية ، وألان له الحديد ، وسخر الله لسليمان الريح تحمله مسرعة مسافة شهر ، تختصرها إلى نصف يوم ، ويعود إلى بيته على بساط الريح فى نصف يوم ، ولولا الريح لقطع المسافة في شهر ذهابًا ، وفى شهر إيابًا ، وإذابة النّحاس له كإذابة الحديد لأبيه داود ، وتسخير الجن لبناء القصور الكبيرة أو المساجد ، والجفان الكبيرة كالأحواض ، والقدور الكبيرة التى لا تتحرك لِسعتها وكبرها .

التفسير :

١٠ – وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلاً يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ .

ذكر الله تعالى هنا ما أنعم به على عبده داود ، حيث حباه بالنبوة والملك والفضل ، وأعطاه المعجزات والجنود الكثيرة ، والصوت الجميل الحسن الشجيَّ ، حيث كان إذا سبَّح الله وذكره بصوته الجميل رددت الجبال معه التسبيح والنشيد ، وكذلك الطير تصْدح بذكره ونشيده ، وألان الله الحديد فى يده ، فكان مثل العجين لينا سهل التشكيل ، فكان يصنع منه دروع الحرب وآلاتها ، ويأكل من عمل يده .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : «إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبىّ الله داود كان يأكل من عمل يده» [٥١] .

١١ - أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

أى : أوحينا إليه أن اعمل دروعا سابغات، أى : كاملات تامة واسعات، يقال : نعمة سابغة ، أى : كاملة وافرة.

قال تعالى : وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ... (لقمان : ٢٠) .

وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ...

أى : أحكم صنع الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة وأحسن هيئة ، متناسبة الحلقات والمسامير ، فلا تكون الحلقات واسعة ولا ضيقة ، بل متناسقة على قدر الحاجة ، محكمة على قدر حاجة الجسم ، وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع المحكمة .

قال قتادة : كانت الدروع قبله صفائح ثقالا .

وقال المفسرون : وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ... أى : لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ، ولاتوسع الثقب فتقلقل المسامير فيها [٥٢] .

قال الفخر الرازى :

قيل : إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال ، فألان له الحديد ، وعلّمه صنعة اللبوس ، وهى الدروع .

وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

أى : اعملوا يا آل داود عملاً صالحًا ، فإنى مطّلع ومشاهد ومراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى علىّ شىء منها .

وفى معنى ذلك قوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ . (ص : ١٨) .

وقوله عز شأنه : وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ * وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ . (الأنبياء : ٧٩ ، ٨٠) .

١٢- وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ .

وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره ، وتنقله حيث يشاء ، مسرعة بحيث تقطع فى نصف النهار الأول مسيرة شهر ، وتقطع فى نصف النهار الآخر مسيرة شهر ثان .

قال تعالى : وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ * وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ . (الأنبياء : ٨١، ٨٢) .

وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ...

وأجرينا له معدن النحاس بعد إذابته ، فسال ونبع كما ينبع الماء من العين ، فلذلك سمى عين القطر، باسم ما آل إليه ، وكانت الأعمال تتأتى به وهو بارد ، ولم يلن ولا ذاب لأحد قبله .

لقد ألان الله الحديد لداود ، فصنع منه الدروع السابغات ، وألان لسليمان النحاس ينبع ويسيل كما يسيل الماء ، ويتشكل إلي الأدوات التى يحتاج إليها سليمان ، كالقصاع الكبيرة ، والقدور الكبيرة .

وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ...

وسخرنا له الجن يخدمونه ، ويعملون له الأعمال الشاقة ، والأبنية العظيمة ، ويغوصون فى البحر يستخرجون منه الأحجار الكريمة ، كالدر والياقوت .

وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ .

ومن يخرج من الجن عن طاعة سليمان ، أو عن الخضوع لأمرنا ، يتعرض لأشد ألوان العذاب فى الدنيا والآخرة .

١٣- يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ .

أى : يعمل الجن لسليمان ما يريد عمله ، من بناء المحاريب وهى المساجد ، أو القصور الشاهقة ، والأبنية العالية التى يحارب من خلالها .

وقيل : المحراب هو المقصورة بجوار القبلة ، أو التجويف تجاه القبلة .

وَتَمَـٰثِيلَ : وهى الصور المجسمة المصنوعة من النحاس أو الزجاج أو الرخام للأنبياء والصالحين تشجيعا للهمم فى العبادة ، والاقتداء بهم ، وكان ذلك جائزا فى عهد سليمان ، ثم نسخ فى شريعة محمد ﷺ خشية التشبه بعبادة الأصنام .

وأباح الفقهاء عمل تمثال لكل ما ليس فيه روح ، كالأنهار والأشجار ، وكذلك لُعب الأطفال من التماثيل ؛ لحديث رواه مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ ، وكانت لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه ، فيسربهن إلى فيلعبن معى [٥٣] .

وأجاز جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب اتخاذ الصور إذا كانت مما يوطأ ويداس أو يمتهن بالاستعمال كالوسائد والمفارش، أما التصوير الشمسى والفوتوغرافى فهو جائز لأنه ليس تصويرا بالمعنى الذى جاءت به الأحاديث، بل حبس للصورة أو الظل ، فيكون مثل الصورة فى المرآة أو الماء.

وأما الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ، ومسلم ، عن ابن مسعود ، وابن عباس : «أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوِّرون» [٥٤] . فقد قال بعض العلماء : المراد به من يصنعون تمثالا يضاهئون به خلق الله ، بدليل حديث : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله» ، ومن طريق آخر : «يقال لهم : أحيوا ما خلقتم» .

وفى فتح البارى : أن فريقًا من العلماء قال بتحريم عمل التماثيل ، وفريقا قال : إن ذلك مكروه فقط، فقد حُرِّم فى صدر الإسلام ، حيث فيه تشبّه بعبادة الأصنام ، وكان القوم حديثى عهد بعبادة الأصنام ، فنهوا عن عمل التماثيل ، أما الآن فعملها مكروه فقط .

وقال فريق ثالث : ليس ذلك مكروها بل هو جائز ، خصوصا ما لا تتم به الحياه ، كالتمثال النصفى، وكل ما هو غير كامل .

وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ...

الصحاف والقصاع الكبيرة التى تكفى لعدد كبير من الناس ، وتشبه حياض الإبل .

وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ...

القدور جمع قدر ، وهو ما يطبخ فيه من فخّار وغيره ، على شكل مخصوص .

وراسيات : ثابتات على الأثافى لا تنزل عنها لعظمها ، أى : إن السماط كان عظيما بديعا ، فيه كثير من حسن الاتساق والجمال والضخامة .

ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ .

أى : أطيعونى واشكرونى واستخدموا نعمتى فيما خلقت له ، والهجوا بذكرى والصلاة والحمد لى يا آل داود .

وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ .

والشكور هو الذى يشكر الله فى جميع أحواله ، من الخير والضُّرّ ، فهو شاكر على النعماء ، وصابر على البأساء ، وهو راض بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره .

ورد فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان يصوم يومًا ويفطر يوما ، ولا يفرّ إذا لاقى» (٥٥) .

قال ابن عباس : الشكور هو الذى يشكر على أحواله كلها .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : الشكور هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل وسعه فيه ، وقد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه ، اعترافا واعتقادا وكدحًا .

وقيل : الشكور هو من يرى عجزه عن الشكر ، لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكرًا آخر لها إلى ما لا نهاية .

على حد قول الشاعر :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً ... على له فى مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتسع العمر

إذا مسّ بالنعماء عمّ سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وقد كان النبى محمد ﷺ صابرًا شاكرًا قدوة ومثلا أعلى ، روى مسلم فى صحيحه ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطّر قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : «أفلا أكون عبدا شكورا» (٥٦) .

ومن شكر النعمة التواضع ، والعفو والاستقامة ، قال ﷺ : «أوصانى ربى بتسع : الإخلاص لله فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرة» .

١٤ - فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ.

أى : جمع الله لسليمان النبوة والملك ، وتسخير الرياح ، وتسخير الجن ، ونبع النحاس من عين كالماء، وسخر الله الجن لسليمان تعمل له التماثيل والمحاريب والقصاع الكبيرة ، والقدور الجميلة الكبيرة الراسية على الأثافى ، وقيل لهم : الزموا شكر الله على هذه النعم ، ومع كل هذه النعم فقد مات سليمان متكئا على عصاه ، والجن مستمرة فى العمل الشاق ، ونزل الموت بسليمان واستمرت الجن حتى أتمت عملها ، ثم أكلت الأرضة من عصا سليمان فخرّ ساقطا على الأرض ، فظهر جليا للإنس وللجميع أن الجن لا تعلم الغيب ، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله ، ولو كانت الجن تعلم الغيب ما مكثت في العذاب المهين ، عاملة ناصبة فى البناء والتشييد .

وذكر القرطبى ، عن ابن عباس مرفوعا : أن سليمان نحت عصا الخرنوبة ، فتوكأ عليها حولا لا يعلمون، فسقطت ، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ، فنظروا مقدار ذلك ، فوجدوه سنة .

وليس لدينا خبر صحيح نطمئن إليه فى تحديد المدة التى قضاها سليمان ميتا والجن تعمل بين يديه فنكتفى بما أشار إليه القرآن من أنه مكث فترة ما ميتا ، والجن عاملة ناصبة لا تعلم بموته ، حتى أكلت الأرضة عصاه ، فوقع على الأرض ، فعلمت الجن بموته .

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

سبأ : اسم قبيلة من قبائل العرب العاربة فى بلاد اليمن ، وهم قوم بلقيس ، وقد سميت قبيلة سبأ باسم جدٍّ لهم من العرب ، هو سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ، ومن نسلهم عبد الله بن سبأ ، المنسوبة إليه السبئية من غلاة الشيعة .

مسكنهم : موضع سكنهم فى مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

آية : علامة على قدرة الله .

جنتان : جماعتان من البساتين ، جماعة عن يمين إقليمهم ، وجماعة عن شماله .

طيبة : طيبة المناخ ، بعيدة عن الأوباء وأسبابها .

فأعرضوا : عن شكر الله ونعمه .

سيل العرم : سد السيل العرم ، وهو سد يعترض الوادى ، ويطلق على المطر الشديد ، والعرم : الصعب .

وبدلناهم : آتيناهم بدل جنتيهم .

ذواتى أكل خمط : أى : صاحبتى أكل مرّ بشع .

أثــــل : شجر يشبه شجر الطرفاء لا ثمر له .

ســـدر : شجر النبق .

جــزيـنـاهـم : عاقبناهم .

الــكــفـور : المبالغ فى الكفر المتشبث به .

القرى التى باركنا فيها : هى قرى الشام ، مبارك فيها بكثرة أشجارها ووفرة ثمارها ، والتوسعة على أهلها .

قـــرى ظـــاهـــرة : متواصلة من اليمن إلى الشام .

وقدرنا فيها السير : جعلنا المسافات بينها مقدرة على أبعاد قريبة ، بحيث يسهل التنقل بينها .

باعد بين أسفارنا : اجعل المسافات والأبعاد بيننا وبين القرى المباركة طويلة ممتدة ، لتطول أسفارنا إليها .

أحـــاديث : لمن جاء بعدهم ، ولم يبق منهم إلا أخبارهم الغريبة .

ومزقناهم كل ممزق : فرَّقناهم فى البلاد كل التفرق .

صدق عليهم إبليس ظنه : صدق ظن إبليس فيهم ، أنه يستطيع إغواءهم .

فـــاتـــبـــعـــوه : فى الكفر والضلال والإضلال .

إلا فريقا من المؤمنين : لكن فريقا من المؤمنين لم يتبعوه ، فخاب ظنه فيهم ، زاده الله خيبة إلى يوم القيامة .

ســلـــطـــان : تسلط واستيلاء .

لـــنـــعـــلـــم : لنعرف ونميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها .

حـــفـــيـــظ : محافظ رقيب .

تمهيد :

تحدث القرآن فيما سبق عن داود وسليمان كنموذج للشاكرين ، ثم تحدث عن سبأ كنموذج لقوم أبطرتهم النعمة ، فلم يشكروا ربهم ؛ فاستحقوا سلب النعمة ، والعقوبة جزاء كفرهم ، وتلك سنة من سنن الله العادلة ، مكافأة المؤمنين ، ومعاقبة الكافرين .

التفسير :

١٥ - لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ.

لقد كان لشعب سبأ فى مساكنهم التى يسكنونها ، وقصورهم ووديانهم التى يعمرونها آية وعلامة على قدرة الله وأفضاله على عباده ، وهى جنتان إحداهما عن يمين الوادى ، وأخرى عن شماله ، كلها فواكه

وخضرة تسقى بماء سدّ مأرب ، وتنبت الفواكه والثمار والنخيل والأعناب ، وصنوف النعم ، روى أن المرأة كانت تخرج وعلى رأسها المكتل ، وتسير بين الأشجار فيمتلئ المكتل مما يتساقط من الثمار ، فهذا قوله تعالى : كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ...

كأنها تناديهم بلسان الحال ، وتقول لهم : كلوا من هذا الرزق العظيم الذى بسطه الله لكم ، واشكروا الله عليه شكرًا عمليًا باستخدام النعمة فى طاعة الله ، واشكروه بذكره وطاعة رسله ، واحترام نواميسه وطاعة أوامره .

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ .

هذه بلدة طيبة الهواء ، وهى صنعاء اليمن ، مناخها طيب ، وتربتها طيبة ، لا يوجد بها وباء ولا هوام ولا حشرات كالعقارب ونحوها .

وَرَبٌّ غَفُورٌ . واسع المغفرة عظيم الرحمة لمن تاب إليه ورجع .

١٦ - فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ.

فأعرضوا عن شكر الله ، وعن المحافظة على السدّ ، وأترفوا وفسقوا ، فعاقبهم الله بتحطيم سد مأرب، حيث أرسل أمطارًا غزيرة كالحجارة القوية ، فأزاحت سد مأرب ، وأغرقت المياه الأشجار والبساتين الجميلة، وبعد تحطيم السدّ ذبلت الأشجار وجفت الزراعة ، ولم تبق لهم إلا أشجار متناثرة فى الصحراء ، كثيرة الشوك، سميت بالجنان على سبيل المشاكلة والتهكم .

قال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيَّره الله شرّ الشجر بأعمالهم .

وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ...

وأبدلناهم بجنتيهم النضرتين جنتين ذواتى ثمر ، خَمْطٍ . مرّ بشع ، يجمع بين المرارة والحموضة لا يستسيغه أحد .

وَأَثْلٍ ... شجر لا ثمر له يشبه شجر الطرفاء .

وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. وشىء قليل من شجر السدر وهو المعروف بالنبق ، وهذا النوع ينتفع به وله شأن عند العرب ، ولكنه كان قليلاً عقاباً لهم ، ولو أطلق لكان نعمة لا نقمة .

١٧ - ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ .

أى : ذلك العقاب الذى نزل بهم ، حيث دُمِّرت البساتين الخضراء المثمرة ، ولم تبق لهم إلا أشجار متفرقة فى الصحراء ، كثيرة الشوك ، قليلة النفع والفائدة ، هذا الجزاء العادل والعقاب الرادع بسبب كفرهم بنعمة الله ، حيث أهملوا سدّ مأرب ، وأعرضوا عن الإيمان بالله ، فاستحقوا هذه العقوبة ، وهل نجازى الجزاء المؤلم ، والعقوبة الرادعة إلا لكثير الكفر المصرِّ على الجحود والمبالغ فيه ؟

١٨ - وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ .

تأتى هذه الآية كالتعقيب على قصة سبأ ، فقد ذكر فيما سبق أن الله أنعم عليهم بالجنان والبساتين والنعم المتعددة ، لكنهم كفروا وجحدوا فاستحقوا العقوبة .

وأردف ذلك بذكر نوع آخر من النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وهى نعمة القرى المتتابعة المرتفعة الظاهرة على الطريق الموصل بين اليمن والشام ، قيل : من سافر من قرية صباحًا وصل إلى الأخرى وقت الظهر والقيلولة ، ومن سار من قرية بعد الظهر وصل إلى الأخرى بعد الغروب إلى أن يبلغ الشام ، لا يخاف جوعًا ولا عطشًا ولا عدوًا ، ولا يحتاج لحمل زاد ، ولا مبيت فى أرض خالية .

وقوله تعالى : سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ . على إرادة القول ، بمعنى أبحناها وقلنا لهم : سيروا فيها حيث شئتم ، وكيف شئتم ، ليالى وأيامًا آمنين ، لا تحسُّون مشقة ، ولا تستشعرون جوعًا ولا عطشًا ، ولا ترهبون عدوًا .

وهذ القول إما بلسان الحال ، بمعنى أن وضع القرى وتأمين السير فيها واقترابها من بعضها ، كأنه يقول للسائر : سر آمنا مطمئنا ، وإما بلسان المقال ، أى قال أنبياؤهم ومرشدوهم : سيروا فيها آمنين مطمئنين ، وإن تطاولت مدة سفركم ، وامتدت أيامًا وليالى كثيرة .

١٩ - فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

أسبغنا عليهم نعمنا فبطروا النعمة ، وسئموا من طيب العيش ، وملُّوا العافية ، وطلبوا الكدّ والتعب وطول الأسفار ، والتباعد بين الديار ، وقالوا : ربنا اجعل بيننا وبين البلاد التى نسافر إليها مفاوز وقفارًا ، ليركبوا فيها الرواحل ، وليتزودوا بالماء والزاد ، إظهارًا للتمايز الطبقى ، والتكبر والتفاخر على الفقراء والعاجزين .

وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ... إذ عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة ولم يشكروا الله عليها .

فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ...

شُردوا ومُزِّقوا ، وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة ، مبددى الشمل ، وأصبحوا أحاديث يرويها السمّار فى مجالسهم ، وفرقنا شملهم فى البلاد كل تفريق ، فصارت العرب تضرب بهم المثل فتقول : (تفرقوا أيدى سبأ) أى : مذاهب سبأ وطرقها .

فنزلت الأوس والخزرج بيثرب ، وغسَّان بالشام ، والأزد بعُمان ، وخزاعة بتهامة ، فمزقهم الله كل ممزق ، وهدم السيلُ بلادهم .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

أى : فى قصة سبأ وما حل بهم جزاء كفرهم وبطرهم لعبرة يعتبر بها كل صبور على الشدائد ، فلا يجزع ولا يهلع ، بل يقابلها بالإيمان والرضا بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره .

شَكُورٍ . للَّه على نعمائه ، اللهم اجعلنا من الشاكرين .

وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «عجبًا للمؤمن لا يقضى الله تعالى له قضاءً إلا كان خيرًا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين»[٥٧] .

ومن كلام العارفين : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

٢٠ - وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها كالتعقيب العام ، لبيان السنة الإلهية فى الإغواء والهداية ، فالشيطان حين رأى منهم الانهماك فى الشهوات والملذات ، والعدول عن الاعتدال والهدى، توقع منهم السير وراءه ، واتباع إغوائه .

ومعنى الآية :

ظن الشيطان بهؤلاء السبئيين أنه إذا أغواهم اتبعوه ، فكان كما ظن بوسوسته ، فانقادوا لإغوائه ، وعبدوا الشمس من دون الله ، إلا فريقًا قليلاً من المؤمنين صمدوا أمام وسوسة الشيطان ، وثبتوا على الإيمان .

٢١ - وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ.

لم يكن للشيطان عليهم سلطان قاهر لا يملكون مقاومته ، بل كل ما كان منه هو الإغواء والوسوسة والتزيين ، وذلك للاختبار والابتلاء ، ليظهر أمام الواقع من يؤمن بالآخرة فيعصمه إيمانه من الانحراف ، ومن هو من الآخرة فى شك ، فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية بلا عاصم من رقابة الله ، ولا تطلع لليوم الآخر.

وهذا التعقيب الذى ذكر فى ختام قصة سبأ ، أمر عام ينطبق على قصة كل قوم ، بل كل فرد فى كل مكان وفى كل زمان .

الله خلقنا فى هذه الدنيا للاختبار والابتلاء ، وحذرنا من الشيطان ، وبين لنا أنه عدو مبين ، ومع هذا فمنا من يطيعه ، رغبة فى اتباع الهوى ، وضعفا أمام الشهوات والنزوات ، ومنا من يصبر ويستمسك بهداية الله ، فيعينه الله .

قال الحسن البصرى : والله ما ضربهم الشيطان بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورًا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ .

أى : هو مطلع وشاهد ورقيب ، فلا يندّ عنه شىء ولا يغيب ، ولا يهمل شيئًا ولا يضيع ، وبهذا يتسع مجال التعقيب ، فلا يعود قاصرًا على قصة سبأ ، وإنما يصلح تقريرًا لحال البشر أجمعين ، فهى قصة الغواية والهداية وملابساتهما وأسبابهما ونتائجهما فى كل حال .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

★ ★ ★

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

زعمتم : ظننتم وقلتم إنهم آلهة .

مثقال ذرة : وزن ذرة وقدرها .

وما لهم فيهما من شرك : وليس لهم من شركة فى السماوات ولا فى الأرض .

ظهير : معين .

فزّع عن قلوبهم : أزيل الخوف عن قلوبهم ، يقال : فُزِّع عنه ، مثل قولهم : قرَّدت البعير، إذا أزلت قراده، والفزع : انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف .

التفسير :

٢٢ - قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ .

تكلمت الآيات السابقة عن داود وسليمان كنموذج للشاكرين ، ثم تكلمت عن قصة سبأ كنموذج للكافرين ، وهذه الآيات تعود إلى خطاب المشركين بمكة ، ومناقشتهم بشأن الأصنام التى يعبدونها ، أو الملائكة التى عبدوها ، فتقول :

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما دمتم مصرين على الشرك ، وأن الأصنام أو الملائكة لها شفاعة لكم ، يوم البعث فاعلموا أن الحقيقة غير ذلك ، وهى أن الذين تدعونهم من دون الله ، وجعلتموهم لله شركاء لا يملكون وزن ذرة ولا هباءة ، ولا شيئًا مطلقًا فى هذا الكون ، لا فى السماء ولا فى الأرض ولا فى غيرهما .

وإذا كانوا من العجز بحيث لا يملكون أى شىء ولم يخلقوا أى شىء فى الكون ، ولم يشاركوا مع الله فى خلق أى شىء ، لأنه غنى وقادر ولا يحتاج إلى مشارك ، وليس لله تعالى منهم ظهير ولا معاون ، أى :

وإذا كانوا لا يملكون شيئًا ، ولا يستطيعون جلب نفع ولا ضر ، فكيف يكونون آلهة تُعبد ؟ وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفًا ، فيراد جميع الموجودات كما يقال : صباحًا ومساءً لجميع الأوقات ، وشرقًا وغربًا لجميع الجهات ، والمراد : نفى قدرة الشركاء على شيء من النفع أو الضر ، أو الإيجاد أو الإعدام .

قال الزمخشرى :

يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية ، فكيف يصحّ أن يُدعَوا كما يُدعَى ، ويرجوا كما يرجى ؟

٢٣ – وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ .

كان الكفار يعتقدون أن الأصنام أو الملائكة أو غير ذلك من الآلهة المدّعاة تشفع لهم عند الله يوم القيامة ، ويقولون : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... (الزمر : ٣) .

فبين القرآن أن الشفاعة لا تكون إلا لمن أذن له الله ، من نبى مرسل ، أو ملك مقرب ، وأن هول القيامة ، والخوف من الله يتملك الناس والخلق أجمعين ، وكذلك الخوف من عدم قبول الشفاعة ، فإذا ذهب الخوف وتأمل الجميع فى رضوان الله وسابغ رحمته سأل الأنبياء والمرسلون الملائكة المقربين : ماذا قال ربكم ؟ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ . أى : قالت الملائكة : قال الله تعالى الحقّ ، فهو سبحانه الحق ، وقوله الحق ، أى الحق الكلىّ ، الحقّ الأزلى ، الحق اللدنى .

وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ . صاحب الكبرياء والعظمة والملك والتصرف له وحده سبحانه .

من تفسير القرطبى :

فى صحيح الترمذى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «إذا قضى الله فى السماء أمرًا ، ضربت الملائكة بأجنحتها ، خضعانا لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقّ وهو العلى الكبير ، قال : والشياطين بعضهم فوق بعض» قال : حديث حسن صحيح .

أى : لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون مطيعون لله تعالى ، دون الجمادات والشياطين ، وقد أورد القرطبى كلامًا كثيرًا فى تفسير الآية خلاصته ما يأتى :

إنه إذا أذن للشفعاء في الشفاعة ، وورد عليهم كلام الله فزعوا ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل، والخوف أن يقع فى تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سُرى عنهم ، قالوا للملائكة فوقهم ، وهم

الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ . أى : ماذا أمر الله به ، قَالُواْ ٱلْحَقَّ . وهو أنه أذن لكم فى الشفاعة للمؤمنين ، وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ . فله أن يحكم فى عباده بما يريد .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

من يرزقكم : من السماوات بإنزال المطر ، ومن الأرض بإنبات النبات .

قل الله : فهذا هو جواب الفطرة .

وإنا أو إياكم : أحدنا على الهدى ، والآخر على الضلال ، فنراجع أنفسنا ، وهذا أبلغ من التصريح ، وفيه تلطف بالخصم يحمله على التفكير دون تكبر .

عما أجرمنا : أذنبنا .

ولا نسأل عما تعملون : فالمسئولية فردية ، وكل امرئ بما كسب رهين ، وهو تلطف آخر .

قل أرونى : أعلمونى بالدليل عن هذه الأصنام ، ماذا خلقت فى هذا الكون حتى تستحق العبادة مع الله .

كلا : ردع وزجر ، فلن تكون الأصنام أهلاً للعبادة .

بل هو الله : الخالق الرازق العزيز الحكيم ، هو أهل للعبادة وحده .

كافة للناس : لجميع الناس عربهم وعجمهم .

بشيرا : للمؤمنين بالجنة .

ونـــــذيـــــرا : للكافرين بالنار .

مـــيـــعـــاد يـــوم : هو يوم القيامة .

تمهيد :

مازال السياق مستمرًا فى تبكيت المشركين وإلزامهم الحجة ، وحملهم على التفكير فى جدوى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ، فكيف يجعلونهم شركاء لله الخالق الرازق .

التفسير :

٢٤ - قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

تلفت الآية النظر إلى الحجج والأدلة على وحدة الألوهية ، فتقول للكافرين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بالمطر والهواء ، وتسخير الشمس والقمر ، وسائر الأرزاق المادية والمعنوية ؟ ومن يرزقكم من الأرض بالنبات والسير فى الأرض والأرزاق ؟ فإن ترددوا فى الإجابة خوف الهزيمة العقلية ، فأجب أنت قائلاً : الله هو الرازق ، إذ ليس لهم من جواب سواه ، وقد صرحوا بهذا الجواب فى قوله تعالى : قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . (يونس : ٣١) .

وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

نحن نوحّد الله ، وأنتم تعبدون الأصنام ، فنحن فريقان مختلفان ، فلابد أن يكون واحد منا على الهدى والحق ، والآخر فى الضلال والباطل ، وهو طريق يراد به حمل الخصم على التفكير والتدبّر ، دون أن نجبهه بالحقيقة أو نقول له : أنت على الباطل ، لأنك تكفر بالله وتعبد الأصنام ، وهذا الأسلوب يقال له : أسلوب المنصف ، وهو ألا يذكر المجادل لمن يجادله ما يغيظه أو يثير حفيظته ، رجاء هدايته إلى الحق .

٢٥ - قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

كان المشركون يتهمون المسلمين بالخروج على المألوف ، والتحول عن دين الآباء والأجداد إلى الدين الجديد ، ويقولون : هؤلاء هم الصابئة ، أى الخارجين على الدين المألوف ، وهنا يوجه القرآن الرسول أن يقول لهم : كل منّا مسئول عن نفسه يوم القيامة ، فحتى لو كنّا قد ارتكبنا جريمة باعتناق الإسلام فأنتم لن تتحملوا تبعة هذا الجرم ، ونحن لن نتحمل تبعة أعمالكم ، فروُّوا رأيكم ، وفكروا فى مستقبلكم ،فالتبعة فردية ، وكل امرئ بما كسب رهين .

ونلاحظ أنه أضاف الإجرام إلى المؤمنين ، وأضاف العمل إلى الكافرين استمرارًا فى طريقة القرآن الحكيمة فى استلال الضغينة ، وعدم إغضاب الخصم أو إزعاجه ، حتى لا يحمله ذلك على الكبرياء الكاذب ، وعدم التدبُّر والتأمل .

٢٦ – قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ .

تستمر كلمة : قُلْ . لفتًا لهم ، واستنهاضًا لهممهم .

والمعنى : قل لهم : إن يوم القيامة هو يوم الجمع حيث يجمع الله الجميع من المؤمنين والكافرين ؛ ليقضى بينهم بحكمه ، فهو الحاكم العادل ، وهو العليم بأهل الهدى والضلال ،ويطلق الفاتح على القاضى والحاكم لأنه يفتح طريق الحق ويظهره .

قال القرطبى فى تفسير الآية :

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ... يريد يوم القيامة .

ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ... أى : يقضى فيثيب المهتدى ، ويعاقب الضالّ .

وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ . أى : القاضى بالحق . ٱلْعَلِيمُ . بأحوال الخلق .

٢٧ – قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

يراد بهذه الآية بيان فائدة هؤلاء الشركاء ، أى الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضّر .

ومعنى الآية :

أرونى هذه الآلهة التى صيرتموها لله شركاء ونظراء معادلين ، حتى أراهم وأشاهد ما يقدرون عليه ، إن الحق واضح ، وإن هذه الأصنام لا تقدر على شىء ، فارتدعوا عن هذا الشرك ، فلا نظير ولا عديل لله ، بل هو الله الواحد الأحد ، المتفرد بالخلق والألوهية ، ذو العزة التى قهر بها كل شىء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله حكمة باهرة لا يعلوها شىء .

٢٨ – وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أرسل الله كل رسول إلى قومه ، وختم الله الرسالات بمحمد ﷺ ، فجعل رسالته رسالة عامة للعرب والعجم ، والإنس والجن ، وتضمنت رسالته عوامل خلودها ، بما اشتملت عليه من الأصول الصحيحة فى العقيدة والعبادات والمعاملات ، واليسر والحث على الاجتهاد والاستنباط فيما لم يرد فيه نص .

والمعنى : لقد جعلنا رسالتك عامة للناس أجمعين تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة رسالتك ، فيكذبونك ولا يهتدون بهدايتك .

قال تعالى : وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . (يوسف : ١٠٣) .

وقد دل القرآن على عموم رسالة النبى ﷺ إلى الناس أجمعين ، كما دلت على ذلك السنة المطهرة .

قال تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (الأعراف : ١٥٨) .

وقال تعالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا . (الفرقان : ١) .

وقال ابن عباس ، فيما رواه ابن أبى حاتم : إن الله فضل محمدًا على أهل السماء وعلى الأنبياء ، قالوا: يا ابن عباس ، فبم فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (ابراهيم : ٤) . وقال للنبى محمد ﷺ : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ... فأرسله إلى الجن والإنس .

قال ابن كثير :

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وأرسل كل نبى إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة»[٥٨] .

وأخرج مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت إلى الأسود والأحمر» .[٥٩] قال مجاهد : يعنى الجن والإنس ، وقال غيره : يعنى العرب والعجم . ا هـ .

وقال القاسمى فى تفسيره :

والتحقيق فى معنى عموم إرساله وشمول بعثته هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا ، وأىّ زمان وجدوا ، مما لم يتفق فى شرع قبله قط ، ولهذا ختمت النبوات بنبوته ﷺ . ا هـ .

٢٩ – وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

يقول كفار مكة : متى تأتى هذه القيامة ، أو متى يجىء العذاب الذى تخوفوننا به إن كنتم صادقين فى أن محمدًا رسول من عند الله ، وهذا لون من ألوان الاتهام والتهكم والخلط بين وظيفة الرسول التى هى

البلاغ والتبشير والإنذار ، وما يختص به الله ، وهو علم الساعة أو معرفة وقت مجيء العذاب ، وهذه الآية كقوله تعالى : يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ . (الشورى : ١٨) .

٣٠ – قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ .

إن الساعة أو الموت ، أو القتل يوم غزوة بدر ، أو العقوبة التى تصيبكم جزاء كفركم لها ميعاد لا يعلمه إلا الله ، وإذا جاء هذا الميعاد فلا يتقدم ساعة ولا يتأخر .

قال تعالى : فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (الأعراف : ٣٤) .

قال في التفسير المنير :

قل لهم يا محمد : لكم ميقات معيّن ، هو يوم البعث أو القيامة ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا تتقدمون عنه ولا تتأخرون ، وهو آتٍ لا محالة ، وعلمه عند الله لم يطلع عليه أحدًا من خلقه . ا هـ .

قال تعالى : وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . (هود : ١٠٤ ، ١٠٥) .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

الذين كفروا : المشركون من أهل مكة .

ولا بالذى بين يديه : من الكتب السابقة الدَّالة على البعث ، كالتوراة والإنجيل .

الظالمون : المنكرون للبعث .

موقوفون : محبوسون فى موقف الحساب .

يرجع بعضهم إلى بعض القول : يتحاورون ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب .

الذين استضعفوا : فى الدنيا من الكافرين ، وهم الأتباع .

الذين استكبروا : الرؤساء والقادة .

لولا أنتم : لولا إضلالكم وصدُّكم لنا عن الإيمان وإغراؤكم لنا بالكفر .

لكنا مؤمنين : باتباع الرسول .

صددناكم : منعناكم .

بل كنتم مجرمين : ظلمة فاسدين مفسدين .

مكر الليل والنهار : صدَّنا المكر والخديعة والاحتيال علينا بالليل والنهار .

أندادا : شركاء ونظراء لله فى العبادة ، نعبدهم معه ..

وأسروا الندامة : أضمر الفريقان الندم على ما فعلا من الضلال والإضلال ، وأسرّ : من الأضداد بمعنى أخفى ، وبمعنى أظهر .

الأغلال : جمع غلّ ، وهى حديدة تجعل فى عنق المجرم .

هل يجزون : ما يجزون إلا ما كانوا يعملون .

تمهيد :

تستعرض الآيات موقف المشركين من أهل مكة ، فقد علموا أن التوراة والإنجيل والكتب السماوية ذكرت البعث والحشر والحساب والجزاء ، فقالوا : لن نؤمن بالقرآن ولا بالذى بين يديه من الكتب التى سبقته، ثم تستعرض الآيات موقف المحاورة بين الأتباع الفقراء وبين المتبوعين الأغنياء والسادة ، كل فريق يلقى التبعة على الآخر ، ثم يعمّ الندم جميعهم ويلقى كل فريق منهم جزاء عمله .

التفسير :

٣١ - وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .

روى أن أهل مكة سألوا أهل الكتاب عن محمد ، فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ فى

كتبهم ، فأغضبهم ذلك ، وكفروا بالقرآن وبالكتب السابقة عليه ، وقيل : إن الذى كفروا به هو يوم القيامة ، أى أنهم كفروا بالقرآن ، وبما جاء به من البعث والجزاء .

ومعنى الآية :

تعنت الكافرون ، وأعلنوا صدودهم وكفرهم بالقرآن ، وبما سبقه من الكتب السماوية ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة ، فلو ترى يا كلَّ من هو أهل للرؤية مشهد القيامة ، وترى الظالمين الكافرين محجوزين عند الله الذى بيده الخلق والأمر ، وتبدأ الخصومة الشديدة بين الأتباع البسطاء وبين القادة الأقوياء ، كل فريق يريد أن يلقى التبعة على الآخر .

يقول الفقراء الذين تنازلوا عن استخدام عقولهم وأفكارهم اتباعًا للقادة الكبراء فى الدنيا ، يقولون للذين استكبروا عن الإيمان : لولا أنكم كنتم قدوة لنا لكنَّا مؤمنين بالرسل وباليوم الآخر ، وكانت لنا نجاة من هذا العذاب المهين فى هذا اليوم .

٣٢ - قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ .

دافع الكبراء عن أنفسهم ، فقالوا للضعفاء : هل سلبنا عقولكم ؟ هل منعناكم من التفكير ؟ نحن عرضنا عليكم الأمر ، ولكنكم كنتم مجرمين ، مشركين مصرِّين على الكفر باختياركم ، وما زدنا على أن دعوناكم فاستجبتم لنا ، راغبين فى إشباع شهواتكم فى الدنيا ، معرضين عن دعوة الرسل وهدايات الأنبياء .

٣٣ - وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

تقدَّم الضعفاء بحجة حقيقية للذين استكبروا ، فقالوا: أنتم لم تحملونا على الكفر حملاً ، ولكنكم زينتم لنا الغواية ، وحسَّنتم لنا الكفر ، وقدَّمتم لنا كل خديعة ومكر وحيلة ، حتى نتقيد بالكفر ، ولا نفكِّر فى الانتقال إلى الإيمان ، وكررتم أقوالكم تدعوننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أندادًا من الشركاء والأصنام والأوثان ، وهنا يظهر العذاب الأليم الذى ينزل بالفريقين ، فيخفون الندم على ما فعلوا فى الدنيا ، لكن آثار الحزن ظاهرة على الوجوه ، حين تُجْعل القيود وأغلال الحديد والسلاسل ، تجمع بين أيدى الكافرين وأعناقهم ، ويتعرضون للذل والمهانة والعذاب ، وهذا عقاب عادل جزاء كفرهم وطغيان الكبراء فى الدنيا ، وإهمال الضعفاء لكرامتهم ، ولعدم استخدام عقولهم ، ورفض دعوة الظالمين لهم ، فاستحق الجميع العقاب .

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : ما يجزون إلا ما كانوا يعملون ، فالجزاء بحسب العمل ، إن كان خيرًا فخير ، وإن كان شرًا فشر ، وكانت أعمالهم كلها شرًا وظلمًا وباطلاً .

هذا وجواب : لَوْ ، فى أول السياق محذوف ، يُقدر بمعنًى مستخلص من المشهد ، مثل : لرأيت أمرًا فظيعًا ، واكتفى بعرض المشهد عن ذكره ، فإنه أتمّ وأشمل .

★ ★ ★

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

المفردات :

مترفوها : رؤساؤها المنعمون فيها من أهل المال والجاه .

كافرون : لا نؤمن برسول ولا نتبعه .

أكثر أموالا : من المؤمنين ، فنحن أكثر كرامة عند الله منهم ، فلن نعذّب فى الآخرة .

يبسط الرزق : يوسعه امتحانًا .

ويقدر : يضيقه ابتلاء .

لا يعلمون : الحكمة فى التقتير على البعض ، والتوسيع على البعض .

زلفى : قربى .

جزاء الضعف : الثواب المضاعف ، والضّ[illegible] أدة .

الـــغــــرفــــات : غرفات الجنة ، ومنازلها العالية .

آمـــــنــــــون : من المرض والموت وكل مكروه .

يسعون فى آياتنا : يمشون مسرعين فى إبطال القرآن ، والردّ عليه .

مــعــــاجـــزيـــن : مقدِّرين عجزنا ، وأنهم يفوتوننا ، فلم نعاقبهم .

يـــخــلـــفــــه : يعطى بدله .

خـيـر الـرازقـيـن : خير المعطين للرزق .

التفسير :

٣٤ – وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ .

المترفون هم أصحاب المال والغنى ، مع الترف وركوب الشهوات والملذات ، هؤلاء يضيقون برسالات السماء ، حيث إن الرسالات تفرض فرائض وأوامر ، وتبين الحلال والحرام ، وهؤلاء يحبُّون الانطلاق فى شهواتهم ، لذلك رأينا الفقراء هم أتباع الرسل ، لأن الرسالات تشتمل على بيان حقوق الإنسان ، من حرية ومساواة وعدالة اجتماعية ، ولأن قلوب الفقراء خالية من الانهماك فى الملذات والشهوات ، وهم عادة أتباع الرسل ، وفى حديث الصحيحين الطويل : أن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان عن محمد ﷺ ، فقال هرقل : هل يتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم ، قال هرقل : هم أتباع الرسل ، وسيملك محمد موضع قدمىّ هاتين[٦٠] .

وفى حديث رواه ابن أبى حاتم : أن رجلاً كان يقرأ فى كتب السابقين ، سأل شريكًا له عن محمد ، فكتب إليه شريكه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم ، فترك الرجل تجارته بالساحل ، وأتى النبى ﷺ ، فقال : إلام تدعو ؟ قال : «أدعو إلى كذا وكذا» ، قال : أشهد أنك رسول الله ، قال النبى ﷺ : «وما علمك بذلك» ؟ قال : إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم ، قال : فنزلت هذه الآية : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ . قال : فأرسل إليه النبى ﷺ : «إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت» .

وقد تكلم القرآن عن الترف والمترفين فى أكثر من آية ، فقال عن قوم صالح : قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ . (الأعراف : ٧٦) .

وقال جل وعلا : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ... (الأنعام : ١٢٣) .

وقال تعالى : وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا . (الإسراء : ١٦) .

وقد حكى القرآن الكريم عن قوم نوح قولهم له : قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ . (الشعراء : ١١١) .

٣٥ - وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

هكذا ينظر المترفون إلى نعم الله عليهم ، على أنها مكافأة من الله لهم ، وقد فضَّلهم الله فى الدنيا لكرامتهم عليه ، ولن يعذبهم فى الآخرة لأنهم أهل الامتياز والتقدير ، فهم فى الدنيا أكثر أموالاً وأولادًا وأتباعًا من المؤمنين ، وذلك فى تقديرهم لعلوّ منزلتهم عند الله ، وما كان الله ليعطيهم ذلك فى الدنيا ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك ، فإن مقاييس الدنيا مختلفة عن حسابات الآخرة ، فالله تعالى قد يعطى الظالمين استدراجًا لهم ، حتى يستحقوا العذاب عن جدارة واستحقاق ، وقد يمتحن المؤمنين بالفقر أو المصائب ليظهر إيمانهم وصبرهم ، ويتبين استحقاقهم للفضل والأجر وحسن المثوبة .

وفى القرآن الكريم :

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ . (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) .

٣٦ - قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

إن الغنى والثروة والمال والرياش ليست دليلاً على محبة الله للعبد ، وكذلك الفقر ليس دليلاً على بغض الله له ، فاللَّه تعالى له حِكم إلهية عليا ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ، ويضيّق ويقدِّر على من يشاء بحكمته العليا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى ربما وسَّع على العاصى ، وضيَّق على المطيع ، وربما عكس الأمر ، وقد يوسع على المطيع والعاصى تارة ، ويضيق عليهما أخرى ، يفعل كل ذلك بحسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، التى قد نعلمها وربما خفى علينا أمرها .

وفى الحديث الصحيح : «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل»[٦١] .

انظر إلى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وإلى أولى العزم من الرسل ، كانوا أشد الناس بلاء ، وانظر إلى قارون وفرعون وهامان كانوا فى غنى وملك وعظمة ، لكن العاقبة كانت للمرسلين ، وقد أهلك الله الكافرين .

يقول الشاعر :

ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويقول آخر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقًا

هذا الذى ترك الأفهام حائرة وصير العالم النّحرير زنديقًا

٣٧ - وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ .

ليست الأموال ولا الأولاد ولا الجاه ولا السلطان ، تعنى أن العبد مقرب من الله وذو جاه ومنزلة ، لكن المؤمن الصالح الذى صدق فى إيمانه ، وأعماله الصالحة ، هو الذى يضاعف له الثواب فى الآخرة ، ويدخل الجنة فى أعلى الدرجات ، حال كونه آمنا من كل بأس أو خوف ، أو أذى وحرمان .

روى مسلم ، وأحمد ، وابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٦٢] .

فالخلاصة : أن لله حكمة لا يعلمها إلا هو ، بالنسبة للغنى والفقر ، قال تعالى : ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً . (الإسراء : ٢١) .

أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى موسع عليه ، فكذلك فى الآخرة : هذا فى الغرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى النار فى أسفل الدركات .

وقد أخرج مسلم ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم ، ورُزق كفافًا ، وقنَّعه الله بما آتاه»[٦٣] .

وروى الترمذى ، عن سهل بن سعد أن النبى ﷺ قال : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[٦٤] .

وروى ابن أبى حاتم ، عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة لغرفًا تُرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها» ، فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال ﷺ : «لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام»[٦٥] .

٣٨ - وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

الذين يعملون بجدٍّ فى إبطال آياتنا ، والصدّ عن كتاب الله ، وإلهاء الناس بالباطل ، وقذف الوهن والرعب فى قلوب المؤمنين ، ليشغلوهم عن الإيمان والقرآن ، ويظنون أنهم معاجزون لنا ، أى : فائتون لنا ،

لاندركهم ولا نعاقبهم ، هؤلاء المغرورون فى العذاب محضرون ، أى : كأنك بهم وهم محضرون فى جهنم يعذبون فيها أبدًا .

٣٩ - قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ .

أكد القرآن هنا ما سبق أن قرره .

ومعنى الآية : إن الله تعالى يوسع على من يشاء ، ويضيق على من يشاء ، لحكمة إلهية عليا ، فقد يمتحن الإنسان بالغنى ، كما يمتحن آخر بالفقر أو البلاء .

قال تعالى : وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء : ٣٥) .

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ .

تكفل الله أن يعوض من أخرج نفقة فى سبيل الله ، فعطاء الله متجدد ، وفى الحديث القدسى عند مسلم : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم أنفق أُنفق عليك»[٦٦] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[٦٧] .

وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ .

أى : هو سبحانه أفضل من رزق ، وأكرم من أعطى ، فإذا وزّع السلطان أرزاق الجنود ومرتباتهم ، أو وزع الرجل أموالاً على أولاده ، أو وزع الحاكم الأعطيات والمنح ، فذلك من رزق الله أجراه على أيدى هؤلاء ، وهو خالق الرزق ، وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق .

وقال القرطبى :

ما أُنفق فى معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ، ولا مخلوف له ، وأما البنيان فما كان منه ضروريًا يكِنُّ الإنسان ويحفظه ، فذلك مخلوف عليه ، ومأجور ببنيانه .

وقال الفخر الرازى :

وخيرية الرزق فى أمور :

أحدها : ألا يؤخر عن وقت الحاجة .

والثانى : ألا ينقص عن قدر الحاجة .

والثالث : ألا ينكده بالحساب .

والرابع : ألا يكدِّره بطلب الثواب ، والله تعالى كذلك .

فهو سبحانه عالم وقادر ، وهو غنى واسع ، وهو كريم يرزق من يشاء بغير حساب ، وهو سبحانه يعطى عباده ، ولا ينتظر منهم مكافأة .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

★ ★ ★

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

المفردات :

جميعا : عابدين ومعبودين .

أهؤلاء إياكم : أهؤلاء خصوكم بالعبادة دونى .

سبحانك : تنزيها لله عن الشرك .

أنت ولينا : أنت ربنا الذى نواليه ونطيعه ، ونخلص له فى العبادة .

يعبدون الجن : أى : الشياطين ، حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله .

فاليوم لا يملك بعضكم لبعض : فاليوم لا يملك المعبودون للعابدين .

نفعا : شفاعة ونجاة .

ولا ضرا : عذابًا وهلاكًا .

للذين ظلموا : أشركوا غير الله فى عبادته ، من الملائكة والأنبياء ، أو الأولياء والصالحين .

التفسير :

٤٠ – وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ .

واذكر – أيها النبى – يوم يحشر الله المستكبرين والمستضعفين، وما كانوا يعبدون من دون الله ، ثم يقول الله للملائكة : أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ . أى : أرضيتم بعبادتهم لكم ؟

وهو سؤال تقريرى ، يراد به توبيخ المشركين وإذلالهم ، حيث تشهد الملائكة أنهم ما رضوا عن عبادتهم ، على حد قول عيسى يوم القيامة ، وتبرئه من عابديه .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ... (المائدة : ١١٦) . والمقصود من السؤال والجواب ، إعلام المشركين بخيبة أملهم ، وضياع عبادتهم ، حيث إن الملائكة تنزه الله تعالى عن الشريك والمثيل ، وتعترف لله وحده بالوحدانية والملك ، وأن عبادتهم وولاءهم لله وحده ، وتقربهم من الله ، لا من هؤلاء العابدين .

٤١ – قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ .

أى : قالت الملائكة لله تعالى : تنزهت يا ربنا عن الشريك والمثيل ، أنت الذى نواليه بالطاعة والعبادة ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، وما رضينا عن عبادتهم لنا ، إن طاعتهم وعبادتهم كانت للجن والشياطين ، الذين زينوا لهم عبادة الأصنام والأوثان .

وقال ابن عطية : فى الأمم السابقة مَن عَبَدَ الجن ، وفى القرآن ما يشير إلى ذلك ، قال تعالى : وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ... (الأنعام : ١٠٠) .

أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ .

أى : مصدقون ، فأطاعوهم فى عبادة الأصنام ، وعصوك وعصوا رسلك ، فلم يعبدوك ولم يطيعوا رسلك .

وذكر ابن الوردى فى تاريخه : أن سبب حدوث عبادة الأصنام فى العرب ، أن عمرو بن لحى مرّ بقوم فى الشام ، فرآهم يعبدون الأصنام ، فسألهم ، فقالوا له : هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية ، فنستنصر بها ونستقى ، فتبعهم ، وأتى بصنم معه إلى الحجاز ، وسوّل للعرب عبادته فعبدوه ، واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام .

٤٢ - فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ .

فاليوم يوم القيامة ، لا يملك المعبودون للعابدين نفعًا ولا ضرًا ، ولا شفاعة ولا نصرًا ، إذ الملك لله وحده ، وقد تحقق العابدون للأصنام والجن والملائكة ، وكل ما سوى الله ، باليأس والإبلاس ، وانقطاع الأمل ، ويقال للمشركين الذين كذبوا بالبعث والحساب والجزاء : ادخلوا جهنم وصلوا عذابها ، وذوقوا لهيبها ، تلك التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات :

آياتنا بينات : آيات القرآن واضحة ، ظاهرة المعنى ، بينة الدلالة .

قالوا ما هذا إلا رجل : ما محمد إلا رجل من الرجال .

يصدكم : يصرفكم ويمنعكم .

عما كان يعبد آباؤكم : من الأصنام .

إفك مفترى : كذب مختلق .

للحق : للقرآن أو دين الإسلام .

سحر مبين : محمد ساحر ، والقرآن سحر ظاهر .

كتب يدرسونها : يقرءونها فأباحت لهم الشرك ، وأذنت لهم فيه .

من نذير : من رسول يدعوهم إلى الشرك ، لقد اختلقوا الشرك ، ولم ينزل به كتاب ، ولم يُرسل به رسول .

وما بلغوا معشار ما آتيناهم : لم يبلغ أهل مكة عشر ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، وطول العمر وكثرة المال ، كعاد وثمود ونحوهما .

فكيف كان نكير : فكيف كان إنكارى عليهم ، والاستفهام للتهويل ، أى : كان إنكارى شديدًا بالعذاب والعقوبة .

التفسير :

٤٣ - وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

يتجه الكفار إلى النيل من ثلاثة أشياء فى هذه الآية :

١ - الرسول محمد ﷺ.

٢ - القرآن الكريم.

٣ - الإسلام .

ومعنى الآية :

إذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ، مشتملة على التشريع والآداب والقصص وألوان البيان ، قال كفار مكة : محمد ليس رسولاً ، بل هو رجل مثلنا ، يريد أن يزهدنا فى عبادة الأصنام ، ويصرفنا عن عبادة الآلهة التى كان آباؤنا يعبدونها .

وقالوا : إن القرآن كذب مختلق ، وليس وحيًا من الله ، وقالوا عن الإسلام ودعوته - وهو حق مبين : ما هذا إلا سحر واضح ، فمحمد ساحر ، والقرآن سحر يستولى على الناس ، ويأخذ بالألباب ، وفيه قوة خارقة هى السحر وليست الوحى .

لقد كان للقرآن الكريم أثره البالغ فى نفوس العرب من جهة بلاغته وفصاحته وبيانه ، واشتماله على أخبار السابقين ، وعلى ما فى الكون من جمال وجلال ، واشتماله على أخبار القيامة والحساب والجنة والنار ، مع صدق القرآن ، وأثره فى زلزلة العقائد الفاسدة ، ومناقشة العقول والألباب ، وقد أحس كبراء مكة بهذا الصدق وذلك التأثير ، فادعوا أنَّ القرآن سحر يؤثر ، مع أنهم كانوا يتسللون لواذا للاستماع إلى القرآن من النبى ﷺ ليلاً ، فإذا تقابلوا وواجه بعضهم بعضًا ، تلاوموا واتفقوا ألا يعودوا للاستماع إلى القرآن الكريم ، خشية أن يراهم الضعفاء والأتباع من المشركين ، فيميلوا إلى سماع القرآن الكريم ، واتباع النبى الأمين ، ولذلك كثر تخبط القادة من المشركين فى توجيه التُّهم للقرآن الكريم ، والرسول الأمين ، ومن هذه

التهم أن القرآن سحر ، ينزع من آمن به من بين أهله وعشيرته ، ويفرّق بين الأخ وأخيه ، والابن وأبيه ، ولو صدقوا مع أنفسهم وما بداخلهم ، لقالوا : إنه وحى من الله تعالى ، لا يستطيع بشر أن يأتى بمثله .

٤٤ – وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ .

أى : كيف يتمسكون بتقليد الآباء والأجداد فى عبادة الأصنام ، وهى عبادة باطلة ، لم ينزل بها كتاب سماوى ، ولم يرسل بها رسول من عند الله ، لقد كان أولى بهم أن يتبعوا محمدًا ﷺ ، الذى أرسله الله ، وأنزل عليه القرآن الكريم .

وتشير الآية إلى زمن الفترة السابقة على الرسالة المحمدية ، حيث خفيت معالم رسالة إبراهيم وإسماعيل ، لبعد العهد وطول المدة ، وعبادة تماثيل ترمز لملكوت السماء ، ثم انقطاع الصلة مع طول العهد ، وبقاء الكفار على عبادة الأصنام قصدًا ، بدون اعتماد على كتب يتدارسون شرائعها ، ولا اتباع لنبى ينذرهم عقاب الله إن خالفوا أوامره .

وفى معنى الآية قوله تعالى : أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ . (الروم : ٣٥) .

وقوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ . (الزخرف : ٢١) .

وقوله تعالى : أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . (القلم : ٣٧ ، ٣٨) .

وقوله تعالى : لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ . (يس : ٦) .

٤٥ – وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .

أى : لا تحزن يا محمد على تكذيب قومك لك ، فإن هذه جبلّةٌ وطبيعةٌ فى البشر ، قال تعالى : وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . (يوسف : ١٠٣) .

لقد كذب قبلهم كثير من الأمم ، مثل أقوام نوح وهود وصالح ، وكُذِّب موسى وعيسى ، وقد كان هؤلاء السابقون أهل صناعة ومال وعمران ، وبلغوا فى الحضارة والغنى مبلغًا كبيرًا ، لم يبلغ أهل مكة عشر ما بلغوا من الغنى والثروة والصناعة ، بل ربما لم يبلغوا عشر معشار من سبقهم من المكذبين ، أى ١٪ من غنى وتفوق من سبقهم ، ومع هذا الغنى والجاه للسابقين ، لما كذَّبوا الرسل أنزل الله بهم أشد العذاب ، فمنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسف الله به الأرض ، ومنهم من هلك بالغرق أو الطوفان ، أو غير

ذلك من ألوان العذاب فليعتبر أهل مكة بما أصاب من قبلهم ، وليرتدعوا عن الشرك ، خشية أن يصيبهم ما أصاب المكذبين .

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

أعظكم بواحدة : أذكركم وأحذركم بكلمة واحدة ، هى :

أن تقوموا لله : أن تقوموا فى طلب الحق بالفكرة الصادقة ، أى : تتجهوا وتهتموا بالبحث عن الحقيقة ، وليس المراد به القيام الذى يقابل القعود .

مثنى وفرادى : اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا .

ثم تتفكروا : تنظروا فى حقيقة أمر النبى ﷺ ، وما جاء به من القرآن .

ما بصاحبكم من جنة : ليس بمحمد من جنون ، ولا سحر ، بل هو الصدق والوحى .

ما سألتكم من أجر : ما طلبت منكم من أجر ومال فى مقابل تبليغى للرسالة .

فهو لكم : فهذا المال مردود عليكم ، كما تقول لشخص : ما أخذت منك من مال فخذه ، وأنت تعلم أنك لم تأخذ منه شيئًا ، ويحتمل أن يكون المعنى : فالأجر لكم إن آمنتم بالله ورسوله .

إن أجرى إلا على الله : ما ثوابى إلا على الله .

يقذف بالحق : يلقيه وينزله ليرمى به الباطل .

وما يبدئ الباطل : لم تعد للباطل كلمة يبدأ بها أو يعيد .

فإنما أضل على نفسى : فإنما يعود ضرر الضلال عليها .

إذ فزعوا : خافوا عند الموت أو البعث .

فلا فوت : فلا نجاة ولا مهرب من العذاب .

مكان قريب : موقف الحساب .

التناوش : تناول الإيمان والتوبة .

مكان بعيد : هو الآخرة ، إذ مكان الإيمان هو الدنيا .

وقد كفروا به : وقد كفروا بمحمد ورسالته قبل حضور الموت .

ويقذفون بالغيب : يرجمون بالظنون .

من مكان بعيد : من جهة بعيدة ، ليس فيها مستند لظنهم ، حيث قالوا : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وقالوا فى القرآن : سحر، شعر ، كهانة .

وحيل بينهم : منعوا من الانتفاع بالإيمان بعد فوات الأوان ، أو الرجوع إلى الدنيا .

بأشياعهم : بأمثالهم من الكفار .

مريب : موقع فى الريب والقلق ، والشك بمعنى الريب والتهمة ، والشك المريب أقوى من مطلق الشك ، كما تقول : عجب عجيب ، وشعر شاعر .

التفسير :

٤٦ - **قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .**

حث الإسلام على استخدام العقل والفكر والرأى ، والتدبر والتأمل فى هذا الخلق وذلك الوجود ، وفى دين الإسلام والرسول محمد ﷺ ، وهذه الآية دعوة إلى استخدام العقل والفكر .

والمعنى :

قل لهم يا محمد : إنما أقدم لكم نصيحة واحدة ، هى أن تتجهوا إلى الله مخلصين له ، حال كونكم اثنين اثنين ، أو واحدًا واحدًا ، ثم تتفكروا وتتأملوا فى رسالة محمد ﷺ ، فليس به جنون أو شعر أو سحر ،

أو سفه أو اختلاط ، أو غير ذلك من الدعاوى التى يرددها مشركو مكة بألسنتهم ، دون اقتناع بها من قلوبهم ، فمحمد صادق أمين ، ورسول كريم ، يدعو الناس إلى دين الله ، وينذر الكافرين الجاحدين للإيمان بالعذاب الشديد يوم القيامة .

وقوله تعالى : بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

أى : إن الرسالة المحمدية جاءت خاتمة الرسالات ، وقد أرسل الله محمدًا ﷺ بين يدى الساعة .

روى الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت أنا والساعة جميعًا ، إن كادت لتسبقنى»[٦٨]

والحديث يشير إلى قصر مدة الدنيا ، فضلاً عن مدة الرسالة الخاتمة التى تختم بها هذه الدنيا .

٤٧ – قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

إنى لم أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ولا مالاً ، إنما عملت عملى فى دعوتكم للهداية ، خالصًا لوجه الله ، وهو سبحانه مطلع على كل شىء ، وهو شهيد ومراقب ومحاسب ومجازٍ على كل شىء .

قال الزمخشرى :

وفى الآية معنيان :

أحدهما : نفى سؤاله الأجر رأسًا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئًا فخذه ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئًا ، ولكن يريد به عدم الأخذ ، لتعليقه الأخذ على ما لم يحدث وهو الإعطاء .

والمعنى الثانى : أنه يريد بالأجر الهداية إلى الإيمان ، أى : ما أطلب على تبليغ الرسالة أجرًا ، إلا هدايتكم إلى الله ، على حد قوله تعالى : قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً . (الفرقان : ٥٧) .

٤٨ – قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ .

إن الله تعالى يرسل رسالته ، ويختار لها من يشاء من عباده ، وهو عالم بمن يصلح لهذه الرسالة .

قال تعالى : يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ... (غافر : ١٥) .

وقال ابن عباس :

يقذف الباطل بالحق ، كقوله تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

وقيل فى معنى الآية :

إن الله يرسل الإسلام إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام ونشره ، وهوسبحانه علام الغيوب .

وفى الحديث الشريف : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، بعز عزيز أو بذل ذليل»[٦٩] .

وقد أنجز الله وعده ، فامتد نور الإسلام إلى آفاق المعمورة ، ولم تمض عشر سنوات على وفاة الرسول ﷺ ، حتى كان خلفاؤه يفتحون فارس والروم ومصر ، وينشرون دين الله فى المشارق والمغارب .

٤٩ – قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ .

سطع نور الإسلام ، وظهرت حجته ، وانتشرت فكرته ، وخبا ضوء الشرك ، واضمحلت قوته ، ووهنت دولته .

قال ابن مسعود : أى لم يبق للباطل مقالة ، ولا رياسة ، ولا كلمة .

وقال الزمخشرى :

إذا هلك الإنسان لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعلوا قولهم : وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ . مثلاً فى الهلاك ، والمعنى : جاء الحق ، وهلك الباطل .

وأخرج البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ عندما فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، دخل المسجد الحرام فوجد أصنام المشركين حول الكعبة ، فجعل يطعنها بطرف قوسه وهو يقرأ : وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا . (الإسراء : ٨١) . ويقرأ : قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ[٧٠] .

٥٠ – قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

ذكر القرطبى أن الكفار قالوا للنبى ﷺ : تركت دين آبائك فضللت ، فقال له : قل يا محمد : إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسى . اهـ .

أى : إذا ضللت فلا أضرّ إلا نفسى .

وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ...

وإذا اهتديت إلى الدين الحق ، والإيمان والإسلام ، فذلك بسبب وحى السماء الذى أنزله الله علىّ .

إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

يسمع الدعاء ويجيب النداء ، وهو قريب غير بعيد ، مطلع وشاهد ، خلق الخلق ورزقهم ويرعاهم ويسمع دعاءهم .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

٥١ - وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ .

ولو ترى يا محمد ، أو ولو ترى يا كل من يتأتى منه الرؤية ، حين يشتد بهم الفزع ، عند القيام من القبور ، والحشر والحساب ، ولا يملكون الهرب أو الفوت من الحساب ، ويساقون إلى أرض المحشر ، فى مكان قريب منهم ، لا يملكون معه الهرب ولا الفوت ولا الفكاك .

قال الفخر الرازى :

وَلَوْ تَرَىٰٓ . جوابه محذوف ، أى : ترى عجبًا .

وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . لا يهربون ، وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب .

٥٢ - وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

فى يوم القيامة وعند البعث ومشاهدة الحساب يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأنى وكيف يتأتى لهم تناول الإيمان تناولاً سهلاً ، من مكان بعيد عن محل القبول ؟ لأن الدار الآخرة هى دار الجزاء ، والدنيا هى دار العمل ، وفى الأثر : «الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل» .

قال الفخر الرازى :

الماضى كالأمس الدابر ، لا يمكن الوصول إليه ، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنون فإنه آت ، وفى يوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها، وفى الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه .

قال تعالى : لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ . (الشورى : ١٧) .

وقوله تعالى : مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . والمراد : ما مضى من الدنيا . ا هـ .

وبعبارة أخرى : كما أن رجوع الزمان الماضى من الدنيا بعيد أو مستحيل ، فكذلك قبول الإيمان فى الآخرة بعيد أو مستحيل .

وفى الأدب العربى : أن كليبًا لما قُتل رغبت قبيلة القاتل فى الصلح ، فأرسلت إلى أخيه جساس تعرض عليه الصُّلح ، نظير أن ينفِّذوا له ما يطلب ، فقال جساس : (انشروا لى كليبا) أى : طلب أمرًا مستحيلاً وهو إعادة كليب حيا ، حتى يصطلح ، ومن شعر جساس :

يا لبكر أنشروا كليبا يا لبكر أين أين الفرار

أو يكون معنى الآية : الإيمان لا يقبل إلا فى الدنيا ، والعودة إلى الدنيا مستحيلة ، فأنى لهم الإيمان من مكان بعيد عن الدنيا ، وأنى لهم العودة إلى الدنيا .

وفى سورة المؤمنون : رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . (المؤمنون : ١٠٧ ، ١٠٨) .

٥٣ – وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

لقد كفروا بالإسلام من قبل فى الدنيا ، واتهموا نبى الإسلام محمدًا ﷺ بأمور بعيدة عنه ، حيث قالوا : ساحر أو شاعر أو مجنون أو كذاب ، وهم يعلمون بُعْده عن هذه الأمور ، ويعلمون صدقه وأمانته ، وتارة يقولون عن القرآن : سحر أو شعر أو كهانة أو إفك مفترى ، وتارة يقولون : لا بعث ولا نار ولا حساب ولا جزاء ، وما نحن بمعذبين .

قال القرطبى :

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ... أى : بالله عز وجل ، وقيل : بمحمد ، مِن قَبْلُ . يعنى : فى الدنيا .

وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ... العرب تقول لكل من يتكلم بما لا يحقه ، هو يقذف ويرجم بالغيب .

مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . على جهة التمثيل ، لمن يرجم ولا يصيب ، أى : يرمون بالظن ، فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رجما منهم بالظن . ا هـ .

والمقصود من الآية تقريعهم على ما كانوا يتفوَّهون به من كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة .

٥٤ – وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ .

وهكذا تختم السورة بمشهد هؤلاء الكفار ، يحاولون الإيمان بالله والرسول ، بعد البعث والحشر ، أو يحاولون الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا عملاً صالحًا ، بيد أن الله لا يقبل منهم ذلك ، شأنهم شأن الكفار

السابقين ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وفرعون وملئه ، وأشياعهم وأشباههم من الكافرين ، الذين لم يقبل منهم الإيمان بعد معاينة الموت .

قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ . (غافر : ٨٥) .

إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ .

لقد استحق كفار مكة العذاب ، كما استحقه أشياعهم من المكذبين السابقين للرُّسل ، لأنهم جميعًا كانوا فى شك مُمعِنٍ فى الريبة ، فى أمر الرسل والبعث ، والجنة والنار ، بل وفى الدين كله والتوحيد .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه ، أحيانا الله وبعثنا على اليقين ، إنه أرحم الراحمين ، وولى المؤمنين .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة سبأ ، مساء السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٣ يوليه ١٩٩٩ م ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، والحمد لله رب العالمين .


تفسير سورة فاطر

أهـــداف ســـورة فـاطـــر

سورة فاطر سورة مكية ، نزلت بعد سورة الفرقان ، وقد نزلت سورة فاطر فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء .

وإذا قسمنا حياة المسلمين بمكة إلى ثلاث فترات : الفترة المبكرة للدعوة ، والفترة المتوسطة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، والفترة الأخيرة فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة ، رأينا أن سورة فاطر نزلت فى الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة .

ولسورة فاطر اسمان : الاسم الأول سورة فاطر ، والاسم الثانى سورة الملائكة ، لقوله تعالى فى أول السورة : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (فاطر : ١) .

موضوعات السورة

قال الفيروزبادى :

مقصود سورة فاطر هو : بيان خلق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتذكير النعمة ، والتحذير من إغواء الشياطين ، وتسلية الرسول ، وصعود كلمة الشهادة إلى الله ، وذكر عجائب البحر ، واستخراج الحلية منه ، وسير الليل والنهار ، وعجز الأصنام عن الربوبية ، وفقر العباد إلى الله ، وفضل القرآن وشرف تلاوته ، وأصناف الخلق فى وراثة القرآن ، وخلود الجنة لأهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، والمنة على العباد بحفظ السماء والأرض من الخلل والاضطراب ...[٧١] .

سياق السورة

سورة فاطر لها نسق خاص فى موضوعها وفى سياقها ، أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . «فهى تمضى فى إيقاعات تتوالى على القلب البشرى من بدئها إلى نهايتها ، وهى إيقاعات موحية مؤثرة تهز القلب هزًّا ، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون ، وليتدبر آيات الله المبثوثة فى تضاعيفه ، المتناثرة فى صفحاته ، وليتذكر آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته ، وليتصور مصارع الغابرين فى الأرض ومشاهدهم يوم القيامة ، وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله ، وآثار يده فى أطواء الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى حياة البشر ، وفى أحداث التاريخ ، وهو يرى ويلمس فى تلك البدائع وهذه الآثار

وحدة الحق ووحدة الناموس ، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القادرة .. ذلك كله فى أسلوب وفى إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك ، ويتأثر تأثر الأحياء .

والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات ، متتالية الإيقاعات يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهى كلها موضوع ، كلها إيقاعات على أوتار القلب البشرى ، تستمد من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث ، فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع إلى الإيمان والخشوع والإذعان .

والسمة البارزة الملحوظة هى تجميع الخيوط كلها فى يد القدرة المبدعة ، وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ، وتقبضها وتبسطها ، وتشدها وترخيها فلا معقب ولا شريك ولا ظهير»[٧٢] .

فقرات السورة

رغم أن السورة كلها وحدة متماسكة إلا أنها يمكن تقسيمها إلى خمسة موضوعات أو مجموعات :

١ - رحمة الله وفضله

إذا تأملنا الآيات من (١ – ٨) فى سورة فاطر ، نجد فيضا من أنعم الله التى لا تعد ولا تحصى على عباده ، فهو خالق السماء والأرض ، وجاعل الملائكة رسلاً يوصلون آثار قدرته وجليل وحيه إلى عباده ، وإذا لاحظت عناية الله عبدًا زالت من أمامه القيود والسدود : مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ... (فاطر : ٢) . لقد فتح الله رحمته لأنبيائه وأصفيائه : جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وأنقذ يوسف من الجب ومن السجن ، واستجاب دعاء يونس فى بطن الحوت ، وآزر موسى فى طريقه إلى فرعون ، وأنزل رحمته بأصحاب الكهف وحفظهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا ، وشملت رحمة الله محمدًا ﷺ فى الهجرة ، وهو طريد : ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ... (التوبة : ٤٠) .

وإذا أمسك الله رحمته عن عبد ، فلن ينفعه مال ولا رجال ، وإذا استقر اليقين فى القلب تنبه إلى كيد الشيطان وفنه ، فالمؤمن يعلم أن الشيطان عدو لنا يزين لنا الشر ليوقعنا فى المعصية ، فمن أطاع الشيطان زين له سوء عمله فرآه حسنًا ، ووقع فى الضلال ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

٢ - آيات الله فى الكون

فى الآيات من (٩ – ١٥) نلحظ آثار القدرة الإلهية فى نفس الإنسان ، وفى صفحة الكون ، وفى الرياح يسوقها الله ، ثم تثير السحب فتسوقها يد القدرة مطرا يحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك البعث والحياة بعد الموت .

والله خالق الإنسان وبيده رعايته فى مراحل تكوينه ، وتخليقه فى بطن أمه ، ثم رعايته وليدًا وناشئًا وزوجًا ، وهو عليم بمن يموت مبكرا ، إن ذلك على الله يسير .

وتمتد قدرة الله إلى كل مظهر من مظاهر الوجود ، فتراها فى مشهد البحرين المتميزين أحدهما عذب فرات ، والآخر ملح أجاج ، وفيهما من نعم الله على الناس ما يقتضى الشكر والعرفان .

وفى مشهد الليل والنهار يتداخلان ، ويطولان ويقصران ، دليل على التقدير والتدبير ، وكذلك مشهد الشمس والقمر مسخرين بهذا النظام الدقيق .

هذه آثار قدرة الله ، والذين يدعون من دونه لا يسمعون ولا يستجيبون ، ويوم القيامة يتبرءون من عبادهم الضلال . ولا يخبر بهذه الحقائق مثل الإله الخبير .

٣ - الله غنى عن عبادتنا

فى الآيات من (١٥ – ٢٦) بيان لحقيقة أساسية ، هى أن الله غنى عن عبادتنا ، فلا تنفعه طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، ولكننا نحن الفقراء المحتاجون إلى رضاه وعنايته ، فمن وجد الله وجد كل شىء : وجد الهداية والسعادة والثقة بالنفس ، والأمل فى الغد ، ومن فقد الله فقد كل شىء ، ولو شاء الله أن يذهب الناس لأهلكهم ، وأتى بخلق جديد يعرفون فضله عليهم .

ويشير القرآن إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف بين طبيعتهما أصل عميق ، كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والموت والحياة ، وأن بين الهدى والبصر والنور والظل والحياة صلة وشبها ، كما أن بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة وشبها ، ثم تنتهى الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير .

٤ - كتابان إلهيان

عند قراءة الآيات من (٢٧ – ٣٨) يتضح أمامنا أن لله عز وجل كتابين يدلان عليه : أحدهما كتاب الكون ، والثانى الكتاب المنزل ، والمؤمن يقرأ دلائل القدرة فى كتاب الكون : فى صحائفه العجيبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس ، والثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة .. هذه اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة فى كتاب الكون المفتوح .

والمؤمن يقرأ فى الكتاب المنزل ويستيقن بما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة ، وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة ، ودرجات الوارثين وما ينتظرهم جميعًا من نعيم بعد عفو الله وغفرانه

للمسيئين ، ومشهدهم فى دار النعيم ، ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم ، وتختم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقًا لعلم الله العليم بذات الصدور .

٥ - دلائل الإيمان

تشتمل الآيات من (٣٩ – ٤٥) على الفقرة الأخيرة من السورة ، وفيها دلائل يقدمها القرآن ليحرك القلوب نحو الإيمان ، وتجول الآيات جولات واسعة المدى تشتمل على إيحاءات شتى : جولة مع البشرية فى أجيالها المتعاقبة يخلف بعضها بعضا ، «وجولة فى الأرض والسماوات للبحث عن أى أثر للشركاء ، الذين يدعونهم من دون الله ، وجولة فى السماوات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية تمسك بالسماوات والأرض أن تزولا ، وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل كلها ، وهم قد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، وجولة فى مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم الداثرة ، ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة ، وأن تمضى فيهم سنة الله الجارية»[٧٣] . ثم الختام الموحى الموقظ للقلب ، المبين فضل الله العظيم فى إمهال العصاة ، فإن تابوا قبل توبتهم ، وإن أصروا على المعصية عاقبهم وحاسبهم ، قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا . (فاطر : ٤٥) .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) ﴾

المفردات :

الحمد لله : قولوا : الحمد لله ، فإنه واجب الحمد ، ومقتضى الحمد ما ذكر بعد .

فاطر السماوات والأرض : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق .

جاعل الملائكة رسلا : أى : جعل منهم رسلا إلى الأنبياء كجبريل .

أولى أجنحة : ذوى أجنحة ، جمع جناح كجناح الطائر .

مثنى وثلاث ورباع : أى : اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، حسب مراتبهم .

يزيد فى الخلق ما يشاء : يزيد بحكمته فى بعض مخلوقاته ما يشاء من الزيادات على بعض آخر ، وإن اتفقوا فى الجنس والنوع .

فلا ممسك لها : فلا أحد يستطيع إمساكها ومنعها .

العزيز : الغالب ، يتصرف فى ملكه كما يشاء .

الحكيم : فى فعله ، يضع الأمر فى موضعه المناسب .

لا إله إلا هو : لا معبود بحق إلا هو ، إذًا فاعبدوه ووحّدوه .

فأنى تؤفكون : فكيف تصرفون عن عبادة الله تعالى وحده .

تمهيد :

تبدأ سورة فاطر بحمد الله تعالى ، وقد بدأت بحمد الله خمس سور ، هى : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، وتشتمل البداية على دلائل القدرة والعظمة والملك ، وتدبير شئون الكون ، وإرسال الرزق والوحى ، ومنافع العباد المادية والمعنوية .

التفسير :

١ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الشكر لله منشئ السماوات والأرض من العدم ، وخالقهما على غير مثال سابق ، وهو سبحانه جعل الملائكة وسائط بينه وبين عباده لتبليغ رسالات السماء ، وتصريف الرياح والأمطار ، والسحاب والأرزاق ، والعذاب والهداية ، وغير ذلك ، ومن هؤلاء الملائكة : جبْريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وهم ذوو أجنحة متعددة ، بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة أجنحة ، وبعضهم له أربعة أجنحة ، وبعضهم له أكثر من ذلك ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء .

جاء فى الحديث الصحيح عند مسلم ، عن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ، وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب[٧٤] .

﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء ، من ناحية عددهم أو فى عدد أجنحتهم ، أو يزيد فى جميع الخلق ما يشاء نوعًا وعددًا وقوة ، وعقلاً وعلمًا وحسنًا ، وغير ذلك من الكمالات أو ما يقابلها ، لا يمنعه مانع من تنفيذ مشيئته ، إن الله على كل شىء قدير ، وقد تعددت الآراء فى الزيادة فى الخلق ، فقيل : حسن الصوت وملاحة العين ، وحسن الأنف ، وحلاوة الفمّ ، وحكمة العقل ، وجودة الرأى ، وغير ذلك .

قال الزمخشرى فى تفسير : ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ ...

الآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق ، من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام فى الأعضاء ، وقوة فى البطش ، وحصافة فى العقل ، وجزالة فى الرأى ، وجرأة فى القلب ، وسماحة فى النفس ، وذلاقة فى اللسان ، ولباقة فى التكلم ، وحسن تأتٍ فى مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف . ا هـ .

٢ - ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

إذا أراد الله إكرام عبد من عباده ، يسّر له أسباب الرزق والأمن والهداية ، والصحة والعلم والكرامة والحكمة ، وغير ذلك من أسباب الرحمة وألوان النعم ، وهذا العطاء لا يستطيع أحد أن يمسكه ، أو يمنعه عمن يريد الله إكرامه به ، وإذا أراد إهانة عبد أو منع الخير عنه ، فلا يستطيع أحد أن يرسل الخير إليه ، بعد أن أمسكه الله عنه ، فأسباب الرزق السماوى والأرضى بيده ، وهو سبحانه بيده الخلق والأمر لا معقب لأمره ، ولاراد لقضائه ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

وهو سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ . الغالب على أمره ومراده ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ . فى صنعه وتدبير خلقه .

روى الإمام أحمد ، والشيخان ، عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من الصلاة قال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[٧٥] .

وروى مسلم بسنده ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : «سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»[٧٦] .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (الأنعام : ١٧) .

وهذه الآية مكملة لما سبقها فى أن الفضل والرحمة والنعمة بيد الله تعالى .

٣ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ .

نداء من العلى الكبير لأهل مكة ، وللناس أجمعين ، يلفتهم إلى إحياء قلوبهم بتذكر رحمة الله تعالى ، فى إرسال النعم والخيرات والأرزاق والأمطار من السماء ، والنبات والأرزاق من الأرض بالزراعة والصناعة والتجارة ، وأنواع الحرف وألوان الكسب .

والاستفهام هنا للتقرير ، جوابه لا أحد غير الله يملك هذا الرزق ، سبحانه لا إله سواه ، فكيف تصرفون عن هذه الحقيقة ، وكيف تمتنعون عن توحيده والإيمان بما جاء به رسوله .

والآيات الثلاث السابقة كلها تأكيد لفيض الرحمة والنعمة والعظمة من الله ، وإذا استقر ذلك فى القلب ، دفع صاحبه إلى السعادة والرضا واليقين ، وقريب من هذا المعنى قوله سبحانه فى أوائل سورة آل عمران : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (آل عمران : ٢٦) .

٤ - ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ .

تأتى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ ، حين كذَّبه أهل مكة ولم يؤمنوا به ، وهى تسلية للدعاة والهداة ، فقد كذَّب الكفارُ الرسلَ من عهد نوح ، ومن بعده من الأنبياء والرسل ، بَيْد أن الحساب والجزاء بيد الله ، حيث يعاقب المكذِّبين ، ويكافئ المؤمنين ، وإليه وحده ترجع الأمور يوم القيامة ، وهو الملك لذلك اليوم ، حين ينادى سبحانه : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ . (غافر : ١٦) .

★ ★ ★

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾

المفردات :

وعد الله حق : بالبعث والحشر والجزاء لا خلف فيه .

فلا تغرنكم : لا تلهينكم ويذهلكم التمتع بها .

ولا يغرنكم بالله : فى حلمه وإمهاله .

الغرور : الشيطان الخدَّاع بأن يمنيكم المغفرة .

فاتخذوه عدوا : فلا تطيعوه ولا تقبلوا ما يغركم به .

حزبه : أتباعه فى الباطل والشرّ والفساد .

ليكونوا من أصحاب السعير : ليؤول أمرهم إلى أن يكونوا من أصحاب النار المستعرة .

زُيِّن لـه سـوء عـمـلـه : حسَّنت له نفسه وشيطانه عمله السيىء .

فـــرآه حســـنـــا : رآه حسنًا لا قبح فيه .

فــلا تــذهب نــفسك : فلا تهلك نفسك .

عــلــيــهــم حســرات : تحسُّرًا عليهم لكفرهم .

تمهيد :

هذه الآيات توجيهات إلهية من الله لعباده بعدم الغرور بالدنيا ، وعدم طاعة الشيطان ، وبيان جزاء الكافرين والمؤمنين ، وبيان أن الهدى والضلال بيد الله ، بحسب ما يعلمه من استعداد العبد للأول أو للثانى .

التفسير :

٥ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ .

يا كلَّ الناس إن وعد الله حق ، بالحشر والحساب والجزاء ، والجنة أو النار ، وهذه حقيقة لا شك فيها ، هناك قيامة وثواب أو عقاب .

فَلا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...

بطول أعماركم وصحة أبدانكم ، وسعة أرزاقكم ، فإن ذلك زائل عنكم لا محالة ، ولا يغرنكم الشيطان ، ولا يخدعنكم عن أنفسكم بتزيين المعاصى ، والإصرار على الكبائر ، أملاً فى المغفرة مع التسويف فى التوبة .

قال تعالى : **وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ** . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

ثم حذر الله الإنسان من الشيطان ، الذى أخرج آدم من الجنة ، واستمر فى عداوته للإنسان وتزيين الشرِّ له ، فكيف يسير الإنسان خلف عدوه وهو يعلم أنه يستدرجه إلى الضلال المبين ؟

٦ - إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ .

الشيطان يغريكم بالمعصية والفحشاء والمنكر ، والبخل والصدود عن طاعة الله ، وهو عدو لكم وقد جنَّد نفسه وأتباعه لغوايتكم ، فاحذروه ولا تتبعوه ، ولا تركنوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحًا لكم ، ولا تتبعوا

خطاه ، وهو لا يدعوكم إلى خير ، ولا ينتهى به إلى نجاة ، إنما يدعو أتباعه ويغريهم بالمعصية فى الدنيا ، ليكونوا من أصحاب النار المستعرة يوم القيامة ، فهل من عاقل يجيب دعوة الداعى إلى عذاب السعير ؟

٧ - ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

الذين ساروا وراء الشيطان ، وكفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لهم عذاب شديد فى الآخرة ، والذين آمنوا بالله ربًّا ، وصدقوا برسله ، وعملوا الصالحات لهم مغفرة لذنوبهم ، وجزاء عظيم فى الجنة ، حيث أطاعوا الرحمان ، وامتنعوا عن طاعة الشيطان .

قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة[٧٧] ، فأمّا لمّة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمّة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق»[٧٨] .

٨ - أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ .

هذا هو مفتاح الشر فى الحياة ، أن يزين الشيطان للإنسان عمله القبيح ، فلا يستمع إلى نصيحة ، ولا يراجع نفسه ، ولا يحاسبها على أمر ، بل يسير معجبًا بنفسه قد تملكه الغرور ، أهذا المغرور المعجب بنفسه ، المرتكب للآثام ، مع اعتقاد أنه الأفضل والأحسن ، كمن استقبح الكفر ، واختار الإيمان والعمل الصالح ؟ كلا لا يستويان ، والمراد بمن زين له سوء عمله : كفار مكة .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية ، عن جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : أن النبى ﷺ قال : «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بأبى جهل بن هشام ، فهدى الله عمر بن الخطاب ، وأضل أبا جهل ، ففيهما أنزلت : فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ...

إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان ، يقلبها كيف يشاء ، فمنهم من يمنحه الهدى والتوفيق ، ونفاذ البصيرة واختيار الإيمان ، ومنهم من يؤثر الضلالة والجحود والكنود ، فيتركه الله مخذولاً شاردًا فى الضلال ممعنًا فى الكفر ، فلا تغتم بكفرهم ، ولا تهلك نفسك حزنًا على ضلالهم ، فالله مطلع وشاهد على أعمالهم ، وسوف يجازيهم بما يستحقون .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ٣) .

وقوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

★ ★ ★

من دلائل القدرة

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

فتثير سحابا : تظهره وتنشره وتحركه بشدة ، فيجتمع ويسير .

بلد ميت : لا زرع فيه ولا نبات .

فأحيينا به الأرض : بالماء والزرع والنبات والعشب والكلأ .

كذلك النشور : مثل إحياء الأرض بالنبات ، البعث والحياة الثانية .

العزة : الشرف والرفعة .

فلله العزة جميعا : فلتُطلب العزة بطاعة الله فإنها لا تنال إلا بذلك .

الكلم الطيب : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ، وكل ذكر وتلاوة قرآن ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، والمراد من صعوده : قبوله .

والعمل الصالح : الإخلاص يعلى قدر الكلم الطيب عند الله تعالى .

يمكرون السيئات : يعملونها ويكسبونها .

يبور : يهلك ويفسد ويبطل .

خلقكم من تراب : خلق أباكم آدم من تراب .

نطفة : منى يخلق ذريته منه ، أى : ماء الرجل وماء المرأة .

ثم جعلكم أزواجا : ذكرانا وإناثا .

وما تحمل من أنثى : ما تحمل من جنين ولا تضعه .

إلا بعلمه : إلا بإذنه وتدبيره ، وعلمه ومشيئته .

وما يعمر من معمر : وما يطول من عمر ذى عمر طويل إلا فى كتاب .

ولا ينقص من عمره : بأن يجعله أقل وأقصر من العمر الطويل ، وذلك بحسب العرف والعادة الشائعة بين الناس .

إلا فى كتاب : فى صحيفة المرء فى اللوح المحفوظ .

يسير : سهل ميسور .

التفسير :

٩ - وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ .

آيات القدرة ظاهرة فى هذه السورة ، ومنها بعث الحياة فى الأرض الميتة الهامدة الجافة ، حيث يبعث الله الرياح من مكامنها ، فتثير السحاب وتبعثه ليجتمع ، ويسير شمالاً أو جنوبًا ، وشرقًا أو غربًا ، حسب توجيه الله وإرادته ، فإذا نزل مطرًا بأرض ميتة لا زرع فيها ولا نبات ، فإن الماء مع البذور يترتب عليه النبات والزرع ، والتحرك والاخضرار ، وإذا الأرض الجافة الهامدة قد تحركت بالماء والزرع والنبات ، فصارت بهجة للناظرين ، وإن الله القادر الذى جمع السحاب ، وأنزل المطر ، وبعث الحياة فى الأرض الميتة ، قادر على إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية ، وكما أحيا الله الأرض بالماء والزرع ، فهو يحيى الموتى ، ويعيد إليهم أرواحهم ، ويبعثهم للحساب والجزاء .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (فصلت : ٣٩) .

وقد أورد ابن كثير والقرطبى حديث أبى رزين قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال ﷺ : «يا أبا رزين ، أما مررت بوادى قومك ممحلا ، ثم مررت به يهتز خضرا» ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، قال ﷺ : «فكذلك يحيى الله الموتى» .

١٠ - مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

من أراد عز الدنيا وشرف الآخرة ، فإن ذلك لا ينال إلا بطاعة الله تعالى ، فإن العزة لله وحده ، فهو سبحانه يعزّ من يشاء ويذل من يشاء ، يضع رفيعًا ويرفع وضيعًا ، ويغنى فقيرًا ويفقر غنيا ، ويعافى مبتلى

ويبتلى معافى ، بيده الخلق والأمر ، كل يوم هو فى شأن ، أى شئون يبديها ولا يبتديها : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ... (آل عمران : ٢٦) .

وقد كان كفار مكة يتقربون إلى الأصنام ويعبدونها ، يلتمسون عندها العزة ، فبين القرآن أن العزة لله ، وأن أسباب العزة مجتمعة فى يده وقدرته ، وأنه سميع قريب مجيب ، وآية ذلك أن الكلم الطيب ، مثل ذكر الله وتسبيحه وتلاوة القرآن والصلاة على النبى ﷺ ، وأنواع الأعمال الطيبة الصالحة ، تصعد إلى الله فيقبلها ، ويثيب عليها ، وهو جليس من ذكره ، فمن ذكره فى نفسه ، ذكره الله فى نفسه ، ومن ذكر الله فى ملأ ، ذكره الله فى ملأ خير منه .

والعمل الصالح المقترن بالإخلاص ، وأداء الفرائض يرفعه الله ويقبله ، فالرفعة هنا إشارة إلى القبول وحسن الجزاء ، أما كفار مكة ومن يدبِّر السوء ، مثل اجتماعهم فى دار الندوة للتشاور فى أمر النبى ﷺ ، فمنهم من يقترح قتله ، ومنهم من يقترح حبسه ، ومنهم من يقترح نفيه ، ولكن الله أبطل كيدهم ، ونجى رسوله .

وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

والذين يمكرون المكرات السيئات من قريش ضد محمد ﷺ ، لهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة ، ومكر هؤلاء يفسد ولا يتحقق ، ويصبح بائرًا تالفًا .

قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

لقد أكرم الله رسوله وجعل هجرته نصرًا ، وآزر جهاده فى غزوات متتابعة ، مثل : بدر ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، ثم فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وبَارَ مكر الكافرين ، وبطل شأنهم ، ونصر الله المؤمنين ، وأعز الله دينه ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . (الصف : ٩) .

وقال تعالى : وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ... (فاطر : ٤٣) .

١١ - وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ .

بدأ الله خلق آدم من تراب ، ثم خلق ذريته من النطفة ، وهى ماء الرجل الذى فيه الحيوانات المنوية ، وماء المرأة الذى فيه البويضة ، ثم جعلكم أزواجًا حيث خلقكم أصنافًا ذكرانًا وإناثًا ، بقدر معلوم ، قال تعالى : وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ . (الليل : ٣ ، ٤) .

وقال سبحانه : وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) .

فتجد الإنسان والحيوان والنبات أزواجًا ، ليتم التناسل وتعمر الأرض ، وتستمر الحياة إلى يوم القيامة .

قال تعالى : وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا . (النبأ : ٨) .

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ...

أى : لا تحمل أنثى بعد الزواج ، ثم تضع مولودًا كامل الخلقة إلا بعلم الله ، أو تضع سقطًا قبل استكمال ولادته إلا بعلم الله ، ونظير ذلك قوله تعالى : ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ . (الرعد : ٨ ، ٩) .

فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا .

وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ .

أى : لا يُعطى إنسان عمرًا طويلاً ، حتى يصبح معمرا طويل العمر ، إلا قد سجل ذلك فى علم الله ، أو اللوح المحفوظ ، أو صحف الملائكة ، ولا ينقص من عمر غيره ، بأن يُعطى عمرًا ناقصًا عن هذا المعمر ، إلا كان ذلك ثابتًا فى كتاب ، أى سجل فى اللوح المحفوظ ، إن ذلك سهل هين يسير ، وكذلك البعث والنشور .

وفى معنى الآية قوله تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . (الحديد : ٢٢) .

أى : قبل أن نخلق النفس ، وهى لا تزال جنينا فى بطن الأم ، كتبنا العمر والرزق ، والشقاء أو السعادة .

كما ورد فى الحديث النبوى الشريف ، أن رسول ﷺ قال : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين يومًا علقة ، ثم أربعين يومًا مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يقول الله للملك : اكتب ، قال : أى رب ، وما أكتب ؟ قال : اكتب أجله ورزقه وشقى أو سعيد»[٧٩] .

قال ابن كثير :

وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ...

أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ ، ويؤيده ما رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، أن رسول الله ﷺ قال : «من سره أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره فليصل رحمه»[٨٠] .

وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة ، يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر» .

★ ★ ★

من آيات القدرة الإلهية

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

عـــــذب : حلو لذيذ طعمه .

فـــــرات : كاسر للعطش مزيل له .

سـائـغ : سهل انحداره لخلوّه مما تعافه النفس .

ملح أجاج : مالح شديد الملوحة يحرق بملوحته .

حلية : كاللؤلؤ والمرجان .

مواخر : شاقات للماء حين جريانها .

يولج : يدخل .

سخر الشمس والقمر : ذللهما وأجراهما خاضعين لمشيئته .

قطمير : لفافة النواة ، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين التمرة والنواة .

يكفرون بشرككم : يجحدون بإشراككم إياهم ، وعبادتكم لهم .

ولا ينبئك مثل خبير : ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

التفسير :

١٢ - وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

هذا لون جديد من ألوان النعم التى أنعم الله بها على عباده ، فالماء العذب الفرات يشربه الإنسان ، فيروى ظمأه ، ويقطع عطشه ، ويسعد نفسه ، ويمدّه بالطاقة والعافية ، وماء البحار مِلْحٌ . أى : مالح شديد الملوحة ، لاذع لا يستساغ تناوله ، فالأول نافع فى الرى وإطفاء العطش ، والآخر غير نافع فى ذلك ، فإن ماء البحار المالح يزيد العطشان عطشًا .

قال بعض المفسرين : لعل فى ذلك إشارة إلى أن المؤمن لا يستوى مع الكافر ، كما لا يستوى الماء العذب بالماء المالح ، ومع التباين فى بعض الأمور ومنها الشرب ، فإن البحر والنهر يشتركان فى استخراج السمك من كل منهما ، واستخراج الحلية أيضًا مثل اللؤلؤ والمرجان .

وقد أثبت العلم وجود الحلية فى الماء العذب ، كما أثبته الواقع ، ففى المياه العذبة بانجلترا واسكتلندا وويلز ، وتشيكوسلوفاكيا واليابان ، وغيرها ، توجد أنواع من أصداف اللؤلؤ ، من الماس والياقوت ، كما جاء فى التفسير المنتخب للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

وفى هذا دليل على أن الحلية تستخرج من البحر ومن النهر ، كما قال تعالى : يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ . (الرحمن : ٢٢) .

ثم يلفت القرآن النظر إلى السفن التى تمخر عباب البحر ، وتنقل التجارة والثمار والملبوسات والمصنوعات وغيرها من بلد إلى آخر فقال :

وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

وترى الفلك على اختلاف أحجامها تشق الماء وهى تجرى بكم فيه ، لتطلبوا من فضل الله ورزقه ، منتقلين فيها من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ولعلكم بهذا تعرفون فضل الله عليكم ، وعظيم نعمائه فتحمدوه وتشكروه وتطيعوه .

وأذكر بهذه المناسبة منظر قناة السويس ، والسفن فيها متعددة الأحجام والأشكال والألوان ، تنتقل وراء بعضها ، تابعة للعديد من الجنسيات ، تنقل البضائع والسلاح والتقنية وسائر الأشياء ، وتتزود فى الطريق بالوقود ، وتشترى وتبيع ، ويستفيد الجميع من هذه الحركة ، ولعلهم يشكرون الله العلى الكبير .

١٣ - يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ .

إيلاج الليل فى النهار ، أى إدخاله فيه عند الغروب ، حيث يتلاشى الضياء شيئًا فشيئًا ، ويعم دبيب الظلام ، ويستولى على الكون كأنما الليل يدخل فى النهار فيطمس الضوء ، ومثل ذلك إيلاج النهار فى الليل ، عندما يسطع الفجر الصادق ، ويظهر الضوء فى الأفق ، ويستمر الضياء فى الظهور شيئًا فشيئًا ، حتى تطلع الشمس ، فكأنما النهار قد دخل فى الليل وأخذ مكانه .

قال تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ . (المدثر : ٣٣ - ٣٥) .

فهما حالتان تستوليان على القلب بحركة الظلام عند المساء ، وحركة الضياء عند الصباح ، فالفترة من المغرب إلى العشاء قرابة ساعة ونصف ساعة ، تقابلها الفترة من الفجر إلى طلوع الشمس ، كل منهما نهار يختلط بظلام الليل ، أو ظلام يختلط بضوء النهار ، وكل منهما فترة تمهيدية لما يأتى بعدها ، فلا هى ضوء خالص ، ولا هى ظلام خالص .

قال تعالى : فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . (الروم : ١٧) .

وقال عز شأنه : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ . (طه : ١٣٠) .

والقرآن يلفت النظر إلى هذه المشاهد الكونية قبل الغروب ، وعند هجوم المساء ، وقبل الشروق ، وعند إقبال الصباح ، باعتبار أن ذلك آية تدل على عظمة الخالق ، فيقول المؤمن فى الصباح والمساء ، سبحان الله رب العالمين .

ويشمل إيلاج الليل فى النهار ، طول الليل فى الشتاء حتى يصل إلى أربع عشرة ساعة ، كأنما الليل دخل فى جزء من النهار واحتله ، كما يشمل إيلاج النهار فى الليل ، طول النهار فى الصيف حتى يصل إلى أربع عشرة ساعة ، وقصر الليل فى الصيف حتى يصل إلى عشر ساعات ، كأنما النهار دخل فى جزء من الليل زائدا عن اختصاصه ، والتعبير القرآنى يشملهما معًا ، ويطوف بالقلب البشرى ليتحرك ، ويرى يد القدرة تحرك الليل وتمدّه فى الشتاء ، وتحرك النهار وتمدّه فى الصيف ، أو يشاهد تعاقب الليل والنهار ، فى نظام دقيق مطرد ، لا يتخلف مرة ولا يضطرب ، ولا يختل يومًا أو عامًا على توالى القرون .

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ...

ذلل الله الشمس تجرى أمام أعيننا نهارًا ، فى حركة دائبة لا تفتر من الشروق إلى الغروب ، فى كل يوم وفى فصول السنة الأربعة ، لا تتخلف يومًا عن الظهور ، ولا تتقدم ولا تتأخر ، وكذلك القمر يظهر فى بداية كل شهر دقيقًا رفيعًا ، ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يصبح بدرًا كاملاً فى منتصف الشهر ، خلال الليالى البيض : ١٣ ، ١٤، ١٥ من الشهر العربى ، وتسمى الليالى البيض لشدة ضوء القمر فيها ، ويسنّ صيام نهارها شكرًا لله القادر ، ثم يميل البدر إلى التناقص شيئًا فشيئًا ، حتى يصبح رفيعًا كقوس صغير نراه على حرف الجريدة من النخل ، بعد أن تقطع من النخلة أو (القحف) الذى يدق ويستقوس ، ويصبح طرفه فى هيئة الهلال الصغير .

قال تعالى : وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٣٨ – ٤٠) .

فكل من الشمس والقمر يجرى فى فلكه ، ويرسل نوره لأجل سمّاه الله ، وهو يوم القيامة ، أو هو مدة الدورة فى كليهما ، فدورة القمر تستغرق شهرًا قمريًا ، ودورة الشمس تستغرق سنة شمسية ، ثم يعود كل منهما لابتداء دورة جديدة .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ...

ذلكم هو الله الخالق البارئ المهيمن المقتدر ، الذى بيده ملك هذا الكون ، وحفظ توازنه ونظامه .

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ .

والأصنام والأوثان ، أوالجن والملائكة ، أو عيسى والعزير ، أو غيرهم من الآلهة المدّعاة ، لا يملكون قشرة نواة ، أى لا يملكون أىّ شىء فى هذا الكون ، فمالكه هو الله وحده سبحانه وتعالى .

١٤ - إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ .

إن هذه الأوثان والأصنام وغيرها إذا طلبتم منها شيئًا لا تسمع نداءكم ، وعلى فرض أنهم سمعوا ، كالجن والملائكة وعيسى والعزير ، فلن يستجيبوا لكم بشىء ، لأن الجميع سيتبرأ ممن عبده يوم القيامة .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ...

وفى يوم القيامة يتبرأ عيسى ممن عبده ، وكذلك كل إله مدَّعى ، فكل من الأصنام والأوثان ، والكواكب والشجر ، والإنسان والحيوان ، حتى الشيطان يتبرأ ممن عبده واتبعه ، يحدث بذلك الخبير بكل شىء ، وبكل أمر ، وبالدنيا والآخرة .

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ .

ولا يخبرك عن عاقبة الأمور فى الدنيا والآخرة مثل الله العليم بكل شىء ، وهذه الفقرة صارت مثلاً ، فإذا نجح أستاذ متخصص فى عرض موضوع ، فلك أن تعقب عليه قائلاً : وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

المفردات :

الفقراء إلى الله : المحتاجون إليه .

الغنى : المستغنى عنكم أيها الناس ، وعن سائر خلقه .

الحميد : المحمود بأفعاله وأقواله وحسن تدبيره ، أو كل الخلائق تحمده بكل لسان .

ويأت بخلق جديد : بأن يفنيكم ، ويستبدل بكم غيركم .

بعزيز : بصعب أو ممتنع ، بل هو سهل .

ولا تزر : ولا تحمل .

الوزر : الإثم والثقل ، أى : لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى ، بل كل وازرة تحمل وزرها وحدها .

مثقلة : نفس أثقلها الإثم حتى لم تقدر على الحركة .

لا يحمل منه شىء : لا تجد من يستجيب لها ، ويحمل عنها بعض ذنبها ، حتى لو دعت ابنها أو أباها أو أمها ، فضلاً عن غيرهم .

بالغيب : لأنهم لم يروه بأعينهم .

ومن تزكى : طهر نفسه من الشرك والمعاصى .

فإنما يتزكى لنفسه : فإن ثمرة صلاحه تعود إليه .

المصير : المرجع والمآب .

التفسير :

١٥ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

نداء إلهى علوى ، يبصر الإنسان بحقيقة افتقاره إلى الله الذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، وأنزل له الكتب ، وأرسل إليه الرسل ، وهداه النجدين ، وبين له الطريقين ، ثم هو سبحانه لم يغلق بابه فى وجه هذا الإنسان ، بل فتح له باب التوبة على مصراعيه ، يسمع النداء ، ويجيب الدعاء ، ويرشد المسترشدين ، ويهدى الضالين ، ويأخذ بيد التائبين ، فما أعز جنابه ، وما أغناه عن عباده ، وهو سبحانه المحمود على عطاياه ، الرؤوف الرحيم بالخلق أجمعين ، يتفضل بالنعم ، ويعطى الجميع قبل أن يسألوه ، فما أكثر نعماءه ، وما أجل ثناءه ، وصدق الله العظيم حيث يقول .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ . (إبراهيم : ٣٢ - ٣٤) .

كم من شدة فرجها ، وكم من ظلمة بددها ، وكم من عسر يسره ، وكم من ذليل أعزه ، وكم من عزيز أذله ، وكم من غنى أفقره ، وكم من فقير أغناه ، وكم من ضال هداه ، وكم من مستجير أجاره ، وكم من مضطر أجابه ، وكم من بائس يائس أجابه وأكرمه ، فله الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الثناء الحسن الجميل ، وقد كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يقول : «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لا إله إلا أنت ، وعدك حق ، والجنة حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق»[٨١] .

اللهم ربنا لك الحمد ، أنت الغنى ونحن الفقراء إليك ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

١٦ - إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

تهديد ووعيد للعصاة ، بأنَّه لو أراد الله لأهلكهم ، كما أهلك الأمم السابقة ، من عاد وثمود وأصحاب مدين وفرعون وملئه ، وأتى بخلق جديد ، يكون أطوع لله من العصاة المهلكين .

١٧ - وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ .

وما ذلك بصعب عليه ولا بعسير ، بل هو سهل يسير ، فهو سبحانه على كل شىء قدير : **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** . (يس : ٨٢) .

١٨ - وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ .

روى أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد وعلىّ وزركم ، فنزلت هذه الآية ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذه الآية من مفاخر الإسلام ، لتحقيق مبدأ المسئولية الشخصية فى الدنيا والآخرة ، فلا يسأل إنسان عن جريمة غيره ، ولا يتحمل امرؤ عقوبة جانٍ آخر .

ومعنى الآية :

ولا تحمل نفس مثقلة بالذنوب ذنب نفس أخرى ، **كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** . (الطور : ٢١) .

فعدالة الله تأبى أن يعذّب إنسان بذنوب آخر ، وفى القرآن الكريم على لسان يوسف الصدّيق : **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ** . (يوسف : ٧٩) .

وفى يوم القيامة يعظم الهول ، ويتشوف كل إنسان إلى النجاة بنفسه من هذا اليوم العصيب ، حتى يذهل الإنسان عن أقاربه ، وعن فلذة كبده ، ويفرّ من أقرب الناس إليه ، لشدة انشغاله بالنجاة من النار .

وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ...

وإن طلبت نفس مثقلة بالأوزار والذنوب مساعدة من نفس أخرى ، لتحمل عنها أى ذنب من ذنوبها ، لم تلق أى استجابة ، ولم تجد من يحمل عنها بعض ذنوبها ، ولو كانت قريبة لها فى النسب ، كالأب والابن والزوجة ،لأن كل إنسان مشغول بنفسه وحاله ، وله من الهموم ما يغنيه .

قال تعالى : **يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** . (عبس : ٣٤ – ٣٧) .

وقال تعالى : **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْـًٔا** ... (لقمان : ٣٣) .

روى عن عكرمة :

إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بُنَىّ ، أى والد كنت لك ؟ فيثنى خيرًا ، فيقول : يا بُنَىّ ، إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ، أو يا هذه ، أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرًا ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة ، تهبينها لى ، لعلى أنجو بها مما ترين ، فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئًا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فذلك قوله تعالى : **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ...**

وقال الفضيل بن عياض :

هى المرأة تلقى ولدها فتقول : ياولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ؟ ألم يكن ثديى لك سقاء ؟ ألم يكن حجرى لك وطاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : يا بنى ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عنّى منها ذنبًا واحدًا ، فيقول : إليك عنى يا أماه ، فإنى بذنبى عنك مشغول .

إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...

أى : إنما يتعظ بما جئت به أيها الرسول أولو البصيرة والعقل ، الذين يخشون الله فى خلواتهم ، أو يخافون من عذاب ربهم قبل معاينته ، وقد حافظوا على إقامة الصلاة فى أوقاتها كاملة الأركان ، فى خشوع وخضوع ومناجاة لله رب العالمين .

وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ...

ومن تطهر من الذنوب والمعاصى ، وأطاع الله بصنوف الطاعات ، واستجاب لدعوة الرسول الأمين ولوحْى الله رب العالمين ، فإنما يتطهر لنفسه ، وفائدة الطهارة والسمو الروحى ، والسلوك الأمثل ، يعود نفعها على فاعلها .

قال ابن كثير : ومن عمل صالحًا فإنما يعود على نفسه .

وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ .

أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

★ ★ ★

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

المفردات :

الأعمى والبصير : مثل للكافر والمؤمن .

ولا الظلمات ولا النور : مثل للباطل والحق .

ولا الظل ولا الحرور : مثل للثواب والعقاب ، والحرور : الريح الحارة كالسموم ، إلا أن السموم تكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار .

الأحياء ولا الأموات : شبه المؤمنين بالأحياء ، وشبه الكافرين بالأموات .

يسمع من يشاء : هدايته .

من فى القبور : الكفار ، شبههم بالموتى الذين لا يجيبون .

نذير : منذر مخوّف وهو النبى ، أى : ما أنت إلا منذر من العذاب ، أما الإسماع فبيد الله وحده .

أمــــــــــة : جماعة كثيرة أو أهل عصر .

الـبـيـنـات : المعجزات الدالة على صدقهم فيما يدّعون .

وبـالـزبـر : الكتب المكتوبة ، كصحف إبراهيم ، جمع زبور ، أى : كتاب .

فكيف كان نكير : فكيف كان إنكارى عليهم بالعقوبة والإهلاك .

تمهيد :

نوّع القرآن الكريم فى أساليب الهداية والدعوة ، ومن ذلك بيان أنواع الناس أمام هداية القرآن الكريم ، فمنهم الأعمى عن الهدى والبصير به ، ومن يعيش فى ظلمات الكفر ، ومن يعيش فى نور الإيمان ، ولا يستويان فى الدنيا ، كذلك لا يستوى الثواب المريح كالظل ، والعقوبة المؤلمة كالحرور ، لكن الرسول مبلغ ومنذر وليس بهاد ، إنما الهدى والضلال بيد الله وحده ، وهذه المهمة يشترك فيها الرُّسل الذين أرسلهم الله إلى الأمم السابقة ، وأنزل معهم المعجزات والصحف ، والكتاب المشتمل على الشرائع والأحكام كالتوراة .

التفسير :

١٩ - وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ .

لا يستوى الأعمى الفاقد للبصر مع المبصر الذى يرى الطريق ، ويهتدى إلى الصراط السليم ، وكذلك لا يستوى الكافر الذى عمى عن الحق مع المؤمن الذى هداه الله للإيمان ، واستمرت الأمثلة للتأكيد والتوضيح فيما يأتى .

٢٠ ، ٢١ - وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ .

ولا تستوى ظلمات الباطل وفنونه مع نور الحق وهدايته ، وجمع الظلمات مع إفراد النور ، لتعدد فنون الباطل مع اتحاد سبل الحق .

٢٢ - وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ .

لا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والمشاعر ، والكافرون أموات القلوب والحواس .

قال تعالى : مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ... (هود : ٢٤) .

وقال سبحانه : أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ... (الأنعام : ١٢٢) .

قال قتادة : هذه كلها أمثال ، أى : كما لا تستوى هذه الأشياء ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن .

إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ .

إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ، وكما أنك لا تسمع الأموات الذين توسدوا القبور ، كذلك لا تسمع من مات قلبه من هؤلاء المشركين .

٢٣ - إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ .

ما أنت إلا رسول منذر عذاب الله لمن كفر ، ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، أما الهدى والضلال فهما بيد الله وحده ، وهو الحكيم فى أفعاله ، العليم بعباده .

٢٤ - إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ .

إن الله هو الذى أرسلك بالحق والصدق ، فالمرسِل محق ، والمرسَل محق ، والرسالة بالحق والصدق ، والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، مشتملة على الشرائع والأحكام والآداب ، والعبادات والمعاملات ، لإرشاد الناس فى الدنيا ، وإسعادهم فى الآخرة .

وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ .

ما من جماعة كبيرة من الأمم ، إلا أرسل الله لها من بينهم من يرشدهم ، وينذرهم عذاب الله .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

وقال عز شأنه : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

وقال تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً . (الإسراء : ١٥) .

وقال سبحانه : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ... (النحل : ٣٦) .

٢٥ - وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ .

إذا كذبك كفار مكة والطائف وأشباههم ، فلا تأس ولا تحزن ، فقد أرسلنا قبلك رسلا إلى قومهم ، فقابلوهم بالتكذيب والعناد ، مع أن هؤلاء الرسل حملوا إلى قومهم النصائح والشرائع والمعجزات البينة ، والزُّبر وهى الصحف ، كصحف إبراهيم وموسى ، وزبور داود ، وصحف شيث ، ومن الرسل من حمل إلى قومه كتابًا مشتملاً على الشرائع ، والحدود والقصاص والآداب ، والعبادات والمعاملات مثل التوراة - على إرادة التفصيل - يعنى أن بعض الرسل جاء بالبينات لقوم ، وبعضهم جاء بالزبر لآخرين ، وبعضهم جاء بالكتاب المنير لغيرهم ، لا على معنى إرادة الجمع ، وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر .

٢٦ - ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .

لقد أرسلنا رسُلَنا بالبيِّنات ، وألوان الهدايات ، لكن الكافرين عاندوا وكذَّبوا رسلهم ،وكفروا بالله ورسله ، رغم وضوح الأدلة وصدق المعجزات والكتب السماوية ، ثم أخذت الكافرين أخذ عزيز مقتدر ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، فكيف رأيت إنكارى عليهم شديدًا بليغًا ؟ لقد استأصلهم فلم يبق منهم باقية ، وفى الآية تهديد ووعيد لمشركى مكة ، أى : كما أهلكت السابقين ، فإنى قادر على إهلاك اللاحقين : سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً . (الفتح : ٢٣) .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾

المفردات :

ألوانها : من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

جـــدد : الجدد :الطرائق المختلفة فى ألوان الجبال ، جمع جُدَّة ، بضم الجيم : وهى الطريقة .

الغرابيب : واحدها : غربيب ، وهو شديد السواد ، يقال : أسود غربيب ، وأبيض يقق ، وأصفر فاقع ، وأحمر قان ، وفى الحديث : «إن الله يبغض الشيخ الغربيب» ، يعنى : الذى يخضب بالسواد ، وقال امرؤ القيس فى وصف فرسه :

العين طامحة واليد سابحة والرجل لافحة والوجه غربيب

الـــدواب : جمع دابة ، وهي ما دبَّ من الحيوان ، وغلب على ما يركب ، ويقع على المذكر أيضًا .

يــتـلـون : يقرءون ، ويتبعون القراءة العمل ، من قولهم : تلاه ، إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لا نفع فيها .

تــجــارة : معاملة مع الله لنيل الثواب .

تـــبـــور : تكسد ، أو تهلك ، يقال بار الشىء بَوْرا بالفتح : كَسَد ، لأنه إذا تُرك صار غير منتفع به ، فأشبه الهالك من هذا الوجه ، فالمعنيان متقاربان .

تمهيد :

يعرض القرآن هنا بعض المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان ، كألوان النبات والأزهار والثمرات ، وكذلك ألوان الجبال ، كالأسود والأبيض والأحمر وغير ذلك ، ومثله فى الناس والدواب والأنعام ، تحريكًا للقلوب للعظة والاعتبار .

التفسير :

٢٧ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ...﴾

قال أبو حيان : آيات لتقرير وحدانية الله تعالى ، بأدلة سماوية وأرضية . ا هـ .

والمعنى :

ألم تتأمل أيها المشاهد كيف أنزل الله المطر ، فأنبت به من الأرض ألوانًا متعددة ، وثمرات مختلفة الألوان ، متعددة الأصناف من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك .

قال تعالى فى سورة الرعد : ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . (الرعد : ٤) .

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ .

وخلقنا الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حُمر إلى سُود غرابيب ، وفى بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضًا .

٢٨ - وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ...

وخلق الله خلقًا آخر من الناس والدوابِّ والأنعام ، التى هى الإبل والبقر والغنم ، مختلفة الألوان فى الجنس الواحد ، بل وفى النوع الواحد ، وفى الحيوان الواحد ، كاختلاف الثمار والجبال .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ... (الروم : ٢٢) .

والدواب هى كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، وكلمة : كَذَٰلِكَ . هنا تمام الكلام ، أى : كذلك الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان .

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ...

فالعلماء والباحثون ، والعارفون بأسرار الكون وجمال الخلق ، والمتأملون فى ألوان الجبال والناس والحيوان ، هم الذين يخشون الله ، ويدركون جلال قدره ، وعظيم نعمائه وكثير عطائه ، وجليل قدرته ، والمراد بالعلماء هنا : علماء الطبيعة والحياة وأسرار الكون .

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .

أى : هو سبحانه كامل العزة والقدرة ، وكامل المغفرة لأهل طاعته ومعرفته .

وفى بعض الآثار : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق ، وقد ظهرت عليه هذه الخشية حتى عرفت فيه .

خلاصة من ظلال القرآن :

الجمال عنصر مقصود فى هذا الكون ، فالألوان والأصباغ والأشكال عنصر جمالى ، وألوان الزهرة وجمالها يجتذب الفراشة والنحلة ، لتؤدى وظيفة نقل اللقاح إلى الزهور الأخرى . وألوان البشر وأصباغها ، وتفاوت درجات الألوان والأصباغ بين أخوين شقيقين وربما بين توءمين ، تؤدى إلى الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى ، وتؤدى إلى إعمار الكون ، والتناسل والنسب والصهر ، ومثل هذه الرغبة نجدها بين الحيوانات والطيور لحكمة إلهية ..

قال تعالى : وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) .

وقال عز شأن : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . (يس : ٣٦) .

إن العلماء هم الذين يدركون روعة هذا الكون ، وروعة الجمال فى الألوان والأصباغ ، ودرجات التفاوت ونسبتها فى اللون الواحد ، فيؤمنون بالله عز وجل عن معرفة دقيقة وعلم مباشر .

٢٩ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ .

إن الذين يقرءون القرآن الكريم قراءة تدبر وتمعّن وتعلّم واهتداء بما فيه ، وعمل بأوامره ، واجتناب نواهيه ، حال كونهم قد أقاموا الصلاة كاملة الأركان ، مشتملة على الخشوع وحضور القلب ، وقد أدّوا زكاة أموالهم ، وأخرجوا نفقة مناسبة للفقراء والمساكين ، ووجوه الخير فى السر والعلن ، هؤلاء قد أحسنوا التجارة مع الحق سبحانه ، فباعوا قليلاً ، واشتروا كثيرًا ، وأنفقوا فى هذه الحياة الفانية ، وحصدوا ثمار ذلك فى الباقية ، فتجارتهم رابحة ، وجزاؤهم مضاعف .

قال تعالى : وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

٣٠ - لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ .

ليوفيهم ثواب ما عملوا ، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم على بال ، فهو سبحانه صاحب الفضل والمنة ، والمغفرة للذنوب ، وهو الشكور للحسنات ، حيث يضاعفها لفاعليها .

قال قتادة : كان مطرف - رحمه الله - إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القُرّاء .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

من الكتاب : القرآن .

ثم أورثنا الكتاب : أعطيناه بلا تعب ولا مشقة كما يعطى الميراث .

اصطفينا : اخترنا ، واشتقاقه من الصفو وهو الخلوص من شوائب الكدر .

ظالم لنفسه : الظلم تجاوز الحد ، أو من رجحت سيئاته على حسناته .

مقتصد : متوسط ، أو هو من تساوت حسناته مع سيئاته .

سابق بالخيرات : سبق غيره بعمل الخير ، أو هو من رجحت حسناته على سيئاته .

أساور : جمع سوار ، وهى حلية تلبس فى اليد .

أذهب عنا الحزن : أزال الحزن الشامل لأحزان الدنيا والآخرة .

نصب : تعب ومشقة .

لغوب : إعياء وكلال من التعب ، يقال : لغب لغوبًا كمَنَع ، أعيا أشد الإعياء .

التفسير :

٣١ - وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ .

بيان لتشريف الله لهذه الأمة ، وتكريم لرسولها ، وتوثيق للكتاب المنزّل ، وأنه من عند الله ، وتثبيت لفؤاد النبى ﷺ .

والمعنى : والقرآن الكريم الذى أوحيناه إليك بواسطة جبريل هو الحق ، أنزله الله بالحق ، ونزل على رسوله بالحق ، وقد نزل مشتملاً على الحق والصدق ، والهدى والإيمان وشرائع الإسلام .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ...

مؤيدًا لما سبقه من الكتب ، كالزبور والتوراة والإنجيل ، التى أنزلها الله داعية إلى الإيمان ، محرِّضة على التقوى والهداية ، فالقرآن نزل مؤيدًا ومصدِّقًا لما سبقه من الكتب ، حيث اشتدت الحاجة إلى رسول جديد ، وكتاب جديد ، يكون جامعًا لشريعة خالدة ، وصالحًا لهداية الناس .

وفى معنى الآية قوله تعالى : **وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ** ... (الإسراء : ١٠٥) .

وقوله عز شأنه : **نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ** ... (آل عمران : ٣ ، ٤) .

والله تعالى يصطفى لرسالته من يشاء .

قال تعالى : **ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ** ... (الأنعام : ١٢٤) .

وهو الخبير بعباده ، البصير بحاجة الخلق إلى رسول ، الحكيم فى اختيار الرسول .

٣٢ - ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ .

جمهور المفسرين على أن هذه الفئات الثلاث من المؤمنين من هذه الأمة ، وبعضهم فسر الظالم لنفسه بالكافر ، وقد سُئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية ، فقال : كلهم مؤمنون ، وأما الكافرون فصفتهم بعد هذا ، وهو قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ... (فاطر : ٣٦) .

ومعنى الآية مع ما قبلها : الذى أوحيناه إليك من القرآن الكريم هو الحق ، وقد أورثنا هذا الكتاب أصحابك من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم ممن يسير سيرتهم إلى يوم القيامة .

أو المعنى :

اصطفينا أمة محمد ﷺ ، وجعلناها أمة وسطًا ، وزودناها بميراث عظيم هو هذا القرآن الكريم ، المشتمل على العبادات والمعاملات والآداب ، والأخبار عن الأمم السابقة ، والبيان الجميل ، والإعجاز فى عرض أدلة القدرة ، وبيان جمال الكون وإبداع الخلق ، ومظاهر البعث والقيامة .

وقد ورث القرآن طوائف ثلاث : طائفة ظلمت نفسها بارتكاب المعاصى ، أو التقصير فى حق هذا الكتاب ، وطائفة مقتصدة متوسطة ، تعمل بالقرآن حينًا وتهمل حينًا آخر ، وطائفة سبَّاقة للخير بإذن الله وتوفيقه ، فهى حريصة على الكتاب والعمل بما فيه ، والمسابقة إلى تلاوته وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه بإذن ربها وعنايته وهدايته .

روى عن عمر رضى الله عنه قال - وهو على المنبر - : قال رسول الله ﷺ : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناجٍ ، وظالمنا مغفور له»[٨٢] .

وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرة أفراده ، وأن المقتصدين قليل بالنظر إليهم ، والسابقين أقل من القليل ، وقيل : قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله ، وأخَّر السابق لئلا يعجب بعمله ، فتعين توسيط المقتصد .

ونلاحظ أن القرآن الكريم فى سورة الواقعة بدأ بالسابقين ، فقال تعالى :

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ . (الواقعة : ١٣ ، ١٤) .

وثنى بأصحاب اليمين ، وقال عنهم : ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ . (الواقعة : ٣٩ ، ٤٠) .

ثم تكلَّم عن أصحاب الشمال وذكر أنهم فى جهنم .

كما ذكر القرآن الكريم أن السابقين قلة ، حين قال : وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

وقال عز شأنه : وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... (الأنعام : ١١٦) .

ولعل من المناسب أن نقول إن القرآن الكريم يبدأ فى كل حالة بما يناسبها ، ففى سورة البقرة مثلاً بدأ بالمؤمنين ، وثنى بالكافرين ، ثم تحدَّث طويلاً عن المنافقين وعن شياطينهم ، وضرب أمثلة توضح حالهم ، فلكل سياق حكمته وطريقته ومناسبته .

٣٣ - جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ .

أى : يدخل هؤلاء الطوائف الثلاث جنات إقامة : السابقون لسبقهم ومسارعتهم فى الخيرات ، والمقتصدون لترجح حسناتهم أو تعادلها مع سيئاتهم ، والظالمون لأنفسهم لأنهم عملوا معاصى ثم تابوا منها ، أو لم يتوبوا فاستحقوا العذاب فى جهنم ، ثم يدخلون الجنة لإيمانهم وإسلامهم وتوحيدهم لله ، ويحلَّون فى الجنة بأساور من ذهب مرصع باللؤلؤ ، ويكون لباسهم حريرًا خالصًا ، وقد أباحه الله لهم فى الآخرة ، لأنهم امتنعوا عن لبسه فى الدنيا ، استجابة لأمر الله تعالى لهم .

ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»[٨٣] .

وقال : «هى لهم فى الدنيا ، ولكم فى الآخرة»[٨٤] .

وعلى هذا تكون الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، والعلماء أولى الناس بهذه النعمة .

أخرج أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبى الدرداء رضى الله عنه ، وهو بدمشق ، فقال أبو الدرداء : ما أقدمك يا أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم ، قال رضى الله عنه : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا ، سلك الله تعالى به طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السماوات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[٨٥] .

٣٤ - وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

لقد متّعهم الله فى الجنة بألوان من النعيم الحسى والمعنوى ، ذكر النبى ﷺ حُلَىّ أهل الجنة فقال : «مسوَّرون بالذهب والفضة ، مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من درٍّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جرد مرد مكحولون»[٨٦] .

متّعهم الله بما كانوا يشتاقون إليه فى الدنيا ، لتقرَّ أعينهم وتثلج صدورهم ، وأراحهم الله من الدنيا وأحزانها والابتلاء فيها ، كما طمأنهم بعد الحساب والجزاء بدخول الجنة ، فقالوا شاكرين معترفين : الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، الذى أذهب عنا حزن الدنيا ، وأذهب عنا رهبة الحساب والخوف من العقاب ، وغفر لنا برحمته ، وشكر لنا بفضله ، إن ربنا لَغَفُورٌ . يغفر الجنايات وإن كثرت ، شَكُورٌ . بقبول الطاعات وإن قلت .

أخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس أنه قال فى ذلك : غفر لنا العظيم من ذنوبنا ، وشكر القليل من أعمالنا .

٣٥ - ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

الذى أسكننا الجنة وهى دار الإقامة الدائمة من فضله ، وفيها نعيم أبدى سرمدى لقاء عملنا المحدود فى الدنيا ، حيث كنا نتعب وننصب أملاً فى متاع الجنة ، فأدخلنا الله بفضله جنات إقامة دائمة ، لا عمل فيها ولا نصب ، فله سبحانه الفضل والمنة ، والثناء الحسن الجميل ، فقد كافأنا على القليل ، بالنعيم الدائم الأبدى السرمدى .

روى البخارى فى صحيحه ، أن رسول الله ﷺ قال : «لن يُدخل أحدَكم الجنة عملُه» قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنا فلعله أن يزداد فى إحسانه ، وإما مسيئا فلعله أن يتوب»[٨٧] .

جاء فى تفسير ابن كثير :

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء ، والنصب واللغوب كل منهما يستعمل فى التعب ، وكأن المراد بنفى هذا وهذا عنهم ، أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم ، فمن ذلك أنهم كانوا يجهدون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة مستمرة .

قال تعالى : كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ . (الحاقة : ٢٤) .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

المفردات :

لا يُقضى عليهم فيموتوا : لا يحكم عليهم بموت ثان فتحصل لهم الراحة .

يصطرخون : يستغيثون فى النار بصوت عال ، والصراخ : الصوت المرتفع المصحوب بالتعب والمشقة ، ويستعمل كثيرًا فى العويل والاستغاثة ، وأصله : يصترخون ، فأبدلت التاء طاء .

نعمركم : من التعمير بمعنى الإبقاء والإمهال فى الحياة الدنيا ، إلى الوقت الذى كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان .

ما يتذكر فيه : ألم نعطكم من الوقت ، الذى كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار .

من تذكر : متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه .

النذير : الرسول ، أو المشيب ، أو العقل ، أو موت الأقارب ، أو كل أولئك .

ذات الصدور : خفاياها من النزوات والميول .

التفسير :

٣٦ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ .

بعد أن ذكر نعيم أهل الجنة ، وحمدهم لله ، وشكرهم له سبحانه أن أدخلهم الجنة فى راحة وسرور ، ذكر هنا عقاب أهل النار .

والمعنى : أعددنا للذين كفروا بالإسلام ، ورفضوا الإيمان بالله وبرسوله نار جهنم ، عذابها مستمر أبدى سرمدى ، فهم فى عذاب أبدى لا يحيون حياة كريمة ، ولا يموتون فيستريحوا ، ولا يخفف عنهم من

العذاب ، وقد استحق هذا العذاب الشديد كل كافر ، شديد الكفر والجحود ، وقد ورد هذا المعنى فى آيات القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ . (الزخرف : ٧٧) .

وقوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . (الزخرف : ٧٤ ، ٧٥) .

وقوله تعالى : ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ . (الأعلى : ١٣) .

وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون»[٨٨] .

فما أشد شقاء الكفار ، وما أشد عنتهم .

٣٧ - وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ .

تصف الآية ألوان العذاب والهوان والنكال الذى يتعرض له أهل النار ، فهم يصرخون ويستغيثون بصوت مرتفع ، حيث يشتد عويلهم وصراخهم واستغاثتهم يقولون : يا ربنا ، أخرجنا من هذا العذاب الشديد ، وأرجعنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحًا ، نتدارك به الأعمال الكاسدة التى كنا نعملها فى الدنيا .

أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ...

أو لم نعطكم عمرًا طويلاً كافيًا لأن يتعظ ويتذكر فيه من أراد التذكر والاعتبار ، وجاءتكم الرسل أو الشيب أو موت الأقران ، أو وجوب استخدام العقل والفكر واللب ، فى أن وراء هذا الكون البديع إلهًا خالقًا واحدًا بيده الخلق والأمر .

قال ابن كثير :

أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارًا ، لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هـهنا :

فقال زين العابدين : إنه مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعيَّر بطول العمل، وقد نزلت هذه الآية وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة .

وقال وهب بن منبه : عشرين سنة .

وقال الحسن : أربعين سنة .

وقال مجاهد ، عن ابن عباس : ستين سنة . وهذا أصح الآراء .

أخرج الإمام أحمد ، والبخارى ، والنسائى ، وغيرهم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «أعذر الله تعالى إلى امرئ أخّر عمره حتى بلغ ستين سنة»[٨٩] .

فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ .

فذوقوا ونالوا عذاب جهنم ، لأنه معد للظالمين أمثالكم ، وليس لكم ناصر ولا معين ، جزاء ظلمكم وكفركم بالله ورسوله .

٣٨ - إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

إنه سبحانه مطلع على الخفايا والنوايا ، وعلى ما غاب عنكم فى السماوات والأرض ، فاتقوه واحذروا أن يطلع على ما فى ضمائركم من الكيد لرسوله ، وأنكم تريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التى لا تنفعكم شيئًا يوم القيامة .

إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

هو سبحانه مطلع على ما تكنه الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، وسيجازى كل عامل بما عمل .

لقد صمم الكافرون على ما هم فيه من الضلال إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم ، فلن تتغير أحوالهم ، وكان عقابهم فى جهنم جزاءً وفاقًا على عزمهم وتصميمهم ، أنهم لو خلّدوا فى الدنيا أبدًا لما آمنوا بالله ورسوله أبدا .

قال تعالى : وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . (الأنعام : ٢٨) .

★ ★ ★

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

خلائف : جمع خليفة ، وهو مطرد فى فعيلة ، أى : جعلكم خلفًا بعد خلف ، وقرنًا بعد قرن ، ترثون ما بأيديهم من مال وجاه ، والخلف التالى للمتقدم .

مقتا : بغضًا وغضبًا .

خسارا : هلاكًا وضلالاً .

أرأيتم شركاءكم : أخبرونى عن آلهتكم الذين أشركتموهم فى العبادة .

شرك فى السماوات : نصيب فى خلقها .

بينة : حجة ظاهرة .

غرورا : أباطيل تغرّ ، وهى قول الرؤساء للأتباع: إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم إلى الله .

يمسك : يحفظ .

أن تزولا : أن تنهدًا وتضمحلا .

التفسير :

٣٩ - هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا .

جعل الله الناس خلائف يخلف بعضها بعضا ، فأمة تفنى ، وأمة تقوم ، وجيل يفنى ، وجيل يأتى بعده ، وأمة تعتز وتقوى ، وأمة تذل وتهوى ، وبيد الله مقاليد السماوات والأرض ، يغير ولا يتغير ، يحيى

ويميت ، ويعز ويذل ، ويغنى ويفقر ، وهو على كل شىء قدير ، ومن واجب المخلوق الفانى أن يتأمل فيمن فنى قبله ، وفيمن سيأتى بعده ، وأن يتفكر فى الأمم التى بادت كعاد وثمود ،وأن الله قادر على إهلاك الظالمين فى كل وقت وحين ، وأن المسئولية فردية ، والتبعة فردية .

فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ...

فمن جحد الخالق ، وأهمل العقل والتدبر والتأمل ، فسيتحمل تبعة كفره ، وعقاب عمله .

وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا .

أى : إن عاقبة الكفر هى المقت الشديد ، والغضب من جبَّار السماوات ، وإصرار الكافرين على الكفر لا يزيدهم إلا هلاكًا وبوارًا وخسارًا فى الآخرة ، بدخول النار والحرمان من الجنة .

٤٠ - قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا .

هذه الآية مناقشة ومواجهة للمشركين عبّاد الأصنام ، أو لكل مشرك يعبد غير الله من الجن أو الملائكة أو البقر أو غير ذلك .

والمعنى :

أخبرونى عن هؤلاء الشركاء الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة ، هل خلقوا شيئًا فى هذه الأرض ، وهى تشهد كلها بوحدانية الصانع سبحانه ، وأنه ليس له شريك ؟ وهل هذه الأصنام أو الشركاء شاركوا فى خلق السماوات ، وهى بكل ما فيها من عُلوٍّ وأبراج وشموس وأقمار وليل ونهار ، تنطق بأنها صنعة الله الواحد القهار ؟ وهل أنزلنا كتابًا من السماء على هؤلاء الشركاء ، بأنهم آلهة يستحقون العبادة؟ ويتسع المعنى لأن يكون أيضًا كالآتى : هل أنزلنا عليكم يا كفار مكة كتابًا من السماء ، فأنتم منه على بينة ودليل ، بأن الأصنام التى تعبدونها آلهة تستحق العبادة ؟ والاستفهام فى الثلاثة استفهام إنكارى ، جوابه: أن الأصنام لم تشارك فى خلق الأرض ، ولم تشارك فى خلق السماء حتى تستحق العبادة ، ولم ينزل كتاب من السماء يبين ويؤكد أن الأصنام تستحق العبادة ، ولمّا تقرر نفى أنواع الحجج ، أضرب عنهم بذكر ما حملهم على الشرك ، فقال :

بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا .

أى : إن الذى حملهم على الشرك هو تغرير الرؤساء للأتباع ، وقولهم : إن الأصنام ترجى شفاعتها ، والحقيقة أنها لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تشفع ، وقولهم : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... (الزمر : ٣) ما هى إلا أباطيل اقترفوها ، وستلقى هذه الأصنام فى النار مع عبَّادها ، مهينة ذليلة هى ومن عبدها.

قال تعالى : وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر : ١٣ ، ١٤) .

وقال تعالى : ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ . (الصافات : ٢٢ ، ٢٣) .

٤١ – إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

إن القدرة بيد الله ، والعزة لله جميعًا ، وهو وحده الخالق الرازق ، قيُّوم السماوات والأرض ، خلقهما على غير مثال سابق ، وهو سبحانه يمسك نظام الكون ويحفظه ، ويرفع السماء بلا عمد ، ويبسط الأرض ، ويحفظ السماء والأرض من الفناء أو الزوال والتلاشى ، ولئن أشرفتا على الفناء أو الزوال ما أمسكهما من أحد بعد الله كائنًا من كان ، أو بعد زوالهما ، حين تشاء القدرة ذلك ، فتبدل الأرض غير الأرض والسماوات حين تنتهى الحياة ، فتنشق السماء على غلظها ، وتستجيب لخالقها ، وتتمدد الأرض ، ويشتد زلزالها ، وتخرج الأثقال من باطنها ، استجابة لأمر الله .

قال تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

فهو واسع الحلم على العصاة والكفار ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، وهو واسع المغفرة ، يتوب على التائبين ، ويقبل من أناب إليه ، ويمهل العصاة إلى حين .

قال تعالى : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ . (طه : ٨٢) .

جاء فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٩٠] .

★ ★ ★

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات :

جهد أيمانهم : طاقتها وغايتها .

نذير : نبيٌّ يبلغهم ويخوفهم .

أهدى من إحدى الأمم : أهدى من كل واحدة من أمتى اليهود والنصارى ، وغيرهما .

نفورا : إعراضًا وتباعدًا عن الحق .

استكبارا : عتوًا وتعاليًا عن الإيمان .

مكر السيئ : مكر العمل السيىء ، وهو الشرك ، وخداع الضعفاء ، وردّهم عن الإيمان ، والكيد لرسول الله .

ولا يحيق : ولا يحيط .

ينظرون : ينتظرون .

سنة الأولين : سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم .

تبديلا : وضع غير العذاب موضع العذاب .

تحويلا : نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم .

ليعجزه : ليمنعه بالقهر والغلبة ، أو ليسبقه ويفوته.

كسبوا: فعلوا من السيئات .

دابة: حيوان يدبّ على الأرض ، وقيل : المراد الإنس والجنّ .

قال فى ظلال القرآن :

إن نظرة إلى عالم السماوات والأرض ، وإلى هذه الأجرام التى لا تحصى ، منتثرة فى ذلك الفضاء ، الذى لا نعلم له حدوداً ، وكلها قائمة فى مواضعها ، تدور فى أفلاكها ، محافظة على مداراتها ، لا تختل ولا تخرج عنها ، ولا تبطئ أو تسرع فى دورتها ، وكلها لا تقوم على عمد ولا تشد بأحبال ، ولا تستند على شىء من هنا أو هناك ... نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة ، جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفية القاهرة القادرة ، التى تمسك بهذه الخلائق وتحفظها أن تزول .

تمهيد :

بعد أن وصف القرآن يد القدرة ، التى تمسك بخلق السماوات والأرض ، وتحفظهما من الزوال ، أخذ يناقش أهل مكة فى موقفهم ، وصدودهم عن الإيمان ، بعد أن أقسموا بالله جهد أيمانهم إن جاءهم رسول من عند الله فسوف يتبعونه وينصرونه .

التفسير :

٤٢ - وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا .

كانت العرب تسمع عن أعمال اليهود مع أنبيائهم ، حيث كذّبوهم وقتلوا بعضهم ، وحرَّفوا التوراة ، واعتدوا فى السبت ، فأقسموا بالله وبالغوا فى القسم ، واجتهدوا أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم من جهد ، لئن جاءهم رسول كما جاء اليهود والنصارى ، يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده ، ليكونن فى تصديقه واتباعه أهدى من كل أمة من اليهود والنصارى ، ومن أية أمة بلغت من الطاعة والهداية وحسن الاتباع ، أن يقال فيها واحدة الأمم تفضيلاً لها على غيرها ، فلما جاءهم النذير وهو محمد ﷺ ، يدعوهم للإيمان ، ويحذّرهم وينذرهم عذاب الله إن كذبوا ، كفروا به وأعرضوا عنه ، وما زادتهم دعوته وهداياته إلا نفورًا من الإسلام ، وإعراضًا عن نبيه محمد ﷺ .

٤٣ - ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا .

تكمل هذه الآية الآية السابقة ، فعندما جاءهم محمد ﷺ أعرضوا عنه وابتعدوا ، وما زادهم دعاؤه وهدايته إلا نفورًا منه، ومن تفصيل ذلك النفور : تكبرهم واستعلاؤهم بالباطل ، وادعاؤهم أنهم أعلى شأنا

من المؤمنين ، وأن المؤمنين فقراء ضعفاء ، ثم اجتهاد هؤلاء الكفار في الكيد والدسّ ، ومكر العمل السيئ ، حيث عذبوا المؤمنين وضايقوهم ، وحاولوا حبس النبى أو نفيه أو قتله ، ودبروا الكيد ، ودبَّر الله حفظ رسوله ، وحلّ بهم عاقبة مكرهم ، وعلى الباغى تدور الدوائر.

وَلاَ يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ...

ولا يحيط المكر السيئ ، ولا ينزل عقابه إلا بأهله الذين دبّروه وبيتوه ، ومن أمثال العرب : (من حفر لأخيه جُبًّا ، وقع فيه منكبًّا) ، وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر ، حيث قتلوا وأسروا وانهزموا ، ونصر الله المؤمنين عليهم نصرًا عزيزًا .

تلك سنة الله التى لا تتخلف ، أن يمهل الظالمين وأن يحق الحق ، وأن يأخذ الظالمين بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ .

أى : ما ينتظرون إلا سنة الله تعالى فى المكذبين السابقين ، كعاد وثمود حيث أخذهم الله بتعذيب مكذبيهم .

فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً .

تلك قوانين كونية ثابتة ، وضعها الله تبارك وتعالى ، ومنها أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب ، ويمهل الناس ، ويقدّم لهم المعجزات والبيّنات ، ويوضح لهم صدق الدعوة ، وأدلة الإيمان ، فإذا اشتد العنت والتكذيب كانت العاقبة للمتقين ، والعذاب للكافرين ، تلك سنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول ، فلا ينقل العذاب عن المكذبين ، ولايحوله إلى غيرهم ، لأنه عادل حكيم ، فلا يضع الشىء فى غير موضعه .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

٤٤ - أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا .

أعَمىَ هؤلاء الكفار ، فلم يسيروا فى الأرض جهة الشام أو اليمن ، ليعتبروا بما أصاب المكذبين قبلهم ، مثل ثمود وعاد ، وغيرهم من الأمم الظالمة ، التى كذبت أنبياءها ، وعَانَدتْ وجحدت المعجزات

والبينات ، وكانوا فى قوة ومنعة ، وأجساد متينة شديدة ، وعمارات ومصانع ، وأبنية قوية عزيزة ، وقد اشتد عنتهم ، واعتدادهم بقوتهم ، وظنوا أن قدرة الله لا تصل إليهم .

قال تعالى : فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ . (فصلت : ١٥ ، ١٦) .

إن يد القدرة الإلهية التى أهلكت السابقين ، وكانوا أشد قوة من أهل مكة ، قادرة على أن تنزل العذاب بالكافرين المكذبين ، وقدرة الله لا تحدّ ، وما كان الله ليمنعه عن مراده أى شىء ، فى السماوات ولا فى الأرض ، فهو سبحانه فعّال لما يريد : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

وكان سبحانه : عَلِيمًا . لا يغيب عن علمه شىء ، وكان سبحانه : قَدِيرًا . لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

٤٥ - وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا .

هذا هو ختام سورة فاطر ، التى بدأت بحمد الله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة .

وختمت ببيان رحمة الله وحلمه ، فكأن سائلاً سأل من هؤلاء الكفار وقال : لِمَ لَمْ يُعجِّل الله لنا العقوبة ؟ وأين هو العذاب الذى تهددنا به ؟

فكان الجواب هو هذه الآية التى تفيد الآتى : لو عجل الله العقوبة لكل مخطئ فى هذه الأرض لأهلك الناس جميعًا ، ولأصيبت الدوابّ بسبب خطأ ابن آدم ، حين تنزل الصواعق ، أو تجتاح الأرض الأوبئة ، أو الأمراض أو الزلازل أو البراكين، لكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يؤجل عقاب المكذبين .

إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...

هو انتهاء حياتهم ، أو يؤجل عقاب الأمة إلى انتهاء الأجل المحدد لها فى هذه الأرض ، فإذا انتهت الحياة على هذا الكوكب ، وجاء البعث و الحشر والحساب والجزاء ، فإن الله تعالى عالم مطلع ، وشاهد وبصير ، بكلِّ فرد من الأفراد ، وبكل أمة من الأمم ، وبكل جيل من الأجيال ، وهو سبحانه سريع الحساب لا يشغله شأن عن شأن .

وفى معنى الآية قوله تعالى : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ . (القمر : ٤٣ - ٤٦) .

وقوله سبحانه : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود : ١٠٢) .

من تفسير ابن كثير

لقوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ... الآية .

قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذَّبوا الرسل ، كيف دمَّر الله عليهم ، فخلت منهم منازلهم ، وسُلبوا ما كانوا فيه من النعيم ، بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك عنهم شيئًا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لأنه تعالى لا يعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض .

إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا .

أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

تفسير الشيخ عبد الحميد كشك للآية الأخيرة

من سورة فاطر

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ...

على هذا منطق العدل .

وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا

هذا منطق الفضل ، فإن يعاقب فبمحض العدل ، وإن يثب فبمحض الفضل ، إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم .

روى البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[٩١] .

وفى معنى الآية قوله تعالى فى سورة النحل : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (النحل : ٦١) .

فاللهم عاملنا بفضلك وإحسانك ، ولا تعاملنا بميزانك ، وعاملنا بما أنت أهل له ، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة[٩٢] .

★ ★ ★

مجمل ما اشتملت عليه سورة فاطر

١ – الأدلة على قدرة الله بإبداعه للكون وأنّه المنعم المتفضل .

٢ – تذكير الناس بالنعم ليشكروها .

٣ – تثبيت فؤاد الرسول ﷺ بذكر تكذيب السابقين للمرسلين .

٤ – بيان اختلاف ألوان الجبال والناس والدواب والأنعام .

٥ – تقسيم المؤمنين من حيث العمل إلى ثلاثة أقسام .

٦ – جزاء المؤمنين بألوان النعيم فى الجنة ، وجزاء الكافرين بألوان العذاب فى النار .

٧ – مناقشات متعددة للمشركين ، ولفت أنظارهم إلى مظاهر القدرة فى السابق واللاحق .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة فاطر بمدينة بورسعيد
مساء الثلاثاء ٢١ ربيع الآخر ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٣ أغسطس ١٩٩٩ م
والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه كما يرضى ويحب
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .


تفسير سورة يس

أهـداف سـورة يـس

سورة يس مكية ، نزلت فى الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ، أى فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، وآياتها ٨٣ آية ، نزلت بعد سورة الجن .

وللسورة اسمان : سورة يس لافتتاحها بها ، وسورة حبيب النجار لاشتمالها على قصته ، فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ . (يس : ٢٠) .

أن هذا الرجل يسمى «حبيب النجار» .

مقصود السورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة يس : تأكيد أمر القرآن والرسالة ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وضرب المثل بأهل قرية أنطاكية ، فى قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ . (يس : ١٣) .

وذكر قصة حبيب النجار الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وبيان البراهين المختلفة فى إحياء الأرض الميتة ، وإبداء الليل والنهار ، وسير الكواكب ودوران الأفلاك ، وجرى الجوارى المنشآت فى البحار ، وذلة الكفار عند الموت ، وحيرتهم ساعة البعث ، وسعادة المؤمنين المطيعين ، وشغلهم فى الجنة ، وتميز المؤمن من الكافر فى القيامة ، وشهادة الجوارح على أهل المعاصى بمعاصيهم ، والمنة على الرسول ﷺ بصيانته من الشعر ونظمه ، وإقامة البرهان على البعث ، ونفاذ أمر الحق فى كن فيكون ، وكمال ملك ذى الجلال على كل حال[٩٣] فى قوله سبحانه : فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٨٣) .

ملامح السورة

سورة يس لها وقع خاص فى نفوس المسلمين ، يرددون قراءتها فى الصباح والمساء ، وتقرأ على المريض للشفاء ، وعلى المحتضر لتيسير خروج الروح ، وعلى المقابر لتنزل الرحمة على الموتى ، وقد أخرج ابن حبان فى صحيحه مرفوعا : «من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له»[٩٤] .

وتتميز سورة يس بقصر الآيات ، وسهولة القراءة ، وتتابع المشاهد وتنوعها ، من بدء السورة إلى نهايتها .

والموضوعات الرئيسية فى السورة ، هى موضوعات السور المكية ، وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة ، فهى تتعرض لطبيعة الوحى وصدق الرسالة ، وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة ، وتعرض هذه العاقبة فى القصة على طريقة القرآن فى استخدام القصص لتدعيم قضاياه ، وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته فتوضح أن ما يوحى إلى محمد ﷺ ليس شعرا ولكنه ذكر وقرآن مبين .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية ، فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن ، الذى جاء من أقصى المدينة ليعلن إيمانه بالمرسلين ، وهو يقول : وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٢٢) .

والقضية التى يشتد عليها التركيز فى السورة ، هى قضية البعث والنشور ، وهى تتردد فى مواضع كثيرة من السورة ، وتحكى السورة قصة أُبى بن خلف ، حين جاء بعظم قد رمَّ وبلى وصار ترابًا ، ثم ضغط عليه بيديه ، ونفخ فيه فطار فى الفضاء ، ثم قال : يا محمد تزعم أن ربك يبعث هذا بعدما رم وبلى وصار ترابًا ، فقال له النبى ﷺ : «نعم ويبعثك ويدخلك النار» ، قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

والقضايا المتعلقة ببناء العقيدة ، تتكرر فى السور المكية ، ولكنها تعرض كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها .

«وهذه المؤثرات منتزعة فى هذه السورة من مشاهد القيامة – بصفة خاصة – ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها ، ومن مصارع الغابرين على مدار القرون ، ثم من المشاهد الكونية الكثيرة ، المتفرعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام ، ومشهد الشمس تجرى لمستقر لها ، ومشهد القمر يتدرج فى منازله حتى يعود كالعرجون القديم ، ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين ، ومشهد النطفة وتحولها فى النهاية إلى إنسان فإذا هو خصيم مبين ، ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التى يوقدون»[٩٥] .

فصول السورة

يجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة فصول :

١ - رسالة ورسول

يستغرق الفصل الأول من السورة الآيات من (١ - ٢٩) ، ويبدأ بالقسم بالحرفين «يا . سين» وبالقرآن الحكيم على صدق رسالة النبى ﷺ ، وأنه على صراط مستقيم ، ثم يبين أن القرآن منزل من عند الله ، لإنذار العرب الذين لم ينذر آباؤهم من قبل . فوقعوا فيما وقعوا فيه من الغفلة ، وحق العذاب على أكثرهم بسببها ، وقد جرت سنة الله ألا يعذب قوما إلا بعد أن يرسل إليهم من ينذرهم ، ثم وصف حرمانهم من الهداية وإمعانهم فى الغواية ، كأنما وضعت أغلال فى أعناقهم بلغت إلى أذقانهم ، ووضعت سدود بين أيديهم ومن خلفهم فصاروا لا يبصرون ، وبين أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب ، فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى ، وموحيات الإيمان . ثم يوجه النبى ﷺ إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية .

قصة أصحاب القرية :

ضرب الله لأهل مكة مثلا قصة أهل أنطاكية بالشام ، أرسل الله إليهم رسولين ، هما يوحنا وبولس من حواريى عيسى ، فكذبهما أهل القرية ، فأرسل الله ثالثا على درجة من الذكاء فى توجيه الدعوة ، واستمر التكذيب من الكافرين ، وبيان الحجة وأدلة الإيمان من المرسلين . ثم جاء رجل مؤمن يسمى حبيب النجار فدعا قومه إلى الإيمان بالرسل ، فاتهموه بأنه مؤمن ، فأعلن إيمانه فى ظروف حرجة ، وتعرض الرجل للإيذاء والقتل ، فحظى بالشهادة والجنة ، وتمنى لو أن قومه يعلمون منزلته الآن عند الله .

أما القرية الظالمة فقد صاح بها ملك صيحة أهلكتها ، أفلا يعتبر أهل مكة بهذه القرية ، وبالقرون التى هلكت جزاء كفرها ؟ وسيجتمع الجميع أمام الله يوم القيامة ، ويتميز المؤمنون بحسن الثواب ، ويحل بالكافرين سوء العقاب .

٢ - أدلة الإيمان

بعد الحديث فى الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ، والمثل الذى ضربه الله لهم فى قصة أصحاب القرية المكذبين ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بصيحة الملاك فإذا هم خامدون ، تحدثت الآيات من (٣٠ - ٦٨) عن موقف المكذبين بكل ملة ودين ، وعرضت صور البشرية الضالة على مدار القرون ، ثم أخذت فى استعراض الآيات الكونية ، التى يمرون عليها معرضين غافلين ، وهى مبثوثة فى أنفسهم وفيما حولهم .

فالماء الذى يحيى الأرض بأنواع الجنان والنخيل والأعناب ، والليل والنهار والشمس والقمر ، والنبات والإنسان ، وكل ما فى الكون قد أبدع بنظام دقيق ، فللشمس مدارها ، وللقمر مساره ، ولليل وقته ، وللنهار أوانه ، لا يتأخر كوكب عن موعده ، ولا يختل نظام ، ولا تضطرب حركات الكون : وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٤٠) .

ثم تحدثت الآيات عن عناد المشركين ، واستعجالهم بالعذاب غير مصدقين : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . (يس : ٤٨) .

وبمناسبة ذلك يستعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، يرون فيه مصيرهم الذى به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون .

٣ - وحى لا شعر

يشتمل الدرس الثالث على الآيات من ٦٩ إلى آخر السورة ، ويكاد هذا الفصل يلخص موضوعات السورة كلها ، فينفى فى أوله أن ما جاء به محمد ﷺ شعر ، وينفى عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا ، ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المنفردة ، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر ، وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ، ويتناول قضية البعث والنشور ، فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ، ليروا أن إحياء العظام وهى رميم كتلك النشأة ولا غرابة ، ويذكرهم بالشجر الأخضر الذى تكون فيه النار ، وهما فى الظاهر بعيدان ، وبخلق السماوات والأرض وهذا الخلق شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر فى الأولى والآخرة ، وفى ختام السورة نجد برهان القدرة الإلهية والإرادة الربانية ، فالله مالك كل شىء فى الدنيا والآخرة ، وإليه المآب والمرجع ، قال تعالى : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٨٢ ، ٨٣) .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

المفردات :

يس : تقرأ : (يا ، سين) ، بمد السين ، وإظهار النون الساكنة ، أو بإدغام نون السين فى الواو التى بعدها ، والمراد من هذه الحروف المقطعة : الاستفتاح والتنبيه مثل: ألا ويا ، والإشارة إلى أن القرآن مؤلف من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر .

والقرآن الحكيم : الواو للقسم ، يقسم بالقرآن ذى الحكمة .

إنك لمن المرسلين : أقسم : إنك من الأنبياء المرسلين إلى قومهم .

على صراط مستقيم : طريق قويم ، من عقائد صحيحة ، وشرائع حقة .

حق القول : ثبت ووجب الحكم بالعذاب على أكثر أهل مكة .

أغلالا : جمع غلّ ، وهو ما تجمع به اليد إلى العنق للتعذيب .

مقمحون : رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها ، غاضون أبصارهم فى عدم التفاتهم إلى الحق ، وهو تمثيل يراد به أنهم لا يذعنون للإيمان ، ولا يخفضون نفوسهم له .

من بين أيديهم : أمامهم .

فأغشيناهم : فغطينا أبصارهم وأعميناهم .

الذكر : القرآن .

خشى الرحمان : خشى عقابه .

بالغيب : قبل حلوله ، ومعاينة أهواله .

وأجر كريم : هو الجنة .

إنا نحن نحيى الموتى : نبعثهم بعد الموت .

ما قدموا : ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة .

وآثارهم : ما أبقوه من الحسنات التى لا ينقطع نفعها بعد الموت ، كالعلم والكتاب والمسجد والمستشفى والمدرسة ، أو من السيئات كنشر البدع والمظالم ، والأضرار والضلالات بين الناس .

إمام مبين : أصل يؤتم به ، أو اللوح المحفوظ ، أو صحائف الأعمال .

أسباب النزول :

ورد أن الآيات من ١ – ٧ نزلت حين حاول جمع من كفار قريش ، أن يأخذوا النبى ﷺ ليمنعوه من تلاوة القرآن ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمى لا يبصرون ، فلم يستطيعوا إيذاءه ﷺ .

وأن الآية الثامنة : إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلاً ... نزلت فى أبى جهل ، حين قال : لئن رأيت محمدًا لأفعلن به ، فقالوا له : هذا محمد ، فكان يقول : أين هو ، أين هو ؟ لا يبصره .

وورد فى سبب نزول الآية الثانية عشرة : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ ...

أخرج الترمذى وحسّنه ، والحاكم وصححه ، عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة ، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد ، فنزلت هذه الآية ، فقال النبى ﷺ «عليكم منازلكم فإنما تكتب آثاركم»[٩٦] .

التفسير :

١ – يسٓ .

قال ابن عباس : معناها يا إنسان ، والمراد به محمد ﷺ ، كما يشير إليه الخطاب بعده ، فى قوله تعالى : إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

وقيل : إن يسٓ . اسم من أسمائه ﷺ ، فاسمه طه ، واسمه يسٓ ، واسمه محمد وأحمد ، ومزمل ومدثر ، وبشير ونذير ، واسمه العاقب الذى لا نبى بعده ﷺ .

وقيل : إنها حروف للتنبيه يفتتح بها الكلام مثل : ألا ، ويا .

وقيل : إنها حروف للتحدى والإعجاز .

٢ – وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ .

وأقسم بالقرآن الحكيم ، المشتمل على الحكمة ، والحكمة صفة العاقل ، وقد كان القرآن حكيما فى دعوته ورسالته ، وعرض أدلة الله فى هذا الكون ، وحديثه عن قصص السابقين ، وعرضه لشرائع هذا الدين وآدابه ، ووصوله إلى الفكر والقلب والوتر الحساس للإنسان ، فى حديثه عن بدء الخليقة ، وعن تكوين الإنسان ، وعن تصوير الميعاد والحساب والجزاء ، وعن ذلة الأصنام ، وضياع الشركاء المزعومين ، وعن تفرد الله تعالى بالقدرة والعزة ، والملك والملكوت .

٣ – إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

أقسم الحق تعالى بحروف مقطعة ، وأقسم بالقرآن الحكيم ، على أن محمداً ﷺ من جنس المرسلين ، الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده ، لتعليمهم وإرشادهم ، وفى هذا رد على الكافرين الذين كذبوه ، ووصفوه بأنه شاعر أو مجنون .

٤ – عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

أنت على طريق قويم ، واضح سهل ميسر ، وشريعة سهلة سمحة ، لا تعنُّت فيها ولا التواء ، وكتاب واضح فى بيان العقيدة والشريعة ، والحق والباطل ، والحلال والحرام ، وهذا الكتاب ، وهذه الشريعة وهى الإسلام ، بسيطة سهلة ، يفهمها الأمىّ والمتعلم ، وساكن الكوخ وساكن القصر ، ورجل البادية ورجل المدينة ، والقرآن يعطى لكل إنسان ما يناسبه ، والإسلام دين الله المستقيم ، وقد مدح القرآن الاستقامة .

قال سبحانه : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ... (فصلت : ٣٠) .

وفى سورة الفاتحة : ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . (الفاتحة : ٦) .

وقال رجل : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا وأقلل فيه لعلّى أعيه ، فقال له ﷺ «قل آمنت بالله ثم استقم»[٩٧] .

وقال تعالى : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (الأنعام : ١٥٣) .

٥ - تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ .

استئناف لإظهار فخامة القرآن الكريم الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية ، بالقسم به ووصفه بالحكمة ، فهذا القرآن كلام الله ، وهو تنزيل العزيز الغالب ، الرحيم بعباده ، ولهذا ففية عزة المؤمنين ، وقوتهم وتماسكهم ، وهم به خير أمة أخرجت للناس ، وهم بالقرآن والتمسك به أهل لرحمة الرحيم .

٦ - لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ .

أنزل عليك القرآن لتنذر به أمة العرب ، الذين بَعُد عهدهم بالرسالة ، فقد أرسل إسماعيل منذ فترة بعيدة ، وبعد عهد العرب بالرسالة والرسل ، لذلك ساد بينهم الجهل ، والغفلة عن الإيمان وأسبابه ، لأنهم لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ ، فكثرت فيهم الغفلة ، وتجاهل قوانين الله وأحكامه ، وآياته فى خلق الكون ، وإرسال الرسل ، فكان محمد ﷺ بشيرًا للمؤمنين ونذيرا للكافرين .

٧ - لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

لقد حق قضاء الله فيهم ، حين قال : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة : ١٣) .

لقد حق عليهم عدم الإيمان ، بسبب تعنتهم وكفرهم ، وإصرارهم على الضلال والغواية ، فسلب الله عنهم الهدى ، وتركهم فى غوايتهم .

٨ - إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ .

قمح البعير : إذا أصابه داء يفرض عليه أن يظل رأسه مرفوعاً ، فالكفار أعرضوا عن الحق واستكبروا ، وأصرّوا على الكفر ، كأنّ فى أعناقهم طوقًا من الحديد ، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن ، فلا يمكن أحدهم من أن يطأطئ رأسه فلا يزال مقمحا ، رأسه مرفوع إلى أعلى ، ونظره منخفض إلى أسفل ، والمراد أنهم

بتكبرهم وتجبرهم ، كأنهم ممنوعون عن اتباع الحق ، مصوَّرون بصورة إنسان لا يكاد يرى الحق أو يلتفت إلى جهته ، أو يحنى له رأسه .

٩ - وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ .

لقد عاشوا فى ظلام النفس ، وظلام الكفر ، وظلام الإعراض عن الحق ، كأن سدًا عظيمًا أمامهم ، يحجب رؤيتهم ، وكأن سدًا عظيمًا خلفهم ، وغطينا أبصارهم فهم لا يقدرون على إبصار شىء أصلا ، لا من أمامهم ولا من خلفهم .

وقيل : إن الآيتين نزلتا فى بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدًا ﷺ يصلِّى ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلِّى ، ومعه حجر ليدمغه ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، حتى فكّوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، لكنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالأولى أن تظل الآية عامة ، لتشمل كل معرض عن الحق، ولا مانع أن يكون أبو جهل ضمن من اشتملت عليهم من المشركين ، الذين حق القول على أكثرهم .

١٠ - وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

لكون إعراضهم عن الحق إعراضًا قويًا أصيلاً ، فقد استكبروا فى أنفسهم ، وعتوا عتوا كبيرًا ، كأنما وضع سدٌّ أمامهم ، وسدٌّ خلفهم ، واشتد العمى فى أبصارهم ، فلا يرون الحق ولا يهتدون إليه ، ونتيجة لذلك أن إنذارك إياهم أوعدم إنذارك سواء عندهم ، فإذا أنذرتهم لا يؤمنون ، وإذا لم تنذرهم لا يؤمنون ، فلا تأس على كفرهم ، ولا تتعذب بإعراضهم ، فلا فائدة ترجى منهم ، فقد ماتت قلوبهم ، وعميت بصائرهم ، وكلّت عقولهم عن رؤية الحق ، أو البحث عن الهداية ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . (البقرة : ٦ ، ٧) .

١١ - إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .

إنما ينفع الإنذار وتفيد الدعوة إلى الإسلام القلوب الصالحة ، التى اتبعت القرآن وهدايته ، وأدامت فيه الفكر والنظر ، وتأملت فى معانيه ، ولم تصرّ على اتباع الشيطان ، بل راقبت ربَّها فى السرّ والعلن ، وخشيته فى الخلوة والجلوة ، فمن كان هذا حاله ، وذاك سلوكه فهو حرىٌّ بأن تبشره بمغفرة واسعة ، وأجر عظيم ، لا يقدر قدره .

قال تعالى : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ . (طه : ٨٢) .

١٢ - إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ .

إنا قادرون على إحياء الموتى ، وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء ، وقد سجلنا لجميع الموتى مؤمنين أو كافرين ما قدموه وأسلفوه من عمل صالح أو سيئ ، وما تركوه من أثر صالح أو خبيث ، فنجزيهم على كل عمل قدموه فى حياتهم ، أو تركوا أثره بعد وفاتهم ، نجازيهم بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، وقد ضبطنا كل شىء وأحصيناه فى سجل مضبوط .

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث ، ويقولون : ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، والسورة مكية تواجه كفار مكة ، وتخبرهم أن البعث حق ، وأن الجزاء من جنس العمل ، والله سيحصى على كل إنسان ما قدمه وما أخره ، ما قدمه من عمل صالح كالصلاة والزكاة والصدقة ، وما أخره وما خلّفه بعد موته من وصية نافعة أو بناء ملجأ أو مدرسة أو مستشفى ، أو كتاب علم أو تفسير قرآن ، أو علم تطبيقى يفيد الأمة ، ويأخذ بيدها إلى التقدم والقوة ، كل ذلك يسجله الله ويحاسب عليه ، كما يسجل على الكافرين والفاسقين والعابثين ما قدموا من ضلالات ورذائل ، وما أخروا من عمل على نشر الرذيلة والسوء ، فى الملاهى أو الكتب الخليعة ، أو الأفكار الضالة .

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ .

وكل عمل كائنًا ما كان قليلاً أو كبيرًا ، عظيمًا أو صغيرًا، نافعًا أو ضارًا ، بيَّناه وحفظناه فى إمام مبين ، وأصل عظيم الشأن ، مظهرًا لما كان وما سيكون ، وهو اللوح المحفوظ الذى يؤتم به ويقتدى ويتبع ولا يخالف .

قال تعالى : وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . (الإسراء : ١٣ ، ١٤) .

وقال عز شأنه : عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى . (طه : ٥٢) .

وقال سبحانه : وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ . (القمر : ٥٢ ، ٥٣) .

وقال سبحانه : إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٩) .

وقال تعالى : أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

وذهب بعض المفسرين إلى أنه يمكن تفسير هذه الآية بأن الله تعالى يحيى قلوب الكافرين ، ويهديهم إلى الإيمان ، كما صنع يوم فتح مكة ، حين دخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وحين اتسع صدر الإسلام ، فعفا عن كفار مكة ، وتحوّل كفّار الأمس ، إلى مؤمنين مجاهدين يفتحون فارس والروم ، ومصر وشمال أفريقيا ، حتى دانت ثلاثة أرباع المعمورة بالإسلام ، خلال مائة عام من الرسالة المحمدية ، ونطق باللغة العربية كثيرون ممن دخلوا فى الإسلام ، وكانت الثقافة الإسلامية ، واللغة العربية والقرآن الكريم وعلومه التى نشأت حوله ، موردًا صافيًا ، للأمم التى دخلت فى الإسلام ، وساعد على ذلك أن الإسلام رسالة عامة للعرب والعجم ، والإنس والجن ، والناس أجمعين .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

من تفسير ابن كثير

إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ...

أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار ، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب : ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . (الحديد : ١٧) .

وقوله تعالى : وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ... أى : من الأعمال .

وفى قوله تعالى : وَءَاثَـٰرَهُمْ . قولان ، أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثّروها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك أيضًا ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

وهذا كقوله ﷺ فيما أخرجه مسلم ، عن جرير بن عبد الله البجلى : «من سن فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن يُنقص من أوزارهم شيئًا»[٩٨] .

وهكذا الحديث الآخر الذى أخرجه مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده»[٩٩] .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ . ما أورثوا من الضلالة .

وقال سعيد بن جبير : وَءَاثَـٰرَهُمْ . يعنى : ما أثروا .

يقول : ما سنّوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم ، وهذا القول هو اختيار البغوى .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال مجاهد : مَا قَدَّمُواْ . أعمالهم وَءَاثَـٰرَهُمْ . قال : خطاهم بأرجلهم .

وقال قتادة : لو كان الله عز وجل مغفلا شيئًا من شأنك يا ابن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره ، وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر ، فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله تعالى فليفعل .

وقد وردت فى هذا المعنى أحاديث : منها ما أخرجه الإمام أحمد ، والإمام مسلم ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : «إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا : نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك فقال ﷺ : «يا بنى سلمة : دياركم تُكتب آثاركم ، دياركم تُكْتب آثاركم»(١٠٠) .

أى : الزموا دياركم حتى تكتب آثار خطواتكم إلى المسجد .

وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ .

أى : وجميع الكائنات مكتوبة فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ .

إِمَامٍ مُّبِينٍ . ههنا هو أم الكتاب : قاله مجاهد وقتادة ، وكذا فى قوله تعالى : يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ . (الإسراء : ٧١) .

أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر ، كما قال عز وجل : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ... (الزمر : ٦٩) .

وقال تعالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩)(١٠١) .

★ ★ ★

قصة أصحاب القرية

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات:

واضرب لهم مثلا: اذكر لهم قصة عجيبة، قصة أصحاب القرية، وضرْبُ المثل يستعمل تارة فى تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها ، مثل : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ... الآية ، (التحريم : ١١) . وتارة أخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بنظيرة لها ، مثل قوله تعالى: وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ . (إبراهيم: ٤٥) . أى : وبينا لكم أحوالا غاية فى الغرابة كالأمثال .

القرية: قال القرطبى: هذه القرية هى أنطاكية، فى قول جميع المفسرين (وهى قرية ببلاد الشام شمالى سوريا).

المرسلون: هم أصحاب عيسى ، أرسلهم مقررين لشريعته.

ويرى أ. عبد الكريم الخطيب أن المرسلين هم : موسى ، وهارون، والثالث هو مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وقيل : هم رسل أرسلهم الله إلى القرية مستقلين بالرسالة.

عززنا: قوّينا وشدَّدنا.

البلاغ المبين: التبليغ الواضح الظاهر للرسالة.

تطيرنا: تشاءمنا، وأصل التطير: التفاؤل والتشاؤم بالطير.

لنرجمنكم: لنرمينّكم بالحجارة .

ليمسنكم: ليصيبنكم.

أليم: موجع.

طائركم: سبب شؤمكم.

مسرفون: مجاوزون الحد في العصيان.

أقصى المدينة: أبعد مكان فيها.

رجل: قيل هو حبيب النجار.

يسعى: يعدو ويسرع.

فطرنى: خلقنى وابتدأ وجودى.

ترجعون: تردُّون من الموت إلى الحياة بالبعث.

لا تغن: لا تنفع.

ولا ينقذون: لا يخلصونى من الضرّ الذى أرادنى الرحمان به.

إنى إذا: إذا اتخذتُ من دونه آلهة.

مبين: واضح.

قيل ادخل الجنة: قيل له عند موته : ادخل الجنة.

يا ليت قومى يعلمون: تمنّى أن يعلموا بحاله وحميد عاقبته، فيؤمنوا مثل إيمانه.

تمهيد :

هذه قصة رسل الله إلى قرية ما ، ومقاومة أصحاب القرية للرسل، وقيامهم بتعللات باطلة لعدم الإيمان، مثل بشرية الرسل، ومثل أن الرُسل شؤم عليهم، وهى تهم باطلة، ناقشها القرآن فى عدد من قصص المرسلين .

فقد شاء الله أن يكون الرسل بشرًا من الناس، يأكلون ويشربون ويمرضون ، وتصيبهم الآفات، والأمراض والأحزان فيصبرون، ويأتيهم النصر والفتح فيشكرون ، وبهذا تتم القدوة والأسوة ، وهى قصة فيها تضحية من الرسل ، وتضحية من حبيب النجار ، أو من شخص مؤيد للرسل جاء من أقصى المدينة ، وأعلن إيمانه بالرسل فى شجاعة ، وقدّم الأدلة لقومه عن أسباب إيمانه ، ثم تعرض للبلاء المبين ، حتى مات قتيلا شهيداً فدخل الجنة ، وتمنى لقومه الهداية.

التفسير :

١٣ - وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ .

واضرب أيها الرسول الكريم لكفار مكة ، قصة عجيبة تنطبق على حالهم، قصة رسل من رسل الله تعالى، أُرسلوا إلى قرية ما، يدعون للإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر.

وقد ذهب القرطبى إلى أن هذه القرية هى أنطاكية، وهى قرية ببلاد الشام، تقع شمال سوريا، وقيل: إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله تعالى.

ونلاحظ أن سياق القصة يدلّ على أن هؤلاء الرسل، كانوا من عند الله تعالى.

قال تعالى: إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ... (يس: ١٤).

كما نلاحظ أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عليه السلام، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع اللاتى فيهن بطاركة، وهى: (القدس) لأنها بلد المسيح، و(أنطاكية) لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، و(الإسكندرية) لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطاركة والمطارنة والاساقفة والقساوسة، ثم (رومية) لأنها مدينة الملك قسطنطين، الذى نصر دينهم ووطده.

وقد اختار هذا الرأى ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات وأيّده بعدة أدلة [١٠٢].

ونلحظ أن القرآن الكريم أهمل أسماء أشخاص وبلاد، لأن العبرة لا تتعلق باسم الشخص أو اسم القرية، ومن ثم أغفل القرآن التحديد، ومضي إلى صميم العبرة ولبابها.

١٤ - إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ .

فهى قرية أرسل الله إليها رسولين، كما أرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه، فكذبهما أهل تلك القرية، فعززهما الله وقوّاهما برسول ثالث، يؤكد أنهم جميعا من عند الله، وتقدّم ثلاثتهم بدعوتهم إلى أهل القرية ، فقالوا : إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . أى: فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله تعالي، ونبذ عبادة الأصنام.

وبعض المفسرين ذكر أن الرسولين هما : يحيى، وبولس، وأن الله عززهما برسول ثالث اسمه: شمعون.

وقال آخرون أسماء أخرى ، والعبرة لا تتوقف على معرفة الأسماء ، ويكفينا معرفة الصفة بأنهم رسل الله إلى قرية من القرى ، إذ إن هذا التحديد ربما أدخلنا فى الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة .

١٥ - قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ .

أى: احتج أصحاب القرية عليهم بأنهم بشر مثلهم، فَلِمَ أوحى إلى الرسل دون الباقين من أهل القرية، ولِمَ لا يوحى إلى أهل القرية، كما أوحى إلى الرسل، وهذه شبهة راودت كثيرا من الأمم المكذبة حيث توقعوا أن يكون الرسول ملاكا، أو متميزا بميزات حتى يؤمنوا به .

وقد أراد الله أن يكون الرسول بشرا، يأكل ويشرب وينام ويتزوج، ويتعرض للمرض والألم، كما يتعرض للسرور والنصر، لتتم القدوة العملية به فى سائر شئون الحياة .

قال تعالى: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ... (التغابن: ٦) .

وقال تعالى: وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً . (الإسراء: ٩٤) .

ثم تدرج أصحاب القرية من تكذيب الرسل الثلاثة، إلى إنكار الوحى والرسالة ، وجحود ما أنزله الله على رسوله، واتهام الرسل الثلاثة بالكذب صراحة ودون مواربة، حيث قالوا: وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ .

١٦ - قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ .

أقسموا لهم أنهم صادقون فى الرسالة، والأمر أمر اختيار من السماء، لبعض البشر المؤهلين لهذه المهمة السامية، حيث ينزل الله عليهم الوحى والهداية، ويكلفهم بالبلاغ الواضح.

١٧ - وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ .

مهمتنا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا، بالآيات الشاهدة على صدقنا، وبذلك التبليغ نكون قد أدينا المهمة، لأن الهداية من الله، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

١٨ - قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

قال أصحاب القرية للرسل: إنا تشاءمنا منكم، وضاقت نفوسنا برؤيتكم، وكرهنا دعوتكم، وهذه عادة الجهال عندما يضيقون بأمر ويكرهونه، فإنهم يتشاءمون به، ولا يطيقون رؤيته أو الاستماع لمن يدعو إليه.

ثم هددوا الرسل وزجروهم قائلين: إن لم تنتهوا غن الاستمرار فى تبليغ رسالتكم، لنقتلنكم رميا بالحجارة، ولينزلن عليكم منا صنوف العذاب والآلام.

١٩ - قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

قالوا لهم : إن تطيركم وتشاؤمكم نابع من داخل أنفسكم ، ومن تفكيركم السيئ، فنحن لم نفعل شيئا يقتضى تشاؤمكم، كل ما فعلناه أن ذكرناكم بالله ، ودعوناكم للإيمان به، وخوّفناكم من عذابه، وهذا كله خير، وداع للتفاؤل والسرور، والهدى والإيمان .

بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

متجاوزون الحدّ فى الظلم والعتوّ، ممعنون فى الشرك، تعيشون فيه وتقيمون عليه، والمصائب التى حاقت بكم من سوء أعمالكم.

٢٠ - وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ .

وصلت دعوة الرسل فيما سبق إلى مرحلة حرجة، أهل القرية يكذّبونهم ويهددونهم، ويرفضون دعوتهم ، ونجد رجلا فى آخر المدينة قد استقر الإيمان فى قلبه، واطمأن اليقين فى فؤاده، فلم يقبع ساكنا، بل جاء يعدو مسرعًا، ينصح قومه بالإيمان، ويقول لهم: يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ . الذين يحملون هدى السماء، ووحى الله العلى القدير، ويرشدونكم إلى توحيد الله، والإيمان به وبملائكته ورسله واليوم الآخر.

٢١ - ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ .

إن هؤلاء الرسل لا يطلبون منكم مالا، ولا يبتغون كسبا ولا نفعا، وإنما يقومون بأعمالهم ابتغاء وجه الله، ورجاء هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه استقامة دنياكم، وسعادة آخرتكم.

لقد سلكت الهداية والإيمان قلوبهم، فأرادوا أن ينقلوا إليكم هذه الهداية وذلك الإيمان بالله، احتسابا لوجهه وطمعا فى رحمته.

٢٢ - وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

لِمَ لا أعبد الذى خلقنى، وبيده الخلق والأمر، وملك الدنيا والآخرة، وإليه ترجعون يوم القيامة، فيحكم بينكم بالعدل، ويكافئ المؤمنين، ويعاقب المجرمين ، إن هذا الخالق الذى فطرنا وأوجدنا من العدم، من حقه أن يُعبد وأن يُوحّد، وألا يعبد معه آلهة أخرى .

٢٣ - ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ .

أثبت فى الآية السابقة أن الذى خلقه هو الله، وأن العبادة ينبغى أن تتجه إلى الخالق سبحانه وتعالى، لا إلى الأصنام التى لم تَخْلُق، وهى لا تنفع ولا تضرّ ولا تشفع، ولا تنقذ عابدها من عذاب النار .

ومعنى الآية :

إنه لا يصح لى أن أتخذ من دون الله أصنامًا أو آلهة أخرى، كائنة ما كانت هذه الآلهة، لأنه: إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ .

لأن هذه الآلهة لا تملك شيئا، وبيد الله كل شيء، وإذا أراد الرحمان أن يصيبنى بضرر، فإن هذه الآلهة لا تنفعنى بشيء، ولا تملك حتى أن تشفع لى عند الله، ولا تملك أن تنقذنى من عذاب الله، وبهذا المنطق العقلى ظل هذا المؤمن يناقش قومه ويقدم الأدلة العقلية على وجود الله، وعلى أن بيده سبحانه النفع والضرّ وحده، وأن الأصنام والأوثان التى يعبدونها لا تملك شفاعة له إلى الله ، ولا تملك إنقاذه من عذاب الله، فلماذا يعبدها إذًا .

وَلَا يُنقِذُونِ . ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى، وتخليصى مما يصيبنى من ضر أراد الرحمان أن ينزله بى .

٢٤ - إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

إنى إذا عبدت من دونة آلهة لا تملك نفعا ولا ضرًا، ولا شفاعة، ولا إنقاذًا لى، فإنى أكون في ضلال مبين، وهلاك أكيد، فعبادة غير الله سفه بيِّن، وضلال واضح، يضر فاعله فى الدنيا والآخرة.

٢٥ - إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ .

أعلن إيمانه بالله فى غير مواربة ولا تردد، وجعلها صيحة قوية ليسمعوها، فقال: فَٱسۡمَعُونِ . فاسمعوا إيمانى ، وسجلوه علىّ ، وقيل: إن أهل القرية قالوا لحبيب النجار ، أو لهذا الرجل المؤمن الذى جاء ساعيا : أو أنت على دين هؤلاء الرسل؟ فأجابهم بالإيجاب، وورد أن أهل القرية عذبوه عذابا أليما، حتى خرجت أمعاؤه من دبره، فاتجه جهة الرسل، وأعلن إيمانه بربهم، فى جهر وإعلان ليسمعوا إيمانه، ويشهدوا له عند الله.

والسياق يحتمل هذا وذاك ، أى أن يكون خطابه لأهل القرية أو للرسل، كما يثبت لهذا المؤمن الروح الفدائية فى تأييد الرسل، والإيمان بالله تعالى، والجهر بهذا الإيمان، وتقديم الأدلة على صدق الإيمان، وعلى بطلان عبادة الأصنام.

قال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) ، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة .

٢٦ - قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ .

لقد قتله قومه، وعذبوه عذابا أليما، فقال له الله تعالى عند خروج روحه مؤمنا بالله، مجاهدا فى سبيل الله: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار، الذين هم فى حياة برزخيه أبدية، أرواحهم تسبح فى الجنة، وترد أنهارها وأشجارها، وتتمتع بنعيم الجنة وخيراتها وظلالها ورحماتها.

وحين دخل هذا المؤمن الجنة ورأى نعيمها، تمنى لقومه أن يعلموا هذا الثواب العظيم الذى آل إليه، والنعمة الكبرى التى منّ الله بها عليه.

٢٧ - بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ .

ليتهم يعلمون بمآلى وحسن حالى، ومغفرة ربى لذنوبى، وما نالنى من الكرامة وحسن الجزاء، حتى يعملوا مثل عملى، وينالوا مثل جزائى.

قال العلماء : نصح قومه حيا، ونصح قومه ميتا، وهذا شأن المؤمن المخلص، يحبّ الخير للناس جميعا.

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًا.

وقال القرطبى فى تفسيره :

فى هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم على أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار، وأهل البغى، والتشمّر فى تخليصه، والتلطف فى افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنَّى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام. ا هـ

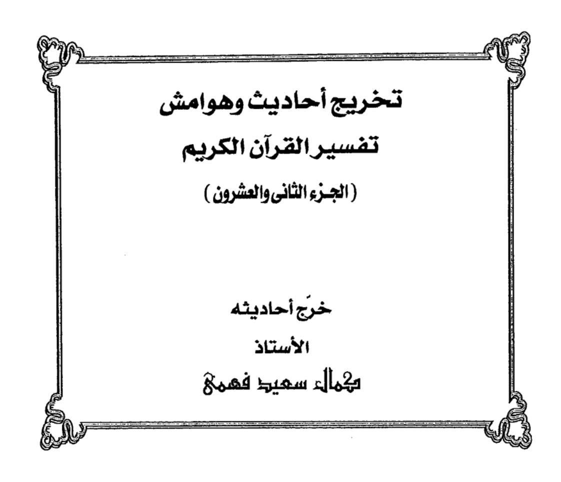
والحمد لله حمدًا كثيرا طيبا طاهرًا مباركا فيه ، كما يرضى ربنا ويحب، اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . (الكهف : ١٠) .

★ ★ ★

تم تفسير الجزء الثانى والعشرين من كتاب الله العزيز، مساء يوم الأحد ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٤٢٠ هـ الموافق ٨ أغسطس سنة ١٩٩٩ م ، بمدينة بورسعيد بجمهورية مصر العربية.

والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثانى والعشرون)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمى

(١) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٠٦) وأحمد فى مسنده (١٣٣١٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : «الصلاة يا أهل البيت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه إنما نعرفه من حديث حماد بن سلمة . ورواه مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٤) من حديث صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج النبى ﷺ غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن على فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء على فأدخله ثم قال : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ . ورواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٠٥) وفى المناقب (٣٧٨٧) من حديث عمر بن أبى سلمة ربيب النبى ﷺ قال : لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ فى بيت أم سلمة ، دعا فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلىّ خلف ظهره فجلله بكساء ثم قال : «اللهم هولاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» ، قالت أم سلمة : وأنا معهم يا نبى الله ؟ قال : «أنت على مكانك وأنت على خير» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه من حديث عطاء عن عمر بن أبى سلمة . ورواه أحمد فى مسنده (١٦٥٤٠) من حديث واثلة بن الأسقع قال : أتيت فاطمة رضى الله تعالى عنها أسألها عن على قالت : توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه على وحسن وحسين رضى الله تعالى عنهم آخذًا كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى عليا وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه أو قال كساء ثم تلا هذه الآية : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ وقال : «اللهم هؤلاء أهل بيتى وأهل بيتى أحق» .

(٢) ادعى بعض الشيعة أن هذه الآية خاصة بعلى وفاطمة والحسن والحسين ، دون أزواج النبى ﷺ ، مع أن الخطاب فى الآية لأزواج النبى ﷺ ، وحديث الكساء لا ينافى إدخال زوجات النبى ﷺ ، إذ ليس فيه صيغة من صيغ القصر المعروفة فى القرآن الكريم ، ونصّه فى صحيح مسلم ، عن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرط مرحّل فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء على فأدخله ، ثم قال : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم ...﴾ الآية .

(٣) أحكام القرآن ١٥٢٧/٣ .

(٤) إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين :

رواه أحمد فى مسنده (٢٦٠٣٥) من حديث أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ؛ ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال قالت : فلم يرعنى منه يوما إلا ونداؤه على المنبر : «يا أيها الناس» قالت : وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم دنوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد فسمعته يقول : «إن الله عز وجل يقول ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ...﴾ هذه الآية قال عفان ﴿أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾ . ورواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشىء فنزلت هذه الآية ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ...﴾ الآية ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ورواه الترمذى فى التفسير أيضًا (٣٠٢٢) من حديث أم سلمة أنها قالت : يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ...﴾ قال مجاهد : وأنزل فيها ﴿إن المسلمين والمسلمات ...﴾ وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة ، قال أبو عيسى : هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مرسلاً أن أم سلمة قالت كذا وكذا .

(٥) عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٩٤) ومسلم فى البر (٢٦٠٧) وأبو داود فى الأدب (٤٩٨٩) والترمذى فى البر (١٩٧١) وابن ماجة فى المقدمة (٤٦) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٥) وأحمد فى مسنده (٣٦٣١) من حديث عبد الله عن النبى ﷺ قال «إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» . ورواه أحمد فى مسنده (٤٥) من حديث أوسط بن عمرو قال : قدمت المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ بسنة فألفيت أبا بكر يخطب الناس فقال : قام فينا رسول الله ﷺ عام الأول فخنقته العبرة ثلاث مرار ثم قال : يا أيها الناس سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد مثل يقين بعد معافاة ولا أشد من ريبة بعد كفر وعليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر وهما فى الجنة ، وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور وهما فى النار .

(٦) الإحسان أن تعبد الله :

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ومسلم فى الإيمان (٨ ، ٩) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجة فى المقدمة (٦٣ ، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١) من حديث أبى هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٧) سبعة يظلهم الله فى ظله :

رواه البخارى فى الأذان (٦٦٠) وفى الزكاة (١٤٢٣) وفى الرقاق (٦٤٧٩) وفى الحدود (٦٨٠٨) ومسلم فى الزكاة (١٠٣١) ، والترمذى فى الزهد (٢٣٩١) والنسائى فى آداب القضاة (٥٣٨٠) وأحمد (٩٣٧٣) ومالك فى الجامع (١٧٧٧) من حديث أبى هريرة .

(٨) يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج :

رواه البخارى فى الصوم (١٩٠٥) وفى النكاح (٥٠٦٥ ، ٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠) وأبو داود فى النكاح (٢٠٤٦) والترمذى فى النكاح (١٠٨١) والنسائى فى الصوم (٢٢٤٠ ، ٢٢٤١) وفى النكاح (٣٢٠٧) وابن ماجة فى النكاح (١٨٤٥) والدارمى فى النكاح (٢١٦٥ ، ٢١٦٦) وأحمد فى مسنده (٣٥٨١ ، ٤٠١٣ ، ٤٠٢٥ ، ٤١٠١) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا : «يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

(٩) تفسير القرطبى ٦/٥٤٢٥ .

(١٠) تفسير القرطبى ٦/٥٤٢٦ .

(١١) انظر تفسير ابن كثير ، فقد كتب كلامًا موفقًا ، اقتبسنا منه ذلك .

(١٢) الرؤيا الصالحة :

رواه البخارى فى التعبير (٦٩٩٠) من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا : وما المبشرات ؟ قال : «الرؤيا الصالحة» . ورواه مسلم فى الصلاة (٤٧٩) ، وأحمد (١٩٠٣) ، والنسائى فى التطبيق (١٠٥٤ ، ١١٢٠) ، وأبو داود فى الصلاة (٨٧٦) ، وابن ماجة فى تعبير الرؤيا (٣٨٩٩) ، والدارمى فى الصلاة

(١٣٢٥) من حديث ابن عباس قال : كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر فقال : «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، ألا وإنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم» . ورواه الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٢) وأحمد فى مسنده (١٣٤١٢) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى» ، قال : فشق ذلك على الناس فقال : «لكن المبشرات» قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : «رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه ابن ماجة فى تعبير الرؤيا (٣٨٩٦) والدارمى فى الرؤيا (٢١٣٨) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٠٠) من حديث أم كرز الكعبية قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» . ورواه أحمد فى مسنده (٢٣٢٨٣) من حديث أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : «لا نبوة بعدى إلا المبشرات» . قال : قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : «الرؤيا الحسنة أو قال الرؤيا الصالحة» . ورواه أحمد فى مسنده (٢٤٤٥٦) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : «لا يبقى بعدى من النبوة شىء إلا المبشرات» قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال «الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له» . ورواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٨٣) من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : «لن يبقى بعدى من النبوة إلا المبشرات» فقالوا : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : «الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة» .

(١٣) إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٤) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٠) وأحمد فى مسنده (١٦٢٩٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب» .

(١٤) جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة :

رواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٣) ومسلم فى الرؤيا (٢٢٦٤) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة» . ورواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٧) من حديث عبادة ابن الصامت عن النبى ﷺ قال : «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة» . ورواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٨) ومسلم فى الرؤيا (٢٢٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» . ورواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٩) من حديث أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة» .

(١٥) لا يبقى بعدى من النبوة :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٢)

(١٦) إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٣٤ ، ٣٥٣٥) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

(١٧) الحزب ٤٣ ص ١٩٤ – التفسير الوسيط بإشراف الأزهر .

(١٨) تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح :

رواه البخارى فى الأذان (٦٤٩) وفى تفسير القرآن (٤٧١٧) ومسلم فى المساجد (٦٤٩) والترمذى فى التفسير (٣١٣٥) والنسائى فى الصلاة (٤٨٦) وابن ماجة فى الصلاة (٦٧٠) وأحمد (٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضًا بلفظ «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح» يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ . ورواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٥) ، وفى التوحيد (٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦) ومسلم فى المساجد (٦٣٢) ، والنسائى فى الصلاة (٤٨٥) ، وأحمد (٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦) ومالك فى النداء للصلاة (٤١٣) من حديث أبى هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ...» الحديث .

(١٩) تفسير القرطبى ١٤/ ٢٠٠ .

(٢٠) مكرر مع ما بعده «أمين» ويكون النبىء والنبى اسمين .

(٢١) مكرر مع ما قبله ، ويكون المرسَل والمرسِل اسمين .

(٢٢) التفسير المنير للأستاذ وهبة الزحيلى ، الجزء ٢٢ ص ٥٠ – ٥٤ .

(٢٣) زوجتكها بما معك من القرآن :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٩) وفى النكاح (٥١٣٢) وأبو داود فى النكاح (٢١١١) والترمذى فى النكاح (١١١٤) وأحمد فى مسنده (٢٢٣٤٣) من حديث سهل بن سعد قال : أتت النبى ﷺ امرأة فقالت إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ فقال : «ما لى فى النساء من حاجة» ، فقال رجل : زوجنيها ، قال : «أعطها ثوبًا» قال : لا أجد قال : «أعطها ولو خاتمًا من حديد» فاعتل له فقال : «ما معك من القرآن» قال كذا وكذا ، قال : «فقد زوجتكها بما معك من القرآن» .

(٢٤) اللهم هذا فعلى فيما أملك :

رواه أبو داود فى النكاح (٢١٣٤) والترمذى فى النكاح (١١٤٠) والنسائى فى عشرة النساء (٣٩٤٣) وابن ماجة فى النكاح (١٩٧١) ، وأحمد (٢٤٥٨٧) والدارمى فى النكاح (٢٢٠٧) من حديث عائشة ، واللفظ لأبى داود ، وأشار الترمذى إلى تضعيفه .

(٢٥) من كانت له امرأتان :

رواه أبو داود فى النكاح (٢١٣٣) والترمذى فى النكاح (١١٤١) والنسائى فى عشرة النساء (٣٩٤٢) وابن ماجة فى النكاح (١٩٦٩) .

(٢٦) فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتها :

رواه البخارى فى الوضوء (١٩٨) وفى الأذان (٦٦٥) وفى الهبة (٢٥٨٨) وفى فرض الخمس (٣٠٩٩) وفى المغازى (٤٤٤٢) وفى الطب (٥٧١٤) ومسلم فى الصلاة (٤١٨) واللفظ له من حديث عائشة قالت : أول ما اشتكى رسول الله ﷺ فى بيت ميمونة فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتها وأذن له قالت : فخرج ويد له على الفضل بن عباس ويد له على رجل آخر وهو يخط برجليه فى الأرض .

(٢٧) انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم :

رواه الترمذى فى النكاح (١٠٨٧) والنسائى فى النكاح (٣٢٣٥) وابن ماجة فى النكاح (١٨٦٥) والدارمى فى النكاح (٢١٧٢) وأحمد فى مسنده (١٧٦٨٨) من حديث المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبى ﷺ : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٢٨) لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٩١ ، ٤٧٩٢) وفى الاستئذان (٦٢٣٩ ، ٦٢٧١) ومسلم فى النكاح (١٤٢٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى ...﴾ الآية .

(٢٩) إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسا كان أو نحوه :

رواه مسلم فى النكاح (١٤٢٩) وأبو داود فى الأطعمة (٣٧٣٨) وأحمد فى مسنده (٦٣٠١) من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ : «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو نحوه» .

(٣٠) لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت :

رواه البخارى فى الهبة (٢٥٦٨) وأحمد فى مسنده (٩٢٠١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ، ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت» .

(٣١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ – كتاب التفسير ، ٣٣ – سورة الأحزاب ، ١٠ – باب ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ .

(٣٢) اللهم صل على محمد :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) وفى التفسير (٤٧٩٧) وفى الدعوات (٦٣٥٧) ومسلم فى الصلاة (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضى الله عنه ، أنه قيل : يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : «قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» . ورواه البخارى فى التفسير (٤٧٩٨) وفى الدعوات (٦٣٥٨) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلى ؟ قال : «قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم» . ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٦٩) وفى الدعوات (٦٣٦٠) ومسلم فى الصلاة (٤٠٧) من حديث أبى حميد الساعدى رضى الله عنه ، أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : «قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» . ورواه مسلم فى الصلاة (٤٠٥) من حديث أبى مسعود الأنصارى قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله تعالى أن نصلى عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله ﷺ : «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم» .

(٣٣) من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا :

رواه مسلم فى الصلاة (٤٠٨) وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٠) والترمذى فى الصلاة (٤٨٥) والنسائى فى السهو (١٣٩٦) وأحمد فى مسنده (٨٦٣٧) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من صلى علىَّ واحدة صلى الله عليه عشرا» .

(٣٤) إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة :

رواه أبو داود فى الصلاة (١٠٤٧ ، ١٥٣١) والنسائى فى الجمعة (١٣٧٤) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٠٨٥) وفى الجنائز (١٦٣٦) والدارمى فى الصلاة (١٥٧٢) وأحمد فى مسنده (١٥٧٢٩) من حديث أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه فإنْ صلاتكم معروضة على» قال : قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ يقولون بليت ، فقال ﷺ : «إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء» .

(٣٥) إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول :

رواه مسلم فى الصلاة (٣٨٤) وأبو داود فى الصلاة (٥٢٣) والترمذى فى المناقب (٣٦١٤) والنسائى فى الأذان (٦٧٨) وابن خزيمة فى صحيحه (٤١٨) وأحمد فى مسنده (٦٥٣٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ، فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة» .

(٣٦) قال ابن كثير : وهذا أثر حسن ، وقد توسع ابن كثير فى فضل الصلاة على النبى ﷺ وآدابها ، وما يتعلق بهذه الآية ، فليرجع إليه من أراد .

(٣٧) أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم :

رواه مسلم فى البر (٢٥٨٩) وأبو داود فى الأدب (٤٨٧٤) والترمذى فى البر (١٩٣٤) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٤) وأحمد فى مسنده (٧١٠٦) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «ذكرك أخاك بما يكره» قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ، قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته» .

(٣٨) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله :

رواه البخارى فى الصلاة (٣٩٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤١) والترمذى فى الإيمان (٢٦٠٨) والنسائى فى تحريم الدم (٣٩٦٦) وفى الإيمان (٥٠٠٣) وأحمد فى مسنده (١٢٦٤٣ ، ١٢٩٣٥) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ، رواه مسلم فى الإيمان أيضًا (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» . ورواه فى مسلم فى الإيمان (٢١) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٠) والترمذى فى الإيمان (٢٦٠٦) والنسائى فى الجهاد (٣٠٩٣) وفى تحريم الدم (٣٩٧١) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٢٧) وأحمد فى مسنده (٦٨ ، ٨٦٧٨ ، ٩١٩٠) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم

وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» . ورواه الترمذي في التفسير (٣٣٤١) وابن ماجة في الفتن (٣٩٢٨) وأحمد في مسنده (١٣٧٩٧ ، ١٤١٥٠) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ، ثم قرأ : ﴿إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائي في تحريم الدم (٣٩٧٩) من حديث النعمان بن بشير قال : كنا مع النبي ﷺ فجاء رجل فساره فقال : «اقتلوه» ثم قال : «أيشهد أن لا إله إلا الله» قال : نعم ، ولكنما يقولها تعوذا فقال رسول الله ﷺ : «لا تقتلوه فإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» . ورواه النسائي في تحريم الدم أيضًا (٣٩٨٣) وأحمد في مسنده (١٥٧٢٧) من حديث أوس بن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ثم تحرم دماؤهم وأموالهم إلا بحقها» . ورواه أحمد في مسنده (٢٤١) من حديث عمر أنه قال لأبي بكر : كيف تقاتل الناس يا أبا بكر وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها ، قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر رضي الله عنه للقتال فعرفت أنه الحق .

(٣٩) بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخاري في العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» . رواه مسلم في الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥) وأحمد في مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبي موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا» . ورواه أحمد في مسنده (١٩٢٠٠) من حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه أن النبي ﷺ بعث معاذا وأبا موسى إلى اليمن فقال : «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا ، وتطاوعا ولا تختلفا» قال : فكان لكل واحد منهما فسطاط يكون فيه يزور أحدهما صاحبه .

(٤٠) انظر تفسير القاسمي ٥/٥٤٣ نقلا عن عن الإكليل وفيه ما يفيد : لو أن رجلا أو أكثر اقتصُّوا أثر امرأة ، فغلبوها على نفسها ، ففجروا بها كان عقابهم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم ، لقوله تعالى : ﴿أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ .

(٤١) ما المسئول عنها بأعلم من السائل :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٦)

(٤٢) اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرا :

رواه البخاري في الأذان (٨٣٤) ومسلم في الذكر (٢٧٠٥) ، كلاهما عن أبي بكر .

(٤٣) فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله :

رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠) ومسلم في الزكاة (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسا في القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة مثل ذلك ، وأعطى أناسًا من أشراف العرب فآثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت : والله لأخبرن النبي ﷺ فأتيته فأخبرته ، فقال : «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» .

(٤٤) انظر تفسير ابن كثير .

(٤٥) فى ظلال القرآن ٥١/٢٢ مطابع عيسى البابى الحلبى وشركاه - مصر .

(٤٦) انظر كتاب «المرأة فى الإسلام» د . عبد الله شحاتة ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الباب السادس : زوجات الرسول ﷺ وحكمة تعددهن .

(٤٧) من كانت له امرأتان :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٢٥)

(٤٨) انظر تفسير المنار للآية الثالثة من سورة النساء ، وتفسير الشيخ محمد المدنى للآية فى كتابه : «المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء» ، وتفسير القرآن الكريم : للدكتور عبد الله شحاتة الجزء الرابع ، الآية ٣ من سورة النساء .

(٤٩) انظر ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٥٣/٢٢ - ٥٦ .

(٥٠) قال الفخر الرازى : ﴿معاجزين﴾ حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز ، أى : إبطال عمل الآيات ومنع الناس من التمسك بها ، والعجز عن الوصول إلى هديها .

(٥١) ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٣) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤١٧) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أن داود النبى عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده . ورواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٢) من حديث المقدام رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» .

(٥٢) الفخر الرازى ١٩٦/٩ ، دار إحياء التراث العربى بيروت .

(٥٣) تفسير القرطبى ٥٥٠٩/٦ وفيه : قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك ، وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهنّ ، ثم إنه لا بقاء لذلك ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له ، فرخص فى ذلك ، والله أعلم .

(٥٤) إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون :

رواه البخارى فى اللباس (٥٩٥٠) ومسلم فى اللباس (٢١٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون» .

(٥٥) أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٣١) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له : «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثة وينام سدسه ، ويصوم يومًا ويفطر يومًا» .

(٥٦) أفلا أكون عبدًا شكورًا :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٣٠) وفى تفسير القرآن (٤٨٣٦) وفى الرقاق (٦٤٧١) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨١٩) والترمذى فى الصلاة (٤١٢) والنسائى فى قيام الليل (١٦٤٤) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٤١٩) وأحمد فى مسنده (١٧٧٣٣) من حديث المغيرة : إن كان النبى ﷺ ليقوم ليصلى حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له ، فيقول : «أفلا أكون عبدا شكورا» . ورواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٣٧) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٢٠) وأحمد فى مسنده (٢٤٣٢٣) من حديث عائشة رضى الله عنها أن نبى الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا» ، فلما كثر لحمه صلى جالسًا فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع . ورواه ابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٤٢٠) من حديث أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له : إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : «أفلا أكون عبدًا شكورًا» .

(٥٧) عجبًا للمؤمن :

أخرجه مسلم فى الزهد (٢٩٩٩) ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» .

(٥٨) أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى :

رواه البخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة (٤٣٨) ومسلم فى المساجد (٥٢١ ، ٥٢٣) والنسائى فى الغسل (٤٣٢) وفى المساجد (٧٣٦) والدارمى فى الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم فى المساجد (٥٢٣) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وابن ماجة فى الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبى هريرة . ورواه أبو داود فى الصلاة (٤٨٩) والدارمى فى السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبى ذر . ورواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٢٣٦) من حديث أبى موسى رضى الله عنه .

(٥٩) بعثت إلى كل أحمر وأسود :

رواه مسلم فى المساجد (٥٢١) من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ...» الحديث . وانظر ما قبله .

(٦٠) هرقل سأل أبا سفيان عن رسول الله :

رواه البخارى (٧ ، ٥١ ، ٢٦٨١ ، ٣١٧٤ ، ٤٥٥٣ ، ٥٩٨٠ ، ٦٢٦١، ٧١٩٦) ومسلم (١٧٧٣) والترمذى (٢٧١٧) من حديث صخر بن حرب .

(٦١) أشد الناس بلاء الأنبياء :

بوّب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨) ، وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٣) ، وأحمد (١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠) ، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٣) ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٦٢) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) وابن ماجة فى الزهد (٤١٤٣) وأحمد فى مسنده (٧٧٦٨) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .

(٦٣) قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله :

رواه مسلم فى الزكاة باب فى الكفاف والقناعة (١٠٥٤) والترمذى فى الزهد باب ما جاء فى الكفاف والصبر عليه (٢٤٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله» .

(٦٤) لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة :

رواه الترمذى (٢٣٢٠) وابن ماجة (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد وقال : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . ولفظ الترمذى : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا ..» الحديث . ولفظه عند ابن ماجة : «والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل ..» الحديث . قال السيوطى فى زيادة الجامع فى تخريج الحديث : الترمذى والحاكم وصححه ، من حديث سهل بن سعد وضعفه الذهبى . قال المناوى فى الفيض : قال الترمذى : صحيح غريب ، وليس كما قال ففيه عبد الحميد بن سليمان أورده فى الضعفاء وقال أبو داود : غير ثقة ، ورواه ابن ماجة أيضًا وفيه عنده زكريا بن منظور ، قال الذهبى فى الضعفاء : منكر الحديث ، ورواه عنه الحاكم أيضًا وصححه فرده الذهبى بأن زكريا بن منظور ضعفوه . وقال فى موضع آخر : ولتعدد هذه الطرق رمز المؤلف لحسنه .

(٦٥) إن فى الجنة غرفا ترى ظهورها :

رواه الترمذى فى البر (١٩٨٤) وفى الجنة (٢٥٢٦) وأحمد فى مسنده (١٣٤٠) من حديث على قال : قال النبى ﷺ : «إن فى الجنة غرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقام أعرابى فقال : لمن هى يا رسول الله ؟ قال : «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

(٦٦) يا ابن آدم أنفق أنفق عليك :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٨٤) وفى التوحيد (٧٤٦٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣) من حديث أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال : «قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم أنفق أنفق عليك ، وقال : يمين الله ملأى» وقال ابن نمير : ملآن سحاء لا يغيضها شىء الليل والنهار .

(٦٧) ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم فى الزكاة (١٠١٠) ، وأحمد (٧٩٩٣) من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

(٦٨) بعثت أنا والساعة جميعًا :

رواه أحمد فى مسنده (٢٢٤٣٨) عن بريدة قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «بعثت أنا والساعة جميعًا إن كادت لتسبقنى» .

(٦٩) ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار :

رواه أحمد فى مسنده (١٦٥٩٠) من حديث تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر» ، وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد ، والطبرانى ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٧٠) جاء الحق وزهق الباطل :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٧٨) ، وفى المغازى (٤٢٨٧) وفى التفسير (٤٧٢٠) ، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨١) ، وأحمد (٣٥٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٣٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وفيه عن ابن عمر . وورواه مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٠) ، وأحمد (١٠٥٦٥) من حديث أبى هريرة .

(٧١) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، للفيروزيادى ٣٨٦/١ .

(٧٢) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٩٦/٢٢ .

(٧٣) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ١٣٦/٢٢ .

(٧٤) أنه رأى جبريل له ستمائة جناح :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٣٢ ، ٤٨٥٦ ، ٤٨٥٧) ومسلم فى الإيمان (١٧٤) سئل زر بن حبيش عن قول الله تعالى : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ فقال : حدثنا ابن مسعود : أنه رأى جبريل له ستمائة جناح .

(٧٥) اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت :

رواه البخارى فى الأذان (٨٤٤) وفى الدعوات (٦٣٣٠) وفى القدر (٦٦١٥) وفى الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم فى المساجد (٥٩٣) وأبو داود فى الصلاة (١٥٠٥) والنسائى فى السهو (١٣٤١) والدارمى فى الصلاة (١٣٤٩) وأحمد فى مسنده (١٧٦٧٣) من حديث وراد كاتب المغيرة بن شعبة ، قال : أملى علىَّ المغيرة بن شعبة فى كتاب إلى معاوية أن النبى ﷺ كان يقول فى دبر كل صلاة مكتوبة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» .

(٧٦) ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض :

رواه مسلم فى الصلاة (٤٧٧) وأبو داود فى الصلاة (٨٤٧) والنسائى فى التطبيق (١٠٦٨) وأحمد فى مسنده (١١٤١٨) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : «ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض ، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» .

(٧٧) اللَّمة : الخطرة التى تقع فى القلب ، أو الإيعاز والتوجيه إلى العمل ، أو الطائف الذى يطوف بالنفس لتحريكها إلى نوازع الشر أو الخير .

(٧٨) إن للشيطان لمة بابن آدم :

رواه الترمذى فى التفسير (٢٩٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ، ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ...﴾ الآية . قال السيوطى فى الدر : أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود .. الحديث ، فذكره مرفوعًا .

(٧٩) إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٩٦٩) ، ومسلم فى القدر (٤٧٨١) ، وأحمد (٣٤٤١ ، ٣٨٨٢)، والترمذى فى القدر (٢٠٦٣) .

(٨٠) من سره أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ له :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) وفى الأدب (٥٩٨٥ ، ٥٩٨٦) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٥٧) وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٣) (١٢١٧٨ ، ١٣١٧٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سره أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ له فى أثره فليصل رحمه» .

(٨١) اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض :

رواه البخارى فى التهجد (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (١٢٨٨) ، والترمذى فى الدعوات (٣٣٤٠) ، والنسائى فى قيام الليل (١٦٠١) وأبو داود فى الصلاة (٦٥٥) ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٤٥) ، وأحمد (٢٥٧٥) ، ومالك فى النداء للصلاة (٤٥١) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٤٨) .

(٨٢) سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا نزع بهذه الآية قال : ألا إن سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له . وقال : وأخرج العقيلى وابن لال وابن مردويه والبيهقى من وجه آخر عن عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» ، وقرأ عمر ﴿فمنهم ظالم لنفسه ...﴾ . وقال : وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبى ﷺ قال : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» . قال المناوى فى الفيض : أعله العقيلى بالفضل وقال : لا يتابع عليه .. وفيه أيضًا الفضل بن عميرة القرشى ، قال فى الميزان عن العقيلى : لا يتابع على حديثه ثم ساق له هذا الخبر رواه عنه عمرو بن الحصين وعمرو ضعفوه ا هـ . وتعجب منه ابن معين فكأنه استنكره .

(٨٣) من لبس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة :

رواه البخارى فى اللباس (٥٨٣٢) ومسلم فى اللباس (٢٠٧٣) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «من لبس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة» . ورواه البخارى فى اللباس (٥٨٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير ، عن النبى ﷺ قال : «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» . ورواه البخارى فى اللباس (٥٨٣٤) ومسلم فى اللباس (٢٠٦٨) من حديث عمر قال : قال النبى ﷺ : «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» . ورواه مسلم فى اللباس (٢٠٧٤) من حديث أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» .

(٨٤) هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة :

رواه البخارى فى اللباس (٥٨٣١) وأبو داود فى الأشربة (٣٧٢٣) والترمذى فى الأشربة (١٨٧٨) وابن ماجة فى الأشربة (٣٤١٤) (٢٢٨٤٨) من حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «الذهب والفضة والحرير والديباج هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة» .

(٨٥) أخرجه الإمام أحمد ، ورواه الترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجة ، انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى المجلد ٣ ص ١٤٩ .

(٨٦) رواه ابن أبى حاتم عن أبى أمامة رضى الله عنه ، انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابونى .

(٨٧) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يدخل أحدًا عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «لا ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا ، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب» .

(٨٨) أما أهل النار الذين هم أهلها :

رواه مسلم فى الإيمان (١٨٥) وابن ماجة فى الزهد (٤٣٠٩) وأحمد فى مسنده (١٠٦٩٣) من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناسًا أصابتهم النار بذنوبهم – أو قال بخطاياهم – فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل» فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية .

(٨٩) أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤١٩) وأحمد فى مسنده (٧٦٥٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة» .

(٩٠) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله ﷺ : «إن الله لا ينام ...» ١٦/١ رقم ١٧٩ ، وقد أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، باب أنكرت الجهمية ٧١/١ رقم ١٩٦ ، والإمام أحمد فى مسنده ٤٠٠/٤ – ٤٠١ ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ١٥٢ تحقيق محمد على الصابونى .

(٩١) البخارى ، كتاب التفسير ، سورة هود ٩٤/٦ ، ومسلم ، كتاب البرّ والصلة ، باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم ٢٥٨٣.

(٩٢) فى رحاب التفسير ، عبد الحميد كشك ، المجلد الخامس ، المكتب المصرى الحديث ص ٤٥٦١ ، القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٣٤١٢٧ .

(٩٣) بصائر ذوى التمييز ٣١٠/١ بتصرف .

(٩٤) انظر بصائر ذوى التمييز ٣٩٢/١ .

(٩٥) فى ظلال القرآن ٧/٢٣ .

(٩٦) إن آثاركم تكتب فلا تنتقلوا :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٢٦) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فقال رسول الله ﷺ : «إن آثاركم تكتب فلا تنتقلوا» . وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٩٧) قل آمنت بالله ثم استقم :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٨) والترمذى فى الزهد (٢٤١٠) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٢) وأحمد فى مسنده (١٤٩٩١ ، ١٤٩٩٢ ، ١٤٩٩٣ ، ١٨٩٣٨) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٠ ، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٩٨) من سن فى الإسلام سنة حسنة :

رواه مسلم فى العلم (١٠١٧) وفى الزكاة (٢٥٥٤) ، والدارمى فى المقدمة (٥١٢ ، ٥١٤) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٥) ، وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٣) ، وأحمد (١٨٦٧٥ ، ١٨٧٠١ ، ١٨٧١٨ ، ١٨٧٢٠) من حديث جرير بن عبد الله البجلى . ورواه أحمد (١٠١٧٨ ، ١٠٣٧٠) من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد أيضًا (٢٢٧٧٨) من حديث حذيفة ، ورواه ابن ماجة فى المقدمة (٢٠٧) من حديث وهب بن عبد الله .

(٩٩) إذا مات ابن آدم انقطع عمله :

رواه مسلم فى الوصية (٣٠٨٤) ، والترمذى فى الأحكام (١٢٩٧) ، والنسائى فى الوصايا (٣٥٩١) ، وابن ماجة فى المقدمة (٢٣٨) ، وأحمد (٨٤٨٩) ، والدارمى فى المقدمة (٥٥٨) . وهو بلفظ : «إذا مات الإنسان ....» الحديث . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٠٠) دياركم تكتب آثاركم :

رواه مسلم فى المساجد (٦٦٥) وأحمد فى مسنده (١٤١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : «إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» ، قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال : «يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم» . وانظر هامش (٩٦) .

(١٠١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١٥٧/٣ باختصار ، وبه عدد من الأحاديث النبوية فمن أراد المزيد فليرجع إليه .

(١٠٢) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١٦١/٣ ، حيث اختار ابن كثير أن هؤلاء الرسل رسل مستقلون فى رسالتهم إلى قرية ما ، ليست أنطاكية ، وإن كان اسمها أنطاكية فهو توافق أسماء مع قرية أخرى ، غير أنطاكية المسيحية .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (الثانى والعشرين)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (الثانى والعشرون)

ويليه الجزء (الثالث والعشرون) بإذن الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0461309